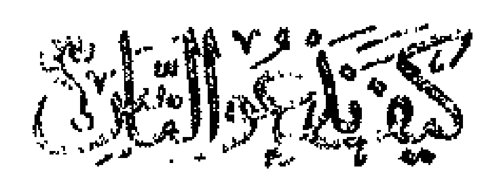
محمد قطب

كيف ندعو الناس؟

دار الشروق



الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الثالثة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص. ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com :البريد الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)

مقدمة

الدعوة إلى الله تكليف دائم بالنسبة لهذه الأمة .

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

ذلك أنها أمة خاتم الرسل ﷺ ، التي تحمل رسالته من بعده ، ورسالته ﷺ موجهة إلى البشرية كافة ، وإلى الزمن كله ، من لدن بعثته إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها .

وهي رسالة ذات شقين : شق موجه للذين لم يؤمنوا بهذا الدين بعد ، لدعوتهم إلى الإيمان ؛ وشق موجه للذين آمنوا ، لتذكيرهم وترسيخ إيمانهم :

﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (الذاريات : ٥٥) .

﴿ يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزلَ من قبلُ ﴾ (النساء : ١٣٦) .

ولكن الأمة الإسلامية تمر اليوم بظروف خاصة ، ربما لم تمر بها من قبل ، فقد هبطت معرفتها بالإسلام إلى أدنى حد وصلت إليه فى تاريخها كله ، وأما ممارستها للإسلام فهى أدنى من ذلك بكثير !

ولذلك فإن مهمة الدعوة اليوم أخطر بكثير من مهمتها فى الظروف السابقة ، فلم تعد مجرد التذكير ، بل أوشكت أن تكون إعادة البناء ، الذى تهاوت أسسه وأوشكت أن تنهار ، فى الوقت الذى تداعت فيه الأمم على الأمة الإسلامية من كل

جانب، كما أخبر الرسول ﷺ : «يُوشِكُ أن تَدَاعى عليكمُ الأمَمُ كما تَدَاعى الأكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِها». قالوا: أمن قلَّة نحن يومئذ يا رسولَ الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاء السَّيل، ولَيَنْزِعَنَّ الله المَهابَةَ من صُدور أعدائكم، ولَيَقْذِفن في قلوبكم الوَهْن». قالوا: وما الوَهْن يا رسول الله؟ قال: «حُبُّ الدنيا وكراهية الموت»(١).

وكلنا ثقة أن البناء سيعود بإذن الله، وسيعود شامخًا كما كان. والمبشرات كلها تشير إلى جولة جديدة للإسلام، ممكَّنة في الأرض، على الرغم من كل الحرب التي تشنها الجاهلية في الأرض كلها على الإسلام. ولكنها مهمة شاقة في الغربة الثانية للإسلام: «بدأ الإسلامُ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ»(٢).. مهمة تحتاج إلى جهد فائق وبصيرة نافذة.

ففي الغربة الأولى كان الإسلام معلومًا عند الناس في أصوله العامة على الأقل، وهي الإيمان بالله الواحد والإيمان بالوحي والنبوة والإيمان بالبعث، سواء في ذلك مَن دخل في الدين الجديد، ومَن وقف يحاربه أشد الحرب، ويرصد طاقته كلها لمحاولة القضاء عليه، وإنما كان سبب الغربة قلة المؤمنين به، وضعفهم وهوانهم على الناس، وكثرة الرافضين له، وطغيانهم في الأرض.

قال وَرَقَةُ بنُ نَوْفَل لرسول الله ﷺ، حين أخبرته خديجة رضي الله عنها بقصة الوحي: ليتني أكون فيها جَذَعًا حين يخرجك قومُك! قال: «أوَ مُخْرِجِيَّ هُم؟» قال: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِي!(٣).

وسأل رجل رسول الله ﷺ : إلى أي شيء تدعو الناس؟ قال: «أدْعُوهم للا إله إلا الله». قال. هذا أمر لا تتركه لك العرب!

أما في الغربة الثانية فالأمر مختلف، وإن كانت الغربة غربة في جميع الأحوال.

الإسلام اليوم غريب على أهله، فضلاً عن غربته على بقية الناس، وحين

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود. (٢) أخرجه مسلم.
(٣) انظر كتب السيرة.

تعرضه عليهم على حقيقته يستوحشون منه، ويقولون لك: من أين جئت بهذا؟ ليس هذا هو الإسلام الذى نعرفه!

حين تقول للطائف حول الضريح، يتمسح به، ويطلب البركات من صاحبه المتوفى منذ سنين أو منذ قرون: إن هذا شرك لا يجوز! يقول لك: من أين جئت بهذا؟ إنك أنت الذى تريد أن تجرد الإسلام من روحانيته!

وحين تقول لمن يشرّع بغير ما أنزل الله، ولمن يرضى بشرع غير شرع الله: هذا شرك. يقول لك: من أين جئت بهذا؟ هذا تطرف وجمود ورجعية! الدنيا تطورت! أو يقول لك على أقل تقدير: شرك دون شرك! شرك لا يخرج من الملة!

وحين تقول لأستاذ علم الاجتماع، وأستاذ علم النفس، وأستاذ التربية، وأستاذ التاريخ... إن ما درستموه من علوم الغرب، وما تدرّسونه لطلابكم مخالف للمفاهيم الإسلامية، وفى بعض الأحيان مصادم مصادمة صريحة للعقيدة، يقولون لك ـ إلا ما رحم ربك ـ: ما للإسلام وهذه الأمور؟ تريدون أن تحشروا الإسلام فى كل شىء؟ هذا علم، والإسلام دين! والدين لا دخل له بالعلم!

ومئات من الأمور.. حين تعرض حقيقة الإسلام فيها للناس يستوحشون، وفى أقل القليل يستغربون، وتحتاج إلى جهد كبير لإقناعهم بأن هذا هو ما جاء من عند الله، وليس ما تصوّروه هم على أنه الإسلام!

وذلك كله فى مجال «المعرفة».. أما مجال الممارسة فالجهد المطلوب فيه قد يكون أشد!

إن المعرفة وحدها لا تكفى، وإن كانت هى البداية التى لابد من البدء بها قبل كل شىء، وقد كانت الكلمة الأولى التى بدأ بها الوحى هى كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق: ١)، ثم نزل على رسول الله ﷺ بعد فترة قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩). والعلم ـ كما فهمه السلف الصالح رضوان الله عليهم ـ ليس مجرد المعرفة، إنما هو المعرفة التى تؤدى إلى العمل، ومن ثم انتقلت المعرفة من طور التعرف على الحقيقة إلى طور العمل بمقتضاها.

ولئن كان تعريف الناس بدقائق مفهوم لا إله إلا الله قد استغرق من جهد الرسول ﷺ شيئًا غير قليل فى غربة الإسلام الأولى، فإن الجهد الحقيقى الذى بذله رسول الله ﷺ - فى مكة خاصة - كان هو تربية المؤمنين الذين قبلوا الحق وآمنوا به، على مقتضيات لا إله إلا الله، مرحلة بعد مرحلة حتى استقاموا على الطريق، بدءًا بتربية القاعدة الصلبة الراسخة البنيان، ثم تربية سائر الناس.

واليوم - فى غربة الإسلام الثانية - تواجه الدعوة ضرورة بذل الجهد فى الأمرين معًا: التعريف والتربية.

فالتعريف بالإسلام لقوم يعرفون بعضه ويجهلون بعضه، ويظنون فى الوقت ذاته أنهم يعرفونه كله، مشكلة تحتاج إلى جهد ليس بالقليل. أما التربية - بالنسبة للقاعدة على الأقل - فمشكلة تحتاج إلى جهد أكبر؛ لتعدد مجالات التربية المطلوبة من جهة، ولأن النفوس لا تتخلى عن مألوفاتها بسهولة، ولا تستجيب استجابة فورية لكل ما يُطلب منها من تكاليف.. فضلاً عن كون المطلوب ليس مجرد بناء نفوس مؤمنة، بل إعداد شخصيات فائقة التكوين، تصلح لحمل المهمة الضخمة التى تواجهها.

ومن المهم - إلى الدرجة القصوى - أن نعرف كيف ندعو الناس.. فالأزمة التى يمر بها العالم الإسلامى اليوم أزمة حادة، ربما كانت أشد أزمة مرت به فى التاريخ.. وتجمع الأعداء لحرب الإسلام، ربما لم يسبقه من قبل تجمع بهذا الحجم وبهذا الإصرار. وحاجة البشرية إلى الإسلام اليوم لا تقل عن حاجتها إليه يوم أنزل على رسول الله ﷺ.

وما لم نسر فى طريق الدعوة على خطى مستبصرة، مستمكنة فى ذات الوقت، فقد لا نصل إلى ما نهدف إليه، وقد يذهب الكثير من جهدنا بغير طائل حقيقى.

ولقد كان موضوع الدعوة يشغل تفكيرى منذ أمد ليس بالقصير، فيرد على خاطرى سؤال ملح: كيف ندعو الناس؟ ما الأسلوب الصحيح للدعوة؟ خاصة وأنا أرى فى مسيرة الدعوة - بين الحين والحين - ما يبدو أنه تقصير فى بعض الجوانب، أو تعجل فى بعض الجوانب، أو انحراف فى بعض الجوانب.. فأقول فى نفسى: إنه

لابد من مراجعة شاملة لمسيرة الدعوة خلال ما يزيد على نصف قرن؛ حتى نستكمل ما وقع فى مسيرتنا من نقص، ولا نكرر ما وقعنا فيه من أخطاء، وحتى نستفيد من عبرة الماضى لتقويم الحاضر، وتسديد العمل من أجل المستقبل، وتلك مهمة جادة يجب أن تشغل الدعاة فى كل مرحلة من مراحل السير.

وفى هذه الصفحات، أحاول أن أعرض ما يجول فى خاطرى من أفكار فى هذا الشأن، وهو أولاً وآخراً اجتهاد يخطئ ويصيب، أدعو الله أن يوفقنى فيه إلى السداد: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨).

محمد قطب

تأملات فى نشأة الجيل الأول

نحتاج أن نقف وقفات طويلة نتأمل فيها نشأة الجيل الأول؛ لأن فيها زاداً كاملاً لكل مَن أراد أن يدعو، أو يتحرك بهذا الدين فى عالم الواقع، فقد صُنع ذلك الجيل على عين الله سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (طه: ٣٩)، ونشأ على يدى أعظم مرب فى تاريخ البشرية، محمد رسول الله ﷺ، فكان جيلاً فريداً فى تاريخ البشرية كله، يوجهه الله بالوحى، ويتابعه رسول الله ﷺ بالتربية والتوجيه، فاكتملت له كل وسائل النشأة الصحيحة فى أعلى صورة، فأصبح كالدرس «النموذجى»، الذى يلقيه الأستاذ ليعلّم طلابه كيف يدرّسون، حين يئول إليهم أمر التعليم.

ثم إن إرادة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت أن يتم أمر هذا الدين على السنن الجارية ـ لا الخارقة ـ لحكمة أرادها الله، لكى لا يتقاعس جيل من الأجيال فيقول: إنما نصر الجيل الأول بالخوارق، وقد انقطعت الخوارق بعد رسول الله ﷺ!

فما كان فى هذا الدين من عناصر غير بشرية، فهو الوحى المنزل من عند الله، وذلك باق ومحفوظ بحفظ الله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وهو بالنسبة للجيل الأول كالجيل الأخير، هو كلمة الله لهذه الأمة، وللبشرية كافة، تحمل حقيقة هذا الدين، وتحمل المنهج الربانى، الذى يريد الله من البشر، إلى قيام الساعة، أن يقيموا عليه حياتهم، ويؤسسوا عليه بنيانهم، سواء كان هو الكتاب المنزل، أو البيان الذى قام به رسول الله ﷺ لهذا الكتاب، بالسنة القولية أو العملية: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤). ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣ـ ٤).

أما قتال الملائكة مع المؤمنين في بدر، فلم يكن هو في ذاته الخارقة: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال: ١٢).. فنزول الملائكة وتثبيتهم للبشر، لا يقتصر على معركة بدر، إنما قد يحدث بأمر الله في أية مناسبة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ... ﴾ (فصلت: ٣٠ـ ٣١).

إنما كانت الخارقة هي رؤية المؤمنين للملائكة وهي تُقاتل معهم: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختص بها أهل بدر من دون المؤمنين، فقد كانت بدر حدثًا كونيًا لا يتكرر كل يوم: ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال: ٤١).. فهي التي كتبت التاريخ، وليس في كل يوم يكتب التاريخ.. إنما تكتب منه سطور إثر سطور!

وفيما عدا هذه الخارقة التي اختص بها أهل بدر، وفيما عدا ما يختص بشخص الرسول ﷺ، فقد جرت أمور الإسلام كلها على السنة الجارية، من استضعاف في المبدأ، وابتلاء وصبر وتمحيص، ثم تمكين على تخوف، ثم تمكين على استقرار وقوة، ثم انتشار في الأرض. لذلك فإن الدروس المستفادة من نشأة الجيل الأول هي دروس دائمة، لا تتعلق بالنشأة الأولى وحدها، وإنما هي قابلة للتطبيق في كل مرة تتشابه فيها الظروف أو تتماثل، لأنها سنن جارية، وليست حوادث مفردة عابرة لا تتكرر.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وَجَّهَنَا في كتابه المنزل، لتدبر السنن الربانية، ودراسة التاريخ ـ الذي هو في الحقيقة مجرى السنن في عالم الواقع ـ فنحن جديرون أن نعكف على دراسة النشأة الأولى؛ لنستخلص منها الدروس والعبر، ولتكون هاديًا لنا في كل تحرك نقوم به، ومحكًا لاستقامتنا على الطريق أو انحرافنا عنه.

وقد استوقفني في أمر النشأة الأولى عدة أمور، زاد من رغبتي في تدبرها وتأملها ما أراه بين الحين والحين من مخالفة لمقتضياتها في مسيرتنا الحالية، وما أراه قد ترتب على هذه المخالفة من نتائج معوقة للمسيرة، فأحببت أن أعرض بعض هذه الأمور في هذه الصفحات، داعيًا الله أن يجنبنا الزلل دائمًا وأن يهدينا إلى سواء السبيل.

* * *

من أشد ما استوقفني في مسيرة الجيل الأول، ذلك الأمر الرباني للمؤمنين أن يكفّوا أيديهم في مرحلة التربية بمكة، وأن يتحملوا الأذى صابرين، وقد أشار الله إلى هذا الأمر في قوله تعالى، مذكرًا به: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (النساء: ٧٧).

وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد سأل الرسول ﷺ حين اشتد الأذى بالمؤمنين: ألا نقاتل القوم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أُمرنا بقتالهم»[١].

ولم يرد في النصوص - لا في الكتاب ولا في السنة - بيان لحكمة هذا الأمر الرباني، ومن ثم فالأمر متروك للاجتهاد لمعرفة الحكمة منه، وربما كان أيسر سبيل للتعرف على حكمته، أن نفترض أن المؤمنين كانوا قد دخلوا في معركة مع قريش في ذلك الحين، فماذا كان يمكن أن يترتب على ذلك؟ ثم نتدبر الفوائد التي تحققت حين كفوا أيديهم ولم يدخلوا في معركة في ذلك الوقت.

أبسط ما يمكن أن يتصور من نتائج هذه المعركة غير المتكافئة، أن تتمكن قريش من إبادة المؤمنين، وهم حينئذ قلة مستضعفة لا سند لها، فينتهي أمر الدعوة الجديدة في معركة واحدة أو عدة معارك متلاحقة، دون أن يتحقق الهدف، ودون أن يتعرف الناس على حقيقة الدعوة، ودون أن يكتب لها الانتشار.

ونفترض أن المعركة - على الرغم من عدم تكافئها - لم تؤد إلى إبادة المؤمنين كلهم، فثمة أمر آخر على غاية من الأهمية، يلفت انتباهنا بشدة، لاتصاله بما يجري من أحداث في وقتنا الحاضر.

---

(١) انظر كتب السيرة.

لمن كانت الشرعية في تلك المرحلة في مكة؟ لقد كانت في حس الناس جميعًا لقريش . . !

وما وضع المؤمنين يومئذ؟ وضعهم أنهم خارجون على الشرعية . . !

ومن حق صاحب الشرعية ـ ولا شك ـ أن يؤدب الخارجين عليه!

وصحيح أن قريشًا تشتد في «التأديب» إلى حد الفظاظة والقسوة، وأن بعض الناس قد يتأذى لهذه الفظاظة، حتى ليحاول أن يبسط حمايته ـ أو جواره ـ على بعض المعذبين المستضعفين، ولكن يظل الأمر في حس الناس ـ من حيث المبدأ ـ أن قريشًا هي صاحبة الشرعية، وأن المؤمنين خارجون على الشرعية، وأن من حق صاحب الشرعية أن يؤدب الخارجين عليه!

فهل كان من مصلحة الدعوة أن يدخل المؤمنون يومئذ في معركة مع قريش، وهذا التصور هو السائد بين الناس؟!

كلا بالطبع!

والآن فلننظر ماذا تم حين استجاب المؤمنون للأمر الرباني وكفوا أيديهم.

لقد تمت أمور كثيرة في الحقيقة . .

ففي البيئة العربية المعروفة «بإباء الضيم»، والتي تحدث فيها المعارك الضارية، لأسباب نرى نحن اليوم أنها تافهة، لا تستحق أن تُراق فيها قطرة دم واحدة، وقد تطول تلك المعارك سنوات عديدة، ويفنى فيها كثير من الخلق كمعركة داحس والغبراء [1]. . في البيئة التي يتشق فيها الرجل الحُسام لأدنى إهانة توجه إليه، والتي يقول فيها عنترة:

---

(١) معركة نشبت في أواخر العصر الجاهلي بين قبيلتي عبس وذبيان، بسبب سباق أجرياه على فرسين إحداهما تسمى داحس والأخرى تسمى الغبراء، فاختلفت القبيلتان على نتيجة السباق، فقامت بينهما الحرب، وانضم لكل قبيلة حلفاؤها، وطالت الحرب وقتل فيها خلق كثير، حتى تدخل من تدخل للصلح بينهما، فوضعت الحرب أوزارها.

ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمى!

ويقول غيره:

ألا لا يجهلَنْ أحد علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا!

فى تلك البيئة، يؤذى رجال ذوو حسب ونسب، منهم من هو من أشراف قريش ذاتها، ثم لا يَرُدُّون!

شىء يلفت النظر ولا شك، ؛ لأنه مخالف مخالفة تامة لأعراف البيئة..

بعبارة أخرى، شىء ليس من صنع البيئة.. فلا بد أن يكون من صنع شىء آخر خلاف البيئة!

ثم يشتد الأذى ويستمر وهم صابرون!

هنا معنى جديد ليس من صنع البيئة كذلك، ففى سبيل أى شىء يحتمل هؤلاء ما يقع عليهم من الأذى، ثم يظلون مصرين على التمسك بما يعرضهم للأذى؟

أفى سبيل شرف القبيلة؟ أفى سبيل مغنم من مغانم الأرض؟ أفى سبيل شهوة من شهوات الأرض؟

لا شىء من ذلك كله.. إنما هو فى سبيل «عقيدة» يعتقدونها.

وقد تفهم هذه البيئة أن تكون العقيدة أعرافًا وتقاليد، يستمسك الناس بها، وقد يقاتلون من أجلها، أما أن يتحملوا الأذى فى سبيلها ـ وهم لا يردون ـ فأمر جديد كل الجدة على هذه البيئة، بيئة الأعراف والتقاليد!

ثم نمضى شوطًا آخر، فيتضح أمر جديد.

إن الأذى يشتد حتى يصبح مقاطعة اقتصادية واجتماعية، ويصل إلى حد التجويع، بل يصل ببعض الناس حتى الموت، ولا يتخلون عن عقيدتهم!

لا يمكن ـ فى عُرف البيئة، ولا فى عرف البشر عامة ـ أن يتحمل الناس مثل هذا

الأذى من أجل باطل . . إنما لابد أن يكون حقًا يعتقده صاحبه، ويحتمل الأذى من أجله، ويموت من أجله.

بل إن هذا الحق الذى يعتقده هو أغلى عليه من أمنه وراحته ومكانته وكرامته . . وحتى من نفسه، حتى من حياته.

تلك المعانى كلها، التى برزت للوجود من خلال ﴿ كفوا أيديكم ﴾ هى التى أتت بالأنصار من المدينة، حتى وإن لم تغير كثيراً من الأحوال فى مكة!

نستطيع أن نقول فى عبارة موجزة: إن أهل مكة اصطلوا النار، ولكن أهل المدينة استضاءوا بها عن بعد، فاهتدوا إلى الحق الذى شاء الله لهم أن يهتدوا إليه.

* * *

ولم يكن هذا وحده هو الذى اتضح للأنصار، من خلال ﴿ كفوا أيديكم ﴾ . . لقد اتضح أمر آخر له أهميته البالغة فى خط سير الدعوة، وهو قضية «الشرعية».

يقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام، وهى سورة مكية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٥).

وكأن المعنى: نظل نفصل الآيات حتى تستبين سبيل المجرمين.

وورود هذا المعنى فى آية مكية له دلالة واضحة، أو ينبغى أن تكون واضحة، فاستبانة سبيل المجرمين هدف مقصود، تبينه لام التعليل فى قوله تعالى: ﴿ ولتستبين ﴾. ونزول هذه الآية فى الفترة المكية، معناه أن استبانة سبيل المجرمين هى من أهداف الدعوة، بل من لوازم الدعوة فى الفترة الأولى التى يتم فيها نشأة الجماعة المسلمة.

فما الذى تحققه استبانة سبيل المجرمين للدعوة؟

إن استبانة سبيل المجرمين تتضمن أمرين: أولاً: بيان من هم المجرمون؟ وثانيًا: بيان السبيل الذى يسلكونه، والذى من أجله أصبحوا مجرمين.

فمَن هم المجرمون؟ وما سبيلهم؟ وما علاقة تفصيل الآيات باستبانة سبيلهم؟

لقد فصّلت الآيات قضية الألوهية، وهى القضية الأولى والكبرى فى القرآن كله، والسور المكية بصفة خاصة.

فصلت الآيات أنه إله واحد لا شريك له، ولا يمكن أن يكون له شركاء فى الخلق ولا فى التدبير، ولا فى أى شأن من الشئون، وظلت الآيات تتنزل مبينة صفات ذلك الإله، وتنفى عنه الشركاء حتى صار المعنى واضحًا تمامًا، سواء لمن آمن أو لمن كفر، فقد كان الكفار قد أصبحوا على بينة تامة مما يريد منهم رسول الله ﷺ أن يعلموه ويؤمنوا به، حتى قالوا كما روى الله عنهم: ﴿ أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنّ هذا لشيءٌ عُجابٌ ﴾ (ص: ٥).

ولما تبين أنه إله واحد لا شريك له، طُلب من الناس أن يعبدوه وحده بلا شريك؛ لأنه وحده الحقيق بالعبادة، وأن ينبذوا ما يدعون من الآلهة الزائفة، وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتبعوا من دونه أولياء: ﴿ اتبعُوا ما أنزل إليكُم مّن رّبكُمْ ولا تتّبعُوا من دُونه أولياء قليلاً مّا تذكّرُون ﴾ (الأعراف: ٣).

وعلى هذا فقد انقسم الناس فريقين اثنين: فريق المؤمنين، وهم الذين آمنوا أنه إله واحد، فعبدوه وحده بلا شريك، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، وفريق المجرمين وهم الذين أبوا أن يؤمنوا به، وأن يعبدوه وحده، وأن يتبعوا ما أنزله إليهم.

وإذن، فأين تقع قريش فى هذا التقسيم؟

لقد كانت قبل تفصيل الآيات هى صاحبة الشرعية، وكان المؤمنون فى نظر قريش، وفى نظر الناس أيضًا، خارجين على الشرعية، فما الموقف الآن بعد تفصيل الآيات؟ وبعد ما رفضت قريش أن تؤمن بالله الواحد، وتعبده وحده بلا شريك، وتتبع ما أنزل الله؟ هل بقيت هى صاحبة الشرعية، وبقى المؤمنون هم الخارجين على الشرعية؟ أم تبدل الحال عند بعض الناس على الأقل، فأصبحت قريش وأمثالها هم المجرمين، وأصبح أصحاب الشرعية هم المؤمنين؟!

إنها نقلة هائلة فى خط سير الدعوة، أن يتبين الناس من هم المجرمون، وما سبيلهم، ويتبينوا فى المقابل من هم الذين على الحق، وما هو سبيل الحق.

ولقد كان الإشكال بالنسبة لقريش خاصة أنهم هم سدنة البيت، الذى يعظمه العرب جميعًا، فضلاً عن كونهم أصحاب ثروة وأصحاب جاه وحسب ونسب، فاجتمعت لهم بمقاييس الجاهلية كل مقومات الشرعية، ممتزجة ببقايا الدين المحرف الذى ينتسبون به إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. . فلم تكن زحزحة الشرعية عنهم أمرًا هينًا، خاصة والخارجون على شرعيتهم ضعاف فقراء لا قوة لهم ولا مال ولا سند من أحد من ذوى السلطان!

لقد كانت العقيدة الصحيحة وحدها هى التى يمكن أن تُجْلِيَهم عن شرعيتهم المدعاة، وتكشفهم على حقيقتهم، وهى أنهم مجرمون لا شرعية لهم، لرفضهم الإيمان بالله الواحد، وعبادته وحده بلا شريك، واتباع ما أنزل الله.

وهنا نسأل: لو أن المؤمنين فى مكة دخلوا فى معركة مع قريش، فهل كانت تستبين سبيل المجرمين؟ لو دخلوا المعركة وفى حس الناس أن قريشًا هى صاحبة الشرعية، وأن المؤمنين خارجون على الشرعية، فهل كان يمكن أن يستقر فى خَلَد أحد ـ كما استقر فى خَلَد الأنصار ـ أن القضية لها معيار آخر غير سدانة البيت، وغير المال والجاه، وكثرة العدد، ورصيد العرف، ورصيد التاريخ؟ وأن هذا المعيار هو: لا إله إلا الله. . هو الإيمان بألوهية الله وحده بلا شريك، وما يترتب على ذلك من ضرورة اتباع ما أنزل الله، وأن هذا هو الحق الذى لا شىء بعده إلا الضلال، وأن هذه هى القضية الكبرى التى يُقاس بها كل شىء، وينبنى عليها كل شىء؟

هل كان يمكن أن يصل الحق الذى يحمله المؤمنون إلى أفئدة فريق من الناس، كما وصل إلى أفئدة الأنصار، لو أن المؤمنين دخلوا معركة مع قريش، أم كان غبار المعركة يغشى على حقيقة القضية، وتنقلب القضية بعد قليل إلى قضية ضارب ومضروب، وغالب ومغلوب، وتصبح قضية «لا إله إلا الله» على هامش الصورة، إن بقى لها فى حس الناس وجود على الإطلاق؟!

أظن الصورة واضحة. .

لقد كانت ﴿كفوا أيديكم﴾ هى سر الموقف كله!

كانت هى التى أتاحت لقضية لا إله إلا الله ـ وهى قضية الرسل جميعًا من لدن

آدم إلى محمد ﷺ - أن تبرز نقية شفافة واضحة، غير مختلطة بأى قضية أخرى على الإطلاق، فتنفذ إلى القلوب التى أراد الله لها الهداية صافية من كل غبش، فتتمكن من تلك القلوب، ويرسخ فيها الإيمان، كما تنفذ إلى القلوب التى لم يرد الله لها الهداية، صافية من كل غبش، فيكفر أصحابها كفراً لا شبهة فيه، كفراً غير مختلط لا بالدفاع عن النفس، ولا الدفاع عن المال، ولا الدفاع عن الأمن والاستقرار؛ إنما هو الرفض الصريح الواضح للا إله إلا الله . . وذلك توطئة لقدر قادم من أقدار الله، هو سنة من السنن الجارية: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢).

هذا الوضوح الذى أتاحته للقضية ﴿كفوا أيديكم﴾، هو من مستلزمات الدعوة . . فبغير استبانة سبيل المجرمين، على أساس «لا إله إلا الله»، واستبانة سبيل المؤمنين فى المقابل، على ذات الأساس، لا يمكن أن تتسع القاعدة بالقدر المعقول فى الزمن المعقول، وتظل الدعوة تراوح مكانها، إن لم يحدث لها انتكاس بسبب من الأسباب.

وحين وضحت القضية على هذا النحو من خلال ﴿كفوا أيديكم﴾، جاء الأنصار!

وحين جاء الأنصار اتسعت القاعدة، وحدث تحول فى التاريخ!

* * *

ولنا هنا وقفة عند هذه القضية . .

مَن هم الأنصار؟

هل هم جماهير متحمسة، ألهب حماستها الإعجاب بشخص الرسول ﷺ، والتعاطف مع هذه الفئة الفذة من البشر، الذين صبروا على الابتلاء، هذا الصبر الطويل الجميل، وثبتوا رغم الصعاب وشدة البلاء؟!

أم هم جنود جاءوا يعرضون جنديتهم على القائد، ويدخلون فى صف المجاهدين؟

ما أبعد الشقة بين هذا الوضع وذاك في خط سير الدعوة!

لا شك أن الحب لرسول الله ﷺ كان قائمًا في قلوبهم، من كثرة ما رأوا وسمعوا عن خصاله الكريمة ﷺ، وقد كان نموذجًا فريدًا في البشر، لا يدانيه أحد ممن عرفوه أو سمعوا عنه خلال التاريخ. ولا شك أن التعاطف مع المعذبين في الأرض، كان قائمًا في قلوبهم، من كثرة ما رأوا وسمعوا من ألوان التعذيب، وألوان الصبر على التعذيب.

ولكن هذا وذاك لم يكن الدافع الأوحد الذي يحركهم؛ إنما حركهم ابتداءً أنهم آمنوا أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.. آمنوا بالله ربًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، وبالإسلام دينًا، فجاءوا يبايعون على السمع والطاعة، وعلى الموت والحياة.

قال لهم رسول الله ﷺ: «تمنعوني؟» قالوا: نمنعك مما نمنع منه نساءنا وأطفالنا. وقالوا: لو استعرضت بنا الصحراء قطعناها، ولو خضت بنا هذا البحر خضناه.

جندية كاملة للدعوة الجديدة..

لم يأن بعد أوان «الجماهير»! إنما يأتون في موعدهم المقدر عند الله.

ولكن ماذا لو كان الأنصار رضي الله عنهم، مجرد جماهير متحمسة، جاءت بدافع الحماسة والحب والتعاطف فحسب.. هل كانت حماستهم تصبر على لأواء الطريق؟ هل كانت تصبر للصدام حين يأتي الإذن من الله العلي القدير برد العدوان؟!

أما أن الرسول ﷺ كان سيفرح بدخولهم في الدعوة واعتناقهم الإسلام، فأمر لا نظنه موضع شك.. وأما أن المؤمنين من أهل مكة كانوا سيفرحون برؤية إخوان لهم في العقيدة، فأمر لا نظنه كذلك موضع شك.. أما أن الرسول ﷺ كان سيتحرك بهم في خط الدعوة، فأمر يحوطه الشك الكثيف، ودليله سؤال الرسول ﷺ لهم: «تمنعوني؟» فالسؤال لم يكن عن إيمانهم، وقد جاءوا يعرضونه صريحًا بلا مواربة، إنما كان عن خطوة أخرى وراء الإيمان، وهي تجنيدهم أنفسهم لما آمنوا به وعرفوا أنه الحق.

لم يكن الرسول ﷺ سيتحرك بهم، لو أنه رأى من أحوالهم أنهم مجرد جماهير متحمسة، لم تجند نفسها بعد للدعوة . . ولم يكن سيعتبر أن القاعدة قد اتسعت بتلك الجماهير المتحمسة التي آمنت - نعم - ولكنها لم تجند نفسها لاحتمال التكاليف.

* * *

متى جنّد الأنصار أنفسهم للدعوة؟

قلنا من قبل: إن النار التي اصطلى بها المؤمنون في مكة، هي النور الذي استضاء به الأنصار في المدينة، فجاءوا يعرضون أنفسهم لنصرة رسول الله ﷺ والدين الجديد.

لقد جاءوا بقدر من الله - نعم - ولكن بسنة من سنن الله كذلك.

إن وجود النموذج الواقعي، الذي يشهد للدعوة الجديدة، هو النواة التي يحدث حولها التجمع، ويحدث التجمع تلقائيًا حول النواة «الأم»، ثم يتسارع بعد ذلك، كلما زاد حجم النواة . . سنة ربانية في الكون المادي وفي حياة البشر سواء!

والنواة الأم كانت هي الجماعة المؤمنة التي تكونت في مكة حول رسول الله ﷺ، والتي شكلها الوحي المنزل من عند الله، وصقلها المربي العظيم ﷺ بما أضفى عليها من روحه، وأعطاها من جهده، وتابع نموها بصبره وجلده وسعة صدره وحكمته وبصيرته . . ثم جاءت الابتلاءات فزادتها صقلاً وصلابة وقربًا من الله.

ومن خلال ﴿كفوا أيديكم﴾ تكونت النواة الأم التي صنعت التاريخ!

ولو كان المؤمنون قد دخلوا في معركة مع قريش في مكة، لتأخر كثيرًا تكوّن النواة الأم، ولتغيرت كثيرًا صفاتها التي اكتسبتها، وذلك فوق الغبش الذي كان سيصيب قضية لا إله إلا الله، حين تتحول إلى قضية ضارب ومضروب، وغالب ومغلوب، ولتأخر كذلك التجمع الصلب حول النواة الصلبة المصقولة المتينة البناء.

* * *

والآن فلنستعرض ما تم حتى الآن من خلال ﴿ كفوا أيديكم ﴾ .

لقد تمت أمور على غاية من الأهمية فى مسيرة الدعوة . .

تم تحرير موضع النزاع ، إن صح التعبير . . إنه قضية «لا إله إلا الله» دون غيرها من القضايا . .

ليس الصراع الدائر بين قريش وبين المؤمنين على سيادة أرضية ، ولا على السلطة السياسية (وقد عُرضت السلطة على رسول الله ﷺ فأباها ، وأصرّ على لا إله إلا الله ، والمؤمنون من جانبهم لم يتحركوا حركة واحدة ، تهدف إلى الاستيلاء على السلطة) . .

ليس الصراع على «شرف» سدانة البيت ، ولا «وجاهة» خدمة الحجيج . .

ليس على القوة الاقتصادية التى تملكها قريش وحدها دون المؤمنين ، وتحارب المؤمنين من خلالها بالحصار والتجويع ، والمؤمنون لا يتعرضون لها من قريب ولا بعيد .

الصراع كله على القضية الكبرى التى هى - والتى يجب أن تكون دائمًا - القضية الأولى ، والقضية الكبرى فى حياة الإنسان ، قضية من المعبودُ؟ ومن ثم من صاحبُ الأمر؟ من المشرع؟ من واضع منهج الحياة؟ قريش تريدها حسب أهوائها وخيالاتها وموروثاتها وأعرافها ، والمؤمنون حول رسول الله ﷺ يريدونها لله .

وتم تركيز الجهد وتوفيره لتربية القاعدة الصلبة ، التى ستحمل البناء [(١)] . .

وتم تحرير قضية «الشرعية» ، بتفصيل الآيات واستبانة سبيل المجرمين .

وتم أخيراً اتساع القاعدة بالجنود الذين استضاءوا بالنار التى اكتوى بها أهل النواة الأم ، فتجمعوا بقدر من الله ، وبحسب سنة من سنن الله ، حول تلك النواة ، مضيفين إليها قوة حقيقية فى الصراع . .

ثم تم أمر آخر بالغ الأهمية كذلك ، هو التجرد لله .

---

(١) سنتكلم عن عملية التربية فى فصل قادم .

إن التجرد لله عنصر من أهم العناصر التى تحتاج إليها الدعوة، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، بالنسبة للقاعدة بصفة خاصة، وبالنسبة لجميع العاملين على وجه العموم.

ولقد تعمق التجرد لله فى قلوب الصفوة المختارة، خلال فترة التربية فى مكة، من خلال الآيات المنزلة من عند الله، تدعو إلى إخلاص العبادة لله، ومن خلال القدوة المباشرة فى شخص الرسول ﷺ، يعلمهم بالسلوك العملى كيف يكون إخلاص العبادة لله.

فأما رسول الله ﷺ فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه.

كان عليه الصلاة والسلام، فى مبدأ قيامه بالدعوة، شديد التأثر بتكذيب الناس له، شديد الحرص على هدايتهم، شديد الحزن عليهم بسبب إعراضهم عن الهدى الربانى، وذلك بما فُطر عليه ﷺ من حب الخير لجميع الناس.

وكان الوحى يتنزل عليه ﷺ، لتسليته والتسرية عنه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣). ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧).

ويتنزل الوحى لصرفه ﷺ عن شدة الحزن، وشدة التطلع لآية من عند الله تجعلهم يؤمنون: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (الكهف: ٦ـ٨). ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٥ـ٣٦).

ويتنزل الوحى ليقول للرسول ﷺ: إن مهمته هى البلاغ فحسب، أما النتائج فمن صنع الله وحده: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦).

ومن أشد ما يلفت النظر في هذا الشأن، أنه في خلال فترة التربية في مكة، لم يتنزل وعد واحد بالنصر لشخص الرسول ﷺ، إنما كان يقال له: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠). بينما كان النصر والتمكين لهذا الدين مستيقنًا عند رسول الله ﷺ.

يقول خباب بن الأرت رضي الله عنه: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، فقلنا ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ (وذلك لما اشتد إيذاء المشركين للمؤمنين في مكة) فقال ﷺ: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدّه ذلك عن دينه. والله ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

وبتوجيهات الوحي، تجرد قلب الرسول ﷺ، حتى من رغبة التمكين لهذا الدين أثناء حياته، وتجرد للبلاغ. ثم ربّى رسول الله ﷺ أصحابه على التجرد لله، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم، كما تحكي عنهم كتب السيرة، وصار همهم كله أن يخلصوا العبادة لله.

ولما علم الله من قلوبهم أنها تجردت له، مكّن لهم في الأرض، وأذن لهم في رد العدوان: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٣٩ - ٤١).

---

(١) رواه البخاري.

موضع القدوة فى الجيل الفريد

يرى كثير من الناس أن ما كان طبيعيًا ومناسبًا للجيل الأول فى فترة التربية بمكة، لا ينطبق على وضعنا الحاضر، ومن ثم فعلينا أن ندرسه للتاريخ، وليس للعبرة ولا للقدوة!

وهذا الأمر يحتاج إلى تجلية واضحة، لأنه مفرق طريق فى العمل الإسلامى فى الوقت الحاضر، وما لم تتضح الصورة تمامًا ـ وبموضوعية كاملة ـ فستظل تيارات العمل الإسلامى تتصادم مع بعضها البعض، ولا تصل إلى موقف موحد أو متجانس، بينما أعداء هذا الدين يقفون موقفًا موحدًا، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، متكالبين كلهم على الأمة الإسلامية، يجاهدون للقضاء عليها، متعاونين متساندين، كما حدث فى البوسنة والهرسك، وفى كشمير، وفى بلاد الشيشان، وفى كل مكان على ظهر الأرض.

هل نحن فى المرحلة المكية، حيث المجتمع مشرك شركًا واضحًا لا لبس فيه، والمؤمنون هم أولئك القلة التى آمنت بالدين الجديد، مستضعفة منبوذة من ذلك المجتمع، تتحرك حسب مقتضيات ذلك الوضع؟ أم نحن فى مجتمع مسلم منحرف عن الإسلام، نعمل على تصحيح الأوضاع فيه، بردِّها إلى الصورة الإسلامية الصحيحة؟ أم ماذا نحن على وجه التحديد؟

ولخطورة هذه القضية، وما ثار حولها من جدل، وما ترتب على هذا الجدل من الفرقة، نود أن نتدارسها بروية، وأن نصل فيها إلى تصور واضح، غير متأثرين فيه بعواطفنا، أو بمواقف معينة نحبها أو نكرهها.

لسنا فى المرحلة المكية بكل تأكيد! فنحن ـ العاملين فى حقل الدعوة،

والمستجيبين لها ـ نصوم ونحج، وقد فرض الصيام والحج في المدينة! ونحن نحرّم كل ما حرّم الله، ونوجب كل ما أوجب الله، غير منحصرين فيما نزل من التحريم والتحليل في مكة!

ولسنا في المرحلة المدنية بكل تأكيد! فليست الدعوة ممكّنة في الأرض، وشريعة الله ليست هي المحكمة في الجزء الأكبر من العالم الإسلامي، والقائمون بالدعوة إما مغيّبون في السجون، أو معلّقون على أعواد المشانق، وإما مُضَيّق عليهم بمختلف وسائل التضييق.

فأين نحن على وجه الدقة؟ وأي منهج هو المناسب لنا؟ أهو المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في مكة بأمر من الله؟ أم هو منهج الرسول ﷺ في المدينة، الذي اتبعه بأمر من الله؟ أم شيء آخر غير هذا وذاك، نجتهد فيه من عند أنفسنا بغير ضابط محدد؟!

قضية ـ كما ترى ـ لها أهميتها، وتحتاج إلى تحديد.

* * *

هناك فروق واضحة بيننا وبين المجتمع المكي ولا شك، يتكئ عليها كثير من الناس للتفريق بين وضعنا وبين ذلك المجتمع.

لقد كان الناس في المجتمع المكي ينكرون فكرة الإله الواحد إنكاراً مطلقًا، حتى إن القرآن الكريم قد حكى عنهم تعجبهم مما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص: ٥).. بينما نحن في العالم الإسلامي كله نُقرّ بأن الله واحد، ولا نعتقد أن هناك آلهةً أخرى مع الله.

وكان الناس ينكرون فكرة البعث إنكاراً مطلقًا، حتى إن القرآن قد حكى عنهم تعجبهم مما جاء به الرسول ﷺ من عقيدة البعث: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (سبأ: ٧ ـ ٨).. بينما نحن ـ في العموم ـ نؤمن بالبعث، والجزاء والحساب، والجنة والنار، ودع عنك القلة القليلة الملحدة التي لا يقام لها وزن في هذا المجال.

وكان الناس ينكرون بعثة محمد ﷺ ورسالته، كما حكى القرآن عنهم: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (ص: ٤)، كما قالوا: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ (ص: ٨). . ونحن - ودع عنك القلة الملحدة التي لا يقام لها وزن - نؤمن ببعثة الرسول ﷺ، وأنه مرسل من ربه، وأن القرآن كلام الله، أنزله على رسوله ﷺ، لا هو من كلام البشر، ولا هو من أساطير الأولين. .

ولا شك أن هذا كله حقائق. .

ولكن تعال ننظر من الجانب الآخر.

جاء الإسلام لينفي كل وساطة بين العبد والرب، ويجعل الصلة مباشرة بين العباد وبين الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦). .

فماذا فعلت الصوفية في عقائد الناس؟ لقد جسّمت الشيخ في حس المريد، حتى أصبح واسطة بين العبد وربه، لا يملك أن يدعو الله باسم من أسمائه الحسنى إلا بإذن الشيخ، الذي يطلع على الأفئدة، ويقرر لكل فؤاد ما يصلح له من الأسماء، والمدة التي يستخدم فيها الاسم الممنوح له، ويظل سلطان الشيخ قائمًا في قلوب المريدين، حتى بعد موته بألف عام، فالموت لا يحول بين السلطان الروحي وبين القلوب. . والتمسح بالضريح، والدعاء عنده، والاستغاثة والاستعانة والذبح، هي علامات الإخلاص من المريد للشيخ، وهي كذلك وسائط التقرب إلى الله!

هل يختلف هذا كثيراً عن قول الذين كانوا يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (الزمر: ٣). . أليس هذا شركًا واضح الأركان؟

وجاء الإسلام ليلغي كل تشريع من صنع البشر، ليقيم شريعة الله وحدها، وربط ذلك بأصل العقيدة: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤). . وجعل علامة النفاق الذي ينفي الإيمان، الإعراض عن شريعة الله: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ

بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٤٧ ـ ٥١).

وجعل اتباع البشر فيما يشرّعون بغير ما أنزل الله بمثابة اتخاذهم أربابًا من دون الله، على مستوى عبادة غير الله سواء بسواء: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١).

فماذا فعلت العلمانية في حياة الناس؟ كم حكومة في الأرض الإسلامية تحكم بما أنزل الله؟ وماذا يُقال على ألسنة العلمانيين عن شريعة الله؟ أليس هذا شركًا واضح الأركان؟

كيف نحكم إذن على هذه الأوضاع؟

يكمن الإشكال في الحكم على الأوضاع القائمة اليوم في العالم الإسلامي، في التناقض الشديد بين ما يعلنه الناس عقيدة لهم، وما يمارسونه في الواقع.. ثم الاختلاف في الحكم على هذا التناقض، هل هو مخرج من الملة، أم هو دون ذلك؟ بعبارة أخرى: الإشكال هو الحكم على الناس.

وفي رأيي ـ من سنوات عديدة ـ أن هذه القضية لا ينبغي أن تشغلنا في مجال الدعوة، ولا ينبغي أن نقف عندها ونفترق حولها، ونتجادل ونتحزب، ويذهب كل فريق منا في اتجاه.

إن الناس ـ إلا من رحم ربك ـ واقعون في الشرك لا جدال في ذلك، سواء شرك الاعتقاد، أو شرك العبادة، أو شرك الحاكمية (شرك الاتباع).. ولكن الحكم عليهم بأنهم مشركون قضية أخرى مختلفة، فليس كل من وقع في الشرك يحكم عليه بأنه مشرك، إلا إذا توفرت فيه شروط معينة، وانتفت عنه الموانع التي تمنع تنزيل الحكم عليه..

يقول ابن تيمية رحمه الله :

«وكنتُ أبين لهم أن ما نُقل عن السلف والأئمة، من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا، فهو أيضاً حق، ولكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار، وهى مسألة الوعيد، فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة، كقوله : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ الآية . . وكذلك سائر ما ورد: مَن فعل كذا فله كذا، فإن هذه مطلقة عامة، وهى بمنزلة قول من قال من السلف : مَن قال كذا فهو كذا . ثم الشخص المعين يلتغى حكم الوعيد فيه بتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة . . والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول ﷺ ، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجّة . وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئًا» (١) .

وقال رحمه الله في مكان آخر (٢): «فإن نصوص الوعيد التى فى الكتاب والسنة، ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك، لا يستلزم ثبوت موجبها فى حق المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق فى ذلك بين الأصول والفروع» .

وقال في موضع ثالث (٣): «وأما تكفيرهم وتخليدهم ففيه أيضاً للعلماء قولان مشهوران، وهما روايتان عن أحمد، والقولان فى الخوارج والمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم . والصحيح أن هذه الأقوال التى يقولونها، التى يعلم أنها مخالفة لما جاء به الرسول كفر، وكذلك أفعالهم التى هى من جنس أفعال الكفار بالمسلمين هي كفر أيضاً . وقد ذكرت دلائل ذلك فى غير هذا الموضع، ولكن تكفير الواحد المعين منهم، والحكم بتخليده فى النار موقوف على ثبوت شروط التكفير

(١) مجموع الفتاوى ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .
(٢) مجموع الفتاوى ـ المجلد العاشر ـ ص ٣٧٢ .
(٣) مجموع الفتاوى ـ المجلد الثامن والعشرون ـ ص ٥٠٠ ـ ٥٠١ .

وانتفاء موانعه. فإنما نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد والتكفير والتفسيق، ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام، حتى يقوم فيه المقتضى الذى لا معارض له، وقد بسطت هذه القاعدة في قاعدة التكفير».

وهذا هو مفتاح القضية بالنسبة للدعوة ومنهج الحركة.

فالناس - إلا من رحم ربك - واقعون في شرك يشبه شرك الجاهلية، وإن لم يكونوا بالضرورة كلهم ممن يتنزل عليهم حكم الشرك. والذى يهمنا فى الدعوة هو بيان حقيقة الإيمان، وبيان نواقض الإيمان، ودعوة الناس إلى ترك ما هم واقعون فيه من الشرك - بصرف النظر عن كونهم مشركين أو غير مشركين فى حكم الله - ودعوتهم إلى اعتناق الإسلام الصحيح، وممارسته فى عالم الواقع، لا فى عالم الأمانى، ولا فى عالم الأوهام.

ليس الذى يهمنا أن نقول لفلان من الناس: أنت مشرك (أو نقول عنه ذلك)، إنما مهمتنا أن نقول له: إن ما تفعله شرك، وندعوه - بالحكمة والموعظة الحسنة - إلى الخروج من ذلك الشرك، والدخول فى حقيقة الإسلام.

هذا من جانب الواقع الذى يعيشه الناس، وواجبنا تجاهه.

ومن جانب آخر فإن الأوضاع القائمة فى العالم الإسلامى - إلا ما رحم ربك - أوضاع تحارب الدعوة، وتمنع الدعاة من بيان الحقيقة كاملة عن الإيمان ونواقض الإيمان، خاصة فيما يتعلق بالتشريع بغير ما أنزل الله؛ والسجون والمعتقلات والمشانق محشودة فى الطريق، ترصد كل من يريد أن يبين حقيقة لا إله إلا الله كما أنزلت من عند الله.

فما المنهج الأنسب للدعوة؟ إلى أى شيء ندعو؟ وعلى أى شيء نركز؟ وأى الوسائل يوصلنا - أو يقربنا - لما نريد؟

إذا تصورنا الأوضاع القائمة على حقيقتها، وتخلصنا فى الوقت ذاته من الإشكالات التى تترتب على إصدار أحكام على الجيل الحالى من الناس، قبل إقامة الحجة عليهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فإننا نجد أنفسنا أقرب ما نكون إلى المرحلة

المكية من الدعوة، وإن لم نكن في وضع مماثل لها تمامًا، بسبب بعض الفروق بين هذا الوضع وذاك، وهي فروق قد تتسبب في اختلاف الحكم على الناس، ولكنها لا تغير الحكم على الأوضاع، والأوضاع هي التي تقرر في الحقيقة منهج الدعوة، وتقرر أقرب الوسائل إلى بلوغ الأهداف.

ومن هنا نجد أن موضع الاقتداء بالجيل الأول أوسع بكثير مما قد يبدو عند الوهلة الأولى، وأن قضايا كثيرة يلزمنا أن نرجع فيها إلى تلك الفترة، نتدبرها ببصيرة مفتوحة، ونستلهم منها طريقنا في الدعوة، ونتطلع إلى فضل الله أن يلهمنا فيها الصواب.

* * *

إذا درسنا أحوال الأمة الإسلامية ـ كما ينبغي أن نصنع ـ فسنجد انحرافات كثيرة، وقعت في مسيرة الأمة خلال الأربعة عشر قرنًا الماضية، ظلت تبعد الناس رويدًا رويدًا عن حقيقة الإسلام، حتى صار الإسلام إلى غربته الثانية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ : «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ»[1].

وإذا تتبعنا هذه الانحرافات ـ وينبغي لنا أن نفعل، لأنه لابد لنا من تشخيص الداء، لتحديد نوع العلاج ـ فسنجد أن الانحراف لم يقتصر على السلوك وحده، إنما تطرق إلى المفاهيم، وأن كل مفاهيم الإسلام قد أصابها الانحراف، حتى مفهوم لا إله إلا الله ـ بل بدءاً بمفهوم لا إله إلا الله ـ بالإضافة إلى مفهوم العبادة، ومفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الدنيا والآخرة، ومفهوم الحضارة، ومفهوم التربية، ومفهوم الجهاد.. إلخ[2].

فإذا كان الأمر كذلك، فبأي شيء نبدأ؟ هل لنا مناص من أن نبدأ بتصحيح مفهوم لا إله إلا الله؟ وهل يمكن تصحيح حياة الناس على قاعدة إسلامية، إذا لم نصحح مفهوم لا إله إلا الله في عقول الناس وقلوبهم؟ فأما العقول فمهمتها إدارك الحق، وأما القلوب فمهمتها تحويل الإدراك الذهني إلى شحنة وجدانية دافعة إلى السلوك العملي في عالم الواقع.. وهذا هو طريق الإصلاح.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) انظر إن شئت كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح».

والآن فلننظر ماذا أصاب مفهوم لا إله إلا الله فى حس الناس؟

لقد أصابه انحسار شديد، حتى أصبحت لا إله إلا الله مجرد كلمة تُقال باللسان، لا تأثير لها فى واقع الكثرة الكاثرة من الناس، إلا من رحم ربك، بل إنها لم تعد مانعة من الوقوع فى الشرك عند كثير من الناس، سواء شرك الاعتقاد، أو شرك العبادة، أو شرك التشريع.

والفرق بين واقعنا المعاصر وواقع المجتمع الجاهلى وقت البعثة، أن القوم كانوا يمارسون الشرك الظاهر الصريح، ويرفضون فى الوقت ذاته أن يقولوا: لا إله إلا الله.. أما الناس فى واقعنا المعاصر - إلا من رحم ربك - فإنهم يقولون بأفواههم: لا إله إلا الله، ثم يقعون فى الشرك بنوع من أنواعه، أو بجميع أنواعه.

لذلك فإننا نحتاج إلى منهج شديد الشبه بمنهج الرسول ﷺ فى مكة، لبيان حقيقة لا إله إلا الله، ثم تحويلها إلى واقع معاش فى حياة الذين يعتنقون هذا الدين.

وفى ظنى أنها مهمة شاقة، لا تقلُّ مشقةً، ولا حاجة إلى بذل الجهد، عما بذل فى الجولة الأولى، لإزالة الغربة عنَ الإسلام أول مرة، بل ربما كانت الغربة الثانية أعسر فى إزالتها من الغربة الأولى، حيث كان رسول الله ﷺ حاضراً بشخصه يمثل القدوة الحية ومنبع الإلهام.

لقد كان العسر فى الجولة الأولى ناشئًا من لدد الخصومة، بالإضافة إلى شدة التمسك بعُرف الآباء والأجداد: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (مريم: ٩٧). ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

أما فى الجولة الثانية، فلن نجد مشقة فى أن نجعل الناس ينطقون بأفواههم: لا إله إلا الله، فهم ينطقونها صباح مساء! ولكن المشقة أنهم يظنون أنهم بمجرد نطقهم للا إله إلا الله صاروا مسلمين، ولصقت بهم صفة الإسلام، أيًا كان سلوكهم الواقعى، وأيًا كان مدى نقضهم لمقتضيات لا إله إلا الله فى عالم الواقع! وأنك إن قلت لهم: إن للا إله إلا الله مقتضيات لا يثبت للإنسان إسلامه إلا بالتزامها، وإلا أخذ عليه إقراره اللسانى واعتُبر مرتداً، كذبوك! وقالوا: ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين!

إنهم ـ معظمهم ـ واقعون في لوثة الفكر الإرجائي، الذي يقول: «مَن قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام»! والذي يقول: «الإيمان هو التصديق، أو هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلاً في مسمى الإيمان»! والذي يعتبر المخالفات كلها بجميع أشكالها، مجرد معاص، ثم يقول: «لا يضر مع الإيمان معصية»!

وإزالة آثار هذه اللوثة من حياة الناس، وردهم إلى المفهوم الصحيح للإيمان، الذي كان عليه السلف الصالح، والذي يقول: إن الإيمان قول واعتقاد وعمل، هو المهمة الحقيقية «للغرباء»، الذين بشّرهم رسول الله ﷺ بجزيل الأجر: «طوبى للغرباء»، وقال عليه الصلاة والسلام: «فطوبى للغرباء يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»[1].

وسنتحدث عن التربية في فصل مستقل، ولكنا هنا نقرر أن نقطة البدء في الدعوة يجب أن تكون هي التعريف بلا إله إلا الله، التي صارت حقيقتها مجهولة في غربة الإسلام الثانية، وصارت حين تعرض على حقيقتها تستوحش لها النفوس!

ونقرر كذلك أن التعريف بلا إله إلا الله ـ فضلاً عن التربية على مقتضياتها ـ ليس مجرد معلومات تلقى، وليس مجرد خطبة أو درس أو موعظة، إنما هو جهد حقيقي دائب، يحتاج إلى متابعة ومثابرة، ويحتاج إلى تتبع مسارب النفس ومداخلها، لتنقيتها من الغبش الذي أحدثه الفكر الإرجائي، فضلاً عن الغبش الذي أحدثه الفكر العلماني المستحدث، وكلاهما حمض أكّال يوهن بناء العقيدة، ويفرغها من محتواها الحيّ، ويفقدها قوتها الفاعلة التي كانت لها يوم أن كانت على حقيقتها كما أنزلها الله.

ثم نقرر أخيراً أن الاستعجال في هذا الأمر ـ على أساس أنه أمر بدهي واضح، لا يحتاج إلى بذل الجهد فيه، أو على أساس أن ما بذل من الجهد فيه، فيه الكفاية، أو على أساس أن لدينا مهام كثيرة، وليس لدينا وقت كثير ننفقه في التعريف بلا إله

---

(1) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

إلا الله ـ فضلاً عن التربية على مقتضياتها ـ هذا الاستعجال لا يأتي بخير، ولا يخدم الدعوة، ولا يجعل لها مردوداً مثمراً في نهاية المطاف.

وموضع الاقتداء هنا بالجيل الفريد، أن نتدبر مدى عناية القرآن الكريم بهذه القضية، وعناية الرسول ﷺ ببيانها، فضلاً عن التربية على مقتضياتها، وأنها استغرقت الجزء الأكبر من مجموع سنوات الدعوة، ومن جهدها كذلك.

وإذا ظننا أن سبب تركيز القرآن الكريم على هذه القضية في السور المكية، أن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة كانوا مشركين، فلنتذكر أننا نواجه اليوم بالدعوة قومًا واقعين في الشرك، وإن لم يكونوا كلهم بالضرورة مشركين، وأن الشرك الذي هم واقعون فيه هو من ذات الأنواع التي كان العرب المشركون واقعين فيها: شرك الاعتقاد، وشرك العبادة، وشرك الحاكمية.

ولكن علينا أن نتذكر كذلك أن التركيز على هذه القضية ليس سببه دائمًا أن المخاطبين مشركون! فالمؤمنون كذلك يحتاجون إلى مداومة التذكير بها وبمقتضياتها، والدليل على ذلك أن الحديث عن لا إله إلا الله لم ينقطع في القرآن الكريم، حتى بعد أن تكونت الجماعة المسلمة، وتمكنت في الأرض، ودخلت المعارك من أجل لا إله إلا الله، فقد أنزل الله في سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٣٦).

وأنزل الله آيات كثيرة في السور المدنية تربط التوجيهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بلا إله إلا الله ومقتضياتها:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ٢٦ ـ ٢٨).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: ٥٩).

والأمثلة على ذلك كثيرة.

ومن ثم فليست لا إله إلا الله درسًا يُتلى ثم ينتقل منه إلى غيره، إنما هي ـ كما قلت في كتاب سابق ـ درس يُتلى وينتقل معه إلى غيره، ويظل هو حديث الأمة المسلمة إلى قيام الساعة.

* * *

ما السبيل للتعريف بلا إله إلا الله؟

إنه كما حدده الله تعالى: الحكمة والموعظة الحسنة: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

ويجب أن ندرك أن الحكمة والموعظة الحسنة ليست هي التربيت على أخطاء الناس وانحرافاتهم، ودغدغة مشاعرهم، لكي يرضوا عنا ويتقبلوا منا!

فأدرى الناس بمراد ربه هو الرسول ﷺ، الذي تلقى هذا الأمر مباشرة من ربه، فكيف قام به ﷺ؟ هل داري على الناس شركهم؟ هل تجنب أن يواجههم بحقيقة أمرهم؟ وهو الذي تلقى من ربه أمرًا أن يصدع بالحق: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر: ٩٤).

لقد شكا المشركون رسول الله ﷺ إلى عمه أبي طالب، فقالوا: سفَّه أحلامنا وسب آلهتنا وكفّر آباءنا! وقد كانت مواجهة العرب بكل ذلك، هي مقتضى الحكمة كما نفذها رسول الله ﷺ!

إنما كانت الحكمة كفّ الأيدي، وعدم الدخول مع المشركين في معركة في ذلك الأوان، مع عدم استفزازهم بما يعطيهم مبررًا للعدوان، مع التصريح بالحقائق كلها بلا نقصان.

وهنا نصل إلى قضية هامة من قضايا الحاضر، لننظر موضع القدوة فيها من الجيل الفريد: هل كان يحسن بنا ـ أو يجدر بنا ـ أن ندخل فى صراع مسلح فى الوقت الحاضر مع أصحاب السلطان؟

أما العدوان من جانب أى سلطة لا تحكم بما أنزل الله، فأمر لا بد أن نتوقعه دائمًا؛ لأنه سنة من سنن الله، ولم يحدث قط أن سلطة جاهلية رضيت عن دعوة لا إله إلا الله، أو حتى هادنتها حين تطلب المهادنة!

حينما قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٧)، لم يقبل الملأ هذه المهادنة، وأصروا على إخراج المؤمنين أو إكراههم على ترك دينهم: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨).

وفى الجاهليات الحديثة التى تسمِّى نفسها «ديمقراطية»، تُتاح الحرية لجميع الفئات وجميع الدعوات، إلا الفئة التى تدعو للا إله إلا الله! ويكفى ما حدث فى الجزائر نموذجًا لما نقول، حيث التزم الإسلاميون ـ بصرف النظر عن خطأ ذلك أو صوابه [1] ـ التزموا قواعد الجاهلية ومنهجها، فوصلوا إلى الأغلبية عن طريق صندوق الانتخاب كما تشترط الجاهلية، فإذا تلك الجاهلية تتنكر لكل مبادئها، التى تتيحها للفئات كلها والدعوات كلها، وتقف للإسلاميين بالعنف تقول لهم: لنخرجنكم . . . أو لتعودن!

لا مجال لأن يسأل سائل: هل هناك وسيلة يمكن أن تستخدمها الدعوة، لا تستثير غضب السلطة الجاهلية؟ فالأمر مفروغ منه! إنما السؤال الذى سألناه: هل كان يحسن بنا ـ أو يجدر بنا ـ أن ندخل فى صراع مسلح فى الوقت الحاضر مع أصحاب السلطان؟

وللإجابة على هذا السؤال نعود لمراجعة الدرس المستفاد من تاريخ النشأة الأولى، والذى عالجناه فى الفصل الماضى، فنسأل بادئ ذى بدء: متى أذن الله

---

(١) سنتحدث عن هذه القضية فيما بعد.

للمسلمين في رد العدوان بقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج: ٣٩)؟

جاء الإذن بعد أن تحقق ما يأتي: تحرير قضية لا إله إلا الله.. تحرير قضية الشرعية.. بناء القاعدة على أسس متينة.. اتساع القاعدة بمجيء الأنصار.. تربية القاعدة على التجرد لله.

والآن فلننظر، ماذا تحقق من هذه الأمور في المسيرة الحالية، وبأي قدر تحقق؟

هل تم تحرير قضية لا إله إلا الله، لا نقول عند الجماهير، بل عند الدعاة أنفسهم؟

هل وضح عند الدعاة أن التشريع بغير ما أنزل الله شرك مخرج من الإيمان، وأن الرضى بهذا التشريع هو كذلك شرك مخرج من الإيمان؟ أم لا يزال الجدل يدور بينهم حول هذه القضية، ما بين شاكٍّ وبين مقتنع؟

ودع عنك قضية الحكم على الناس، فتلك قضية لا نتعرض لها هنا، وندعو دائماً ألا تشغلنا عن مهمة الدعوة لبيان حقيقة لا إله إلا الله.

إنهما قضيتان منفصلتان ـ أو يجب أن تكونا منفصلتين ـ إحداهما عن الأخرى. إحداهما قضية تعليمية، قضية بيان الحقائق للناس، تلك الحقائق التي صارت مجهولة عند كثير من الناس بسبب الغربة الثانية للإسلام، وهي أمانة لله لابد من أدائها وعدم كتمانها، مهما استوحش الناس منها عند عرضها على حقيقتها.. والثانية قضية تطبيقية، والتطبيق لابد أن يسبقه إقامة الحجة على الناس أولاً، بالبيان المستفيض المتمحض للبيان، بلا اشتباك بأي قضية أخرى تغشّي عليها، وتلقي عليها ظلالاً تصرف الناس عن حقيقتها.

ونعود للسؤال: هل وضحت قضية التشريع بغير ما أنزل الله عند الدعاة أنفسهم ـ ودع عنك الآن جماهير الناس ـ أم لا يزال يختلط عليهم قول ابن عباس رضي الله عنهما: كفر دون كفر، كفر لا يخرج من الملة؟!

إن الذي قال عنه ابن عباس رضي الله عنهما إنه كفر دون كفر، ليس هو التشريع

بغير ما أنزل الله ، إنما هو الحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله ، جهلاً أو تأولاً أو شهوة أو لقاء رشوة أو هوىً ، دون جعل هذا الحكم تشريعًا مغايرًا لحكم الله .

إن القاضي الذي يُؤتى له بإنسان ثبت شربه للخمر ، وتفوح من فمه رائحته ، فلا يقيم عليه الحد ، لأنه تلقى رشوة من أهل الرجل ، فالتوى عن حكم الله بحجة من الحجج ، هو قاض فاسق ، ولكنه لا يكفر بفسقه . . أما يوم يقول : إن شرب الخمر ليس جريمة ، أو إنها جريمة لا يُقام عليها حد ، إنما توقع عليها عقوبة أخرى ، فإنه يكون كافرًا كفرًا مخرجًا من الملة ، لأنه أنشأ حكمًا في القضية مخالفًا لحكم الله ، وذلك باتفاق الفقهاء جميعًا .

حين حكم التتار بالياسق وهو ـ كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : مجموعة أحكام بعضها مأخوذ من القرآن ، وبعضها من الإنجيل ، وبعضها من التوراة ، وبعضها من وضع جنكيز خان ـ قال ابن كثير رحمه الله ، في مناسبة تفسير الآية الكريمة : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) : «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله ، المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية ، المأخوذة عن مَلِكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا ، يقدّمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر ، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير»[1].

ولقد كان ابن كثير رحمه الله ، يعلم جيدًا ولا شك مقالة ابن عباس رضي الله عنهما ، ولكنها لم تختلط عليه ؛ لأنه بعلمه وفقهه يفرق بين مجرد الحكم بغير ما أنزل الله في قضية من القضايا ، وبين التشريع بغير ما أنزل الله .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٨ .

وقد علق على هذه القضية سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ[1] في رسالة «تحكيم القوانين الوضعية» ـ وهو المشهود له بغزارة العلم والقوة في الحق ـ بعد أن أورد قول ابن كثير رحمه الله :

«فانظر كيف سجل سبحانه وتعالى عن الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق، ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه وتعالى الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ولا يكون كافرا، بل هو كافر مطلقا، إما كفر عمل وإما كفر اعتقاد. وما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيره يدل على أن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر، إما كفر اعتقاد ناقل عن ملة الإسلام، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة؛ أما الأول وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع :

أحدها : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهو معنى ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه، واختاره ابن جرير، أن ذلك هو جحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي، وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلا من أصول الدين، أو فرعا مجمعا عليه، أو أنكر حرفا مما جاء به الرسول ﷺ، فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثاني : ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كونه حكم الله ورسوله حقا، ولكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقا، أو بالنسبة لما استجد من الحوادث التى نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال، وهذا أيضا لاريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التى هى محض زبالة الأذهان وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد. وحكم الله ورسوله لا يختلف فى ذاته باختلاف الأزمان وتطور الأحوال وتجدد الحوادث. فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، نصا ظاهرا، أو استنباطا، أو غير ذلك، علم ذلك من علمه وجهله من جهله . . .

الثالث : ألا يعتقد أنه أحسن من حكم الله ورسوله، ولكنه اعتقد أنه مثله، فهذا

(١) المفتى الأسبق للمملكة العربية السعودية، ومن أكابر علمائها.

كالنوعين اللذين قبله، في كونه كافرا الكفر الناقل عن الملة، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة لقول الله عز وجل ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ونحوها من الآيات الكريمات الدالة على تفرد الرب بالكمال وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين، في الذات والصفات والأفعال، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه.

الرابع: أن لا يعتقد كون الحكم بغير ما أنزل الله مماثلا لحكم الله ورسوله، فضلا عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله. فهذا كالذي قبله، يصدق عليه ما يصدق عليه، لاعتقاده جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة بتحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعدادا، وإمدادا، وإرصادا، وتفريعا، وتشكيلا، وتنويعا، وحكما، وإلزاما، ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستندات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

السادس: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم، من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها «سوالف».

وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة، فقد تقدم أن تفسير ابن عباس رضي الله عنه لقول الله عز وجل: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قد شمل ذلك القسم، وذلك في قوله رضي الله عنه في الآية «كفر دون كفر» وقوله أيضا ليس بالكفر الذي تذهبون إليه أ. هـ، وذلك أن تحمله شهوته على الحكم في قضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو حق، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى.

وهذا إن لم يخرجه كفره عن الملة، فإن معصيته عظمى أكبر من الكبائر، كالزنا وشرب الخمر والسرقة واليمين الغموس وغيرها، فإن معصية سماها الله في كتابه

كفرا، أعظم من معصية لم يسمها كفرا. نسأل الله أن يجمع المسلمين على التحاكم إلى كتابه، انقياداً ورضاءً، إنه ولي ذلك والقادر عليه».

* * *

فهل اتضحت القضية عند الدعاة أنفسهم، أم ما يزال بعضهم تختلط عليه الأمور، مرة من مقالة ابن عباس رضي الله عنهما، ومرة من أثر الفكر الإرجائي الذي يفصل بين الإيمان والعمل، حتى لو كان العمل نقضًا صريحًا للا إله إلا الله، كالتشريع بغير ما أنزل الله؟

وإذا كان الأمر ما يزال مختلطًا عند بعض الدعاة، فماذا نتوقع من أمر الجماهير؟ وكم من الجهد مازال أمامنا، حتى تتضح هذه القضية بغير غبش في حس الناس، ويتمكنوا من رؤية الحق الرباني فيها دون أن تستوحش نفوسهم من الحق؟!

هذا في قضية الحاكمية، وهي ليست وحدها التي تحتاج إلى تجلية في قضية لا إله إلا الله.. فتحرير القضية يستلزم تخليصها كذلك مما يشتبك بها من قضايا الوطنية والقومية والعدالة الاجتماعية، وأمثال ذلك من القضايا التي تداخلت معها في مسيرة الدعوة.

لقد كانت أمام الرسول ﷺ قضايا كثيرة يمكن أن يثيرها للاستكثار من «الجماهير».

كان الفرس يحتلون جزءًا من الجزيرة العربية، والروم يحتلون جزءاً آخر، وكان في إمكان الرسول ﷺ أن يثير حمية العرب القومية لتلتف حوله الجماهير، حتى إذا اجتمعوا وأمنوا بزعامته قال لهم: قولوا لا إله إلا الله.

وكانت هناك قضية اجتماعية، فالأغنياء يصلون إلى درجة الثراء الفاحش، والفقراء يصلون إلى درجة الفقر المدقع، ولا أحد يفكر في الحد من غنى الأغنياء، بإلغاء الربا - على الأقل - وأخذ جزء من الفائض عند الأغنياء، وردّه على الفقراء لرفع مستواهم، وكان في إمكان الرسول ﷺ أن يثير القضية، فتلتف حوله جموع الفقراء المسحوقين، فيكوّن منهم قوة يواجه بها جبروت قريش، وفي حمية الصراع يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله.

وكان غير ذلك من القضايا مادة مفيدة فى تجميع الجماهير وإثارة حماستهم، ثم استمالة الناس للدعوة من خلال تلك القضايا العامة، التى تستهوى بطبيعتها كثيراً من الناس، فيتجمعون لها بسهولة، ويلتفون حول من ينادى بها، ويمنحونه ودهم وحماستهم. ولكن رسول الله ﷺ ـ بتوجيه من الوحى الربانى ـ لم يثر أية قضية من هذه القضايا فى فترة التربية بمكة؛ وإنما أثار القضية الواحدة التى جلبت له عداء «السادة» وبالتبعية عداء الجماهير، وظل مصراً عليها وحدها، حتى أذن الله أن تتفتح لها قلوب أفضل الخلق بعد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

ولم يكن ذلك لأن هذه القضايا كلها ليس لها أهمية فى حياة الأمة، كلا! فقد تناولتها الحركة الإسلامية كلها واحدة إثر الأخرى؛ ولكن لأن القضية الكبرى ـ فى المنهج الربانى وفى واقع البشر ـ هى قضية لا إله إلا الله، التى يتوقف عليها منهج حياة الإنسان فى الدنيا، ومصيره فى الآخرة، ولأن قضايا الحياة كلها ـ فى المنهج الربانى ـ يجب أن تكون نابعة من لا إله إلا الله، ومرتبطة بها ارتباطاً حيوياً، فيتوفر لها الصدق والإخلاص والتجرد. ومن ثم جرى المنهج الربانى على تحرير قضية لا إله إلا الله أولاً، وتجريدها من أى شىء يمكن أن يشوبها فى مرحلة التكوين، لتكون عبادة خالصة لله، هدفها رضوان الله وحده، حتى إذا تمحضت فى قلوب أصحابها، وُصلت بها كل قضايا الأرض اللازمة لحياة الأمة، دون خشية من اختلاط الأمور فى تلك القلوب، بينما الخشية قائمة فى مرحلة التكوين، وحين يحدث الاختلاط فى المنشأ، فما أسرع ما تغلب مصالح الأرض، وتصبح مداخل للشيطان!

فهل تجردت قضية لا إله إلا الله فى قلوب الدعاة أنفسهم ـ ودع عنك الآن قلوب الجماهير ـ فتمحضت لتقرير العبودية الخالصة لله، غير مختلطة بقضايا القومية والوطنية والعدالة الاجتماعية، والدعاة ـ من أجل استمالة الجماهير ـ يتحدثون عن «اشتراكية الإسلام»، و«ديمقراطية الإسلام»، و«التعددية فى الإسلام»؟

* * *

هل تم تحرير قضية الشرعية، لا نقول عند الجماهير، بل عند الدعاة أنفسهم؟

ما مفهومنا عن الشرعية؟

فى الغربة الثانية للإسلام ـ وخاصة بعد تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم فى معظم بلاد المسلمين ـ نسينا معاييرنا الإسلامية، واستبدلنا بها معايير الغرب، خاصة فى مجال «السياسة الشرعية».

والغرب يقول: إن مقياس الشرعية هو النجاح فى الانتخابات.. فمن فاز بأكبر عدد من الأصوات فهو صاحب الشرعية الذى يحق له أن يتولى الحكم.

ودعك مؤقتًا من التغير الحاد الذى أصاب هذا المعيار، حين كان الفائزون بأكبر عدد من الأصوات هم الإسلاميين فى الجزائر! فقد عوّدنا الغرب «العظيم!» أن يكيل بمكيالين فى أى قضية يكون المسلمون طرفًا فيها، وذلك لشدة إيمانه بالقيم والمبادئ واحترام الآخر، واحترام حقوق الإنسان!!

دعك من الغرب ومواقفه، وتعال نسأل الإسلاميين: هل هذا هو المعيار الإسلامى فى هذه القضية؟

هب أن إنسانًا أو حزبًا أو هيئة ـ أو ما يكون من الأشكال السياسية ـ حصل على أغلبية ساحقة فى الانتخابات، حصل على مائة فى المائة من أصوات الناخبين، ثم لم يحكم بما أنزل الله، فهل تكون له شرعية فى دين الله؟!

لقد اختلط علينا ـ فى غربة الإسلام الثانية ـ أمران مختلفان: طريقة اختيار الحاكم، ونوع الحكم الذى يُحكَمُ به الناس..

وحين كان الإسلام هو الحاكم فى الأرض الإسلامية، تكلم فقهاء السياسة الشرعية عن الشروط الواجبة فى الحاكم، وتكلموا عن البيعة الحرة، وعن الشورى، وعن غيرها من الأمور المتعلقة بسياسة الحكم، وتحدثوا عن «فقه الضرورة»، وما يمكن التنازل عنه من الشروط تحت ضغط الضرورة، فقالوا: «وللمتغلب السمع والطاعة».. ولكن لم يدر فى خَلَدهم قط أن حاكمًا يمكن أن يشرع بغير ما أنزل الله، ثم يكون حاكمًا شرعيًا على المسلمين!!

إن الشرط الأساسى لشرعية الحكم فى الإسلام، أن يكون التشريع القائم هو

الشريعة الربانية ، ومر بنا آنفًا قول ابن كثير رحمه الله فى الحاكم الذى لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يحكم بتشريع مخالف للشريعة .

فهل تحررت هذه القضية فى أذهان الدعاة أنفسهم ، فضلاً عن الجماهير . . أم إن حديثنا كله يجرى حول الانتخابات ، وهل هى حرة أم مزورة؟ وكم صوتًا نلنا حتى الآن فى البرلمان؟ وكم يلزمنا من الجهد لزيادة نصيبنا من الأصوات؟!

إن الظن بأننا إذا حصلنا على أغلبية فى البرلمان ، فسيترك لنا المجال لتطبيق شريعة الله ، ظن ساذج إلى أقصى درجات السذاجة ، ويكفى واقع الحال فى الجزائر دليلاً على ذلك .

ولكن اختيارنا لهذا الطريق ـ من حيث المبدأ ـ من أجل الوصول إلى الحكم ، ثم محاولة تطبيق شريعة الله من هذا الطريق ، مخالفة شرعية ؛ لأنه يجعل الناس هم المرجع فى اختيار نوع الحكم الذى يُحكَمُون به ، (ولا نتحدث هنا عن اختيار الحاكم) ، فإذا اختاروا الإسلام حَكَمَ الإسلام ، وإذا اختاروا غيره حكم غيره! فهل هذا هو الإسلام؟!

وأين نحن من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

إن مصدر الإلزام فى تحكيم شريعة الله ليس هو اختيار البشر أو عدم اختيارهم ماداموا مسلمين . . فماداموا مسلمين فقد لزمهم التحاكم إلى شريعة الله بداهة ، وإلا انتفى الإيمان عنهم إن أعرضوا عن شريعة الله ، واتجهوا إلى غيرها من الشرائع ، وإن صلُّوا وصاموا وزعموا أنهم مسلمون!

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (النور : ٤٧ ـ ٤٨) .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

حقيقة إنه لا يمكن فى عالم الواقع أن يحكم الإسلام ما لم يكن هناك مؤمنون، يصرون على تحكيم شريعة الله، ويرفضون أى شريعة سواها، يقينًا منهم أن الرضى بشرع غير شرع الله كفر مخرج من الملة. . وأن هذه العينة من المؤمنين هى الآن قلة فى المجتمع تستضعفهم الجاهلية وتعصف بهم. . هذه حقيقة، ولكن مقتضاها هو أن نظل ندعو، ونظل نبين للناس هذه الحقيقة، أنه لا إيمان لأحد إذا رضى بشرع غير شرع الله، ونظل نربى الناس على مقتضيات هذه الحقيقة، حتى تصبح القاعدة المؤمنة من القوة بحيث يصبح فى يدها مقاليد الأمور، وهذه هى مهمة الدعوة فى وقتها الحاضر، مهما طال بها الأمر لتحقيقها، وليست مهمتها أن تستفتى الناس عن طريق صناديق الانتخاب: هل يريدون أن يكونوا مسلمين أم لا يريدون!

فهل وضحت هذه القضية فى حس الدعاة أنفسهم، فضلاً عن الجماهير، أم إنهم انزلقوا بغير وعى منهم إلى معايير الديمقراطية التى تجعل الجماهير - فى ظاهر الأمر على الأقل [1] - هم المحكّمين فى نوع الحكم، وليس الله الذى له الخلق والأمر: ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (الأعراف: ٥٤). . وهذا مفرق طريق رئيسى بين الجاهلية والإسلام!

* * *

هل تم بناء القاعدة على أسس متينة؟

نقول بادئ ذى بدء: إنه إذا كانت لم تتبلور بعد قضية لا إله إلا الله، ولا قضية الشرعية فى حس بعض الدعاة على الأقل، فكيف تكون القاعدة قد قامت على المواصفات المطلوبة؟

إن القاعدة المطلوبة - وهى تتكون أساسًا من جيل الدعاة الذين يُعَدّون لنشر الدعوة على نطاق أوسع - تقوم على أساسين كبيرين: فَهْم واع لحقيقة الإسلام، وتربية عميقة على متطلبات هذا الدين وتكاليفه.

---

(١) فى مسرحية الديمقراطية تتوهم الجماهير أنها هى التى تحكم، بينما الحكم فى الحقيقة فى يد الرأسمالية! أما من وجهة النظر الإسلامية فسواء كان الحكم للجماهير حقيقة أم كان فى يد الرأسمالية فهو فى الحالين تشريع بغير ما أنزل الله.

وقد رأينا أن الفهم الواعي لحقيقة الإسلام، مازال يعتوره النقص في قضيتين رئيسيتين من قضايا الإسلام، وهما قضية لا إله إلا الله، وقضية الشرعية، فضلاً عن قضايا أخرى سيأتي الحديث عنها فيما بعد، تتعلق بمنهج الحركة، أما التربية فشأنها أخطر، والنقص في مجالاتها أشد.

وإذا رجعنا إلى النشأة الأولى، فقد كان الهم الأكبر لرسول الله ﷺ في الفترة المكية هو تربية القاعدة على أسس متينة غاية في المتانة، راسخة شديدة الرسوخ، فائقة من جميع المجالات: الإيمانية والأخلاقية، التصورية والسلوكية، الوجدانية والعملية.

وقد لا يتكرر جيل مثل جيل الصحابة رضوان الله عليهم إلى قيام الساعة - وإن لم يخل جيل من الأجيال من أفراد على ذلك المستوى الرفيع - ولكن يبقى موضع القدوة لنا في ذلك الجيل الفريد، أن القاعدة ينبغي أن تكون على أعلى ما هو متاح لها من إمكانات الرسوخ العقدي والسلوكي، وأعلى درجة في حدود طاقتها من التمثيل الصادق لحقيقة الإسلام، لأنه على أكتافها ستقوم الدعوة، وفي أشخاصها ستكون القدوة، وعلى جهدها يتوقف مردود الحركة في إزالة الغربة الثانية للإسلام، كما ألقى على عاتق الجماعة الأولى مهمة إزالة الغربة الأولى للإسلام.

وسنخصص لموضوع التربية فصلاً رئيسيًا من فصول الكتاب، ولكن نقول هنا: إنه يجب علينا أن نعلم ابتداءً أن المطلوب للجولة الحالية - بالنسبة للقاعدة - ليس أي مستوى على علاته، إنما مستوى خاص؛ لأنها تقوم بمهمة خاصة، وتواجه عقبات من نوع غير عادي، وعداوة فذة في كيدها وتدبيرها، ومقدار الغل الذي تحمله في صدرها للإسلام.. وليس أي مستوى يصلح لتلك المهمة العظيمة، ولا لمواجهة تلك العقبات وتلك العداوات..

وعلى الرغم من المشقة الواضحة في الوصول إلى المستوى المطلوب، فإنه أمر لا حيلة فيه ولا غنى عنه، والأمة - ممثلة في طليعتها - تدفع ثمن تقاعسها وتفلتها من حمل تكاليف هذا الدين، ذلك التقاعس الذي أوصلها إلى تداعي الأمم عليها كما تداعى الأكلة على قصعتها.. ولابد من جهد غير عادي تبذله اليوم، يعوض شيئًا

من ذلك التقاعس الذى استمر أكثر من قرنين من الزمان، تمكن العدو فيهما من الأمر، وجثم على صدر الأمة لا يريد أن يتحرك.

وإذا كان الجيل الأول، وفيهم رسول الله ﷺ، والوحى يتنزل عليهم، قد بذلوا جهداً غير عادى لإزالة الغربة الأولى للإسلام.. فنحن - وليس فينا رسول الله ﷺ بشخصه، ولا يوجّه الوحى خُطانا توجيهاً مباشراً كالجيل الأول - أحوج إلى بذل أقصى غاية الجهد، مستعينين بالله العلى العظيم، الرءوف الحليم، أن يبارك جهدنا ويسدد خطانا، ويكتب على أيدينا إزالة الغربة الثانية.

وأشد المجالات حاجة إلى بذل الجهد هو بناء القاعدة، ولكن الذى نراه اليوم من عثرات فى العمل الإسلامى دليل لا يخطئ على أننا تعجلنا الخطى، ولم نُعط قضية التربية ما تستحقه من الجهد، بل لم ندرك فى بعض الأحيان أن هذا الأمر أو ذاك محتاج إلى تربية وإعداد!

* * *

هل اتسعت القاعدة إلى الحد المعقول، الذى يناسب ما هو مطلوب منها فى الجولة الحالية؟!

فأما إن قصدنا القاعدة الجماهيرية، فقد اتسعت ولا شك من خلال عمل الدعوة الدائب، ما يزيد على نصف قرن، ومن خلال الشهداء الذين قدّموا أرواحهم ودماءهم فى سبيل الدعوة، ومن خلال حماقات الجاهلية فى إراقة الدماء والسجن والتشريد والتعذيب للمسلمين، وتلك سنة ربانية يغفل عنها الطغاة دائماً: أن الدعوة التى يُقدم لها الدم لا تموت! والطغاة يحسبون أنهم إن أكثروا من إراقة الدماء، والسجن والتشريد والتعذيب، فسيقضون على الدعوة، ويجعلون هذا تحدياً قائماً أمامهم لابد أن ينتصروا فيه، فيكون هذا ذاته هو قدر الله لتمحيص المؤمنين، ومحق الكافرين فى نهاية المطاف: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩ - ١٤١).

نعم، اتسعت القاعدة الجماهيرية، وتفرعت وتشعبت وشملت العالم الإسلامى كله، وانضم إليها ألوف وألوف من الشباب، ولدوا فى ظل النظم الجاهلية، ولكن أراد الله لهم أن يختاروا طريق الإسلام، متأثرين بنشاط الدعوة وحماقات الجاهلية، ولكن ما وزن هذه الجماهير بالنسبة للحركة؟

أما أن الدعاة قد فرحوا باتساع القاعدة على هذا النحو فأمر لا شك فيه، وأما أن هذه الجماهير قد جندت أنفسها للدعوة، كما جند الأنصار أنفسهم لدعوة الرسول ﷺ، فأمر تحوطه الشكوك!

ونسأل أولاً: هل هذه الجماهير المتحمسة للإسلام تظل على حماستها حين ترتكب الجاهلية حماقاتها، فتقتل المسلمين وتعذبهم وتشردهم، وتسلبهم أمنهم وطمأنينتهم، وتلاحقهم بالأذى والتنكيل، أم يقول قائلهم يومئذ: لهذا الحد لم تبلغ صداقتنا! ويتخلى عن الطريق؟!

بل لو فرضنا جدلاً أن المسلمين تولوا الحكم فى بلد من البلاد، فقامت الجاهلية العالمية: الصليبية الصهيونية، تحاربهم بالحصار الاقتصادى - ودع عنك الوسائل الأخرى - فهل تصبر هذه الجماهير المتحمسة على الجوع من أجل إقامة حكم الإسلام؟ أم ترتد على أعقابها بحثًا عن لقمة الخبز؟!

بل لو فرضنا جدلاً أن المسلمين تولوا الحكم فى بلد من البلاد ولم تتعرض لهم الجاهلية العالمية بالحرب، لا الحرب الاقتصادية ولا غيرها من أنواع الحرب، ولكنهم فقط ألغوا الأغانى المتسيبة المتميعة من الإذاعة، وألغوا المشاهد الخليعة من التلفزيون، وحرّموا التبرج فى الطريق.. فهل هذه الجماهير المتحمسة ستظل كلها على حماستها، أم يتقاعس بعضها على الأقل ويقول: هذا تزمت لا موجب له!!

أليس من الضرورى أن تتلقى هذه الجماهير قدراً من التربية على الأقل، لكى تجند نفسها لتكاليف الإسلام، ولا تنفر من هذه التكاليف حين يواجهها الأعداء بالحرب، أو حين تُقام فى الأرض أحكام الإسلام؟

ومن الذى يربى تلك الجماهير، والقاعدة ذاتها لم تستكمل حظها من التربية، ولم تعدّ نفسها للتوسع الجماهيرى، فجاءت الجماهير تلهبها الحماسة فلم تجد المربين؟!

أما الحديث عن التجرد لله فحديث شائك! وما بنا أن نتكلم في حق أحد بعينه، وما نبرئ أنفسنا، والله وحده هو المطلع على دخائل النفوس: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (غافر: ١٩). ولكننا نقول فقط إن ظاهرة التنازع والشقاق والتشرذم التي تحيط بالعمل الإسلامي اليوم تحمل دلالة معينة: أن هناك نقصًا في تربية «الأخوة الإسلامية» في نفوس العاملين في حقل الدعوة، ونقصا في التجرد الحقيقي لله.

ليس الخلاف في ذاته عيبًا، وإن كان ينبغي أن تكون له ضوابط تضبطه، بحيث لا يصبح تعصبًا لهوى في النفس، أو لشخص من الأشخاص، أو فرقة من الفرق. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون، ولكنهم لم يكونوا يفترقون، وهذا هو محور القضية. حين نختلف ونحن متجردون لله، متجردون للحق، فسيقل التنازع والشقاق والتشرذم دون شك، وتقل ظاهرة التحزب القائمة اليوم في العمل الإسلامي، والتي تؤدي إلى التعصب للرأي، وللفكر، وللقائد، وللجماعة، وللطريق.

وبطبيعة الحال ليس الاجتماع مطلوبا في ذاته ولو كان على الخطأ، فالخطأ لا يخدم الدعوة، والإصرار عليه مفسدة، ولكن التجرد في بيان الحق أدعى إلى تأليف القلوب، من التنابذ بدعوى تصحيح الخطأ وإظهار الصواب!

وخلاصة القول: أننا تعجلنا الطريق، وأن أمامنا مشوارًا لابد أن نقطعه، لنستحق عند الله التمكين.

لقد بيّن الله لنا طريق التمكين: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ... ﴾ (الأنفال: ٦٢ ـ ٦٥).

فتلك شروط أربعة، في أربع آيات متواليات من سورة واحدة، تبيّن الشروط الأساسية للنصر: وجود مؤمنين صادقي الإيمان، متآلفة قلوبهم، متجردين لله، مستعدين للقتال حين تقتضي ذلك ظروف الجهاد.

فإذا نظرنا إلى واقع الدعوة في ضوء هذه الشروط فسنجد ولا شك أننا قطعنا شوطًا، ولكننا استعجلنا الطريق!

أسباب التعجل فى الحركة المعاصرة
والنتائـــج التـى ترتبـت عليـــه

هنالك ثلاثة أسباب رئيسية أدت إلى التعجل فى الحركة المعاصرة :

أولاً : عدم التقدير الدقيق لمدى بُعد الأمة عن حقيقة الإسلام .

ثانيًا : الانخداع بحماسة الجماهير ، والظن بأن المهمة وإن كانت شاقة فهى قريبة المنال .

ثالثًا : عدم التقدير الكافى لرد فعل الأعداء .

وسنتناول كل واحد من هذه الأسباب بشىء من البيان .

حين بدأت الدعوة قبل أكثر من نصف قرن ، لم يكن حال الأمة قد انكشف تمامًا من كل جوانبه ، فقد كانت بقايا من المظاهر الإسلامية تخايل للرائى ، فيظن أن الخير باق ما يزال . . لم يكن الغزو الفكرى قد تمكن من الأمة تمكنه الحالى ، وكانت بقايا التقاليد تستر الخواء القابع وراءها ، فلا تظهر الصورة على حقيقتها .

فأما الغزو الفكرى فكان قد بدأ منذ وقعت بلاد العالم الإسلامى فى قبضة الغرب ، وبدأ العالم الإسلامى من جانبه ينبهر بما عند الغرب من تقدم مادى وعلمى ، بينما المسلمون يومئذ متخلفون فى جميع الميادين ، ثم عملت مناهج التعليم ووسائل الإعلام على تعميق الغزو وترسيخه ، وتخريج أجيال تنسلخ تدريجيًا من الإسلام ، وتدخل تدريجيًا فى عملية التغريب . . ولكنه حين بدأت الدعوة قبل أكثر من نصف قرن ، لم يكن قد آتى ثماره كاملة ، فلم يكن يتعرى على الشاطئ إلا نساء الطبقة الأرستقراطية ! أما بنات الطبقة المتوسطة فكن مازلن يستحين من ذلك العرى ، وإن اشتهته أنفسهن من كثرة ما تنشر الصحف والمجلات

من صوره وأخباره! وأما بنات الشعب فكن ينفرن منه نفوراً ويستنكرنه استنكاراً! وكانت الصداقات «البريئة!» بين الأولاد والبنات تتم على استحياء شديد، وفي تكتم عن الآباء والأمهات، والفتاة التي تستعلن به تعتبر ساقطة في نظر الناس! وكان الفكر الغربي ينشر في الصحف والكتب إما منسوبًا إلى أصحابه الأصليين من مفكري الغرب، إذا كان الناقل أمينًا يحترم نفسه، وإما مَسْطوّاً عليه ومنسوبًا إلى ناقله في كثير من الأحيان! وكان المسرح، وكانت السينما، وكانت الإذاعة، كلها تعمل لحساب الغزو الفكري، ولكن روادها بعد محدودون، وتأثيرها بعد ما يزال في منشئه.

باختصار لم تكن عملية التحول قد تسارعت بالدرجة التي صارت إليها فيما بعد، والتي قفزت قفزات سريعة بعد الحرب الكبرى الثانية بصفة خاصة.

ومن جانب آخر كانت بقايا التقاليد ما تزال قائمة، يخيل للرائي أنها ستصمد لضغط الغزو الفكري، كما صمدت حوالي نصف قرن قبل ذلك! فقد كان ما يزال هناك من يرتاد المساجد من الشباب، حتى في العواصم الكبرى التي تركز فيها الغزو الفكري، وفي رمضان يصوم الصغار والكبار، ولا يجرؤ أحد أن يستعلن بتناول طعام أو شراب، حتى لو كان مفطراً في واقع الأمر! وكان الزواج يتم بمعرفة الأبوين وعن طريقهما في أغلب الأحيان، وكانت الأسرة ما تزال متماسكة، لرب الأسرة فيها كلمة مسموعة، والأولاد والبنات متقيدون بالتقاليد العامة لا يخرجون عنها، ومن خرج عليها يجد من الناس الإعراض والنفور؛ أما الريف فكان في مجموعه باقيًا على حاله كما كان منذ أجيال، يستنكر الفساد الموجود في المدينة، ويتحسر على «أيام زمان».

في مثل هذه الظروف كان يمكن أن تخفى على الرائي حقائق كثيرة!

لقد كان الإسلام قد تحول منذ فترة غير قصيرة إلى مجموعة من التقاليد أكثر منه شحنة حقيقية حية.. وفي فترة معينة في حياة الأمم يكون تمسك الناس بالتقاليد شديداً، إلى حد يتوهم معه الإنسان أن الناس على دين حقيقي! ولكن التقاليد تجف بعد فترة حين ينقطع عنها المدد الحيّ الذي يمنحها الحيوية والفاعلية، فتبدأ تتيبس

وتجمد من ناحية ، وتفقد تماسكها من ناحية أخرى . . وقد تبقى على ذلك قرونًا إذا لم يحدث تغيير عنيف فى المجتمع ، وإن كان مآلها إلى التفتت والانهيار فى النهاية ، بفعل عوامل «التعرية» الفكرية إن صح التعبير ؛ أما حين تحدث تغييرات عنيفة فإن التقاليد لا تستطيع أن تصمد ، وسرعان ما تنهار .

والذى حدث فى العالم الإسلامى أن معاول الهدم ـ المتمثلة فى الغزو الفكرى ـ كانت عنيفة شديدة العنف ، موجهة بشدة لهدم الإسلام ذاته فضلاً عن تقاليده الظاهرية ، فلا جرم تنهار التقاليد انهياراً سريعًا تحت طرقات المعاول التى تعمل ليل نهار ، فى دأب لا يفتر ، وإصرار لا يتحول عن أهدافه .

وفى نصف قرن تغيرت الأمور تغيراً سريعًا ، حتى لكأن الأمة الأولى قد ذهبت ، وجاءت بدلاً منها أمة أخرى لا صلة بينها وبينها إلا تشابه الأسماء ! وسرى الفساد الذى أطلقوا عليه اسم «النهضة» سريعًا ، كسريان السم فى البدن الملدوغ . فلم تعد بنات الأسر الارستقراطية وحدهن هن اللواتى يتعرين على الشاطئ ، إنما صارت بنات الطبقة الوسطى ، ورويداً رويداً وصلت العدوى للريف ! وصارت العلاقات بين الأولاد والبنات ـ البرئ منها وغير البرئ ـ شيئًا عاديًا فى المجتمع ، بل أصبحت إحدى أصوله . . وتفككت الأسرة ولم يعد لربها سلطان عليها ، وصار للأولاد والبنات شأنهم الخاص الذى لا يجوز للوالدين أن يتدخلا فيه . . وأصبح «الدِّين» عمومًا علامة الجمود والانغلاق ، وعلامة التخلف عن ركب الحياة الحى المتحرك ، وأصبح الثبات على أى شىء عيبًا يعيَّر به صاحبه ، لأن الأصل فى الأشياء هو التطور وليس الثبات !

فى نصف قرن حدث هذا كله ، ونُسب إلى التطور وإلى النهضة ، وإلى مواكبة العالم المتحضر ، وإلى ثورة التكنولوجيا وثورة الاتصالات !

وما كان يمكن بطبيعة الحال أن يبقى العالم الإسلامى خارج الأحداث التى تمور بها الأرض ، ولكن صورة أخرى مختلفة تمامًا كانت قمينة أن تحدث ، لو أن الإسلام كان حيًّا فى نفوس أصحابه ، وليس مجرد تقاليد خاوية من الروح .

فأما التقدم العلمي والتكنولوجي فهو لا يشكل مشكلة للإنسان المسلم، وقديمًا استوعب المسلمون كل الحركة العلمية التي كانت قائمة في الأرض، ثم أخذوا يضيفون إليها إضافات جذرية، أبرزها استخدام المنهج التجريبي في البحث العلمي، فضلا عن كشوف علمية أخرى كانت هي نواة التقدم الحالي. ولكن المسلم لا تهتز عقيدته حين يتعلم العلم، ولا يهتز إيمانه بالله واليوم الآخر، لأنه صاحب كيَان سَويّ تتجاور فيه ـ وتتعاون ـ نزعة الإيمان ونزعة المعرفة، بلا تعارض ولا تَناقض ولا تضاد: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨).

إنما حدث التعارض والتناقض في أوروبا، نتيجة خلل في الدين الذي كانت تعتنقه، وخلل في الكيان الذي أورثها إياه ذلك الدين، لا لأن الدين بطبيعته مناقض للعلم، ولا لأن العلم يمكن أن يكون بديلاً من الدين! ولو أن الإسلام كان حيًا فيّ نفوس أصحابه، وليس مجرد تقاليد خاوية من الروح، فقد كانت الأمة الإسلامية قمينة أن تقدم للبشرية نموذجًا حضاريًا مختلفًا عن النموذج الجاهلي الغربي الذي ينتقل من اختلال إلى اختلال، والذي لا يستوعب في أي طور من أطواره إلا أحد شقّي الإنسان: إما الشق الروحي، وإما الشق المادي. . إما الشق الذي يعمل من أجل الآخرة، ويهمل الحياة الدنيا، وإما الشق الذي يعمل من أجل الدنيا ويهمل الآخرة، ويعجز في جميع الأحوال عن استيعاب الإنسان كله كما خلقه الله، بشقّيه معًا مجتمعين مترابطين: قبضة الطين ونفخة الروح: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١ ـ ٧٢).

وإن عجز الأمة عن استيعاب التقدم العلمي والتكنولوجي الحادث في الأرض، وعجزها عن تقديم النموذج الحضاري المتميز، كانت له دلالة لا ينبغي أن تفوت صاحب الدعوة. . دلالته العامة أن الشعلة الحية لهذا الدين في نفوس أصحابه قد خبت، أو ضعفت إلى الحد الذي يعجزها عن التفاعل الحي مع الأحداث، كما تفاعلت من قبل مع أحداث التاريخ. . وهذا الضعف لابد له بطبيعة الحال من أسباب، فهو ليس من طبيعة هذا الدين الحيّ المَوار بالحيوية، الذي صنع الأعاجيب في حياة البشرية كلها، حين آمن به أصحابه إيمانًا صادقًا واعيًا، وتحركوا به في دنيا

الواقع . . ولابد أن تكون هناك أمراض أصابت القلب فمرض الجسد كله : «ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]. ولو انكشفت تلك الأمراض لأصحاب الدعوة من أول الطريق، لعملوا على علاجها أولاً قبل الانطلاق . . لو اتضح لهم أن كل ألوان التخلف التي وقع فيها المسلمون، من تخلف علمي ومادي وسياسي وحربي وحضاري وثقافي، نشأت كلها من التخلف العقدي الذي أصابهم في الفترة الأخيرة بصفة خاصة، لوضعوا منهجًا للدعوة غير الذي ساروا عليه بالفعل، ولكانت لهم رؤية مختلفة في طريقة العلاج .

ولا شك أن حقيقة بُعْد الأمة عن الصورة الصحيحة للإسلام، كانت واضحة وضوحًا كاملاً للدعاة؛ لأنها كانت أظهر من أن تخفى على أحد . . ولكن مدى هذا البعد ونوعيته، هما اللذان كانا خافيين تحت قشرة التقاليد الخادعة، التي تخيل للرائي أن البناء تحتها ما يزال سليمًا، أو أنه لا يحتاج إلا إلى ترميمات قليلة هنا وهناك!

كان ينبغي للدعوة أن تكشف عن الأساس ذاته، لترى إن كان قد بقي سليمًا، أم تهرأ خلال الهزات المتوالية التي مرت بالأمة خلال التاريخ، ليتقرر في حسها نقطة البدء : هل هي ترميم البناء، أم تجديد الأساس .

لم يكن الفساد الذي ألم بالأمة هو فساد السلوك وحده، إنما تعدى ذلك إلى فساد المفاهيم، وفساد المفاهيم أخطر كثيرًا وأشق علاجًا من فساد السلوك . .

حين يفسد سلوك فرد أو جماعة أو أمة، مع وجود مفاهيم صحيحة، فالإصلاح - مهما بلغت مشقته - أيسر منالاً وأقرب رجاءً مما لو كانت المفاهيم ذاتها قد فسدت، لأنك عندئذ تحتاج إلى جهد مضاعف، جهد في تصحيح المفاهيم وهو الأشق، وجهد في تصحيح السلوك.

وحين بدأت الدعوة كانت المفاهيم كلها في الحقيقة قد فسدت - كما ألمحنا من قبل - حتى مفهوم لا إله إلا الله، بل بدءًا بمفهوم لا إله إلا الله، فلم يبق منها غير الكلمة المنطوقة باللسان، إلى جانب بعض الشعائر التعبدية عند بعض الناس،

---

(1) أخرجه البخاري.

يؤدونها تقليداً أكثر مما يؤدونها أداءً حيًا واعيًا، يربط الإنسان بمنهج حياة متكامل، يشمل الحياة كلها : عبادتها وعملها، سياستها واقتصادها، روابطها الاجتماعية وروابطها الفكرية كلها في آن .

كانت عوامل كثيرة قد أثرت في إفساد مفاهيم الإسلام الأساسية في حس الناس، فلم يعودوا على وعى بها في صورتها الصحيحة التي أنزلت بها من عند الله، ووعاها ومارسها الجيل الأول رضوان الله عليهم، والأجيال التي تلته .

كان الفكر الإرجائي قد أخرج العمل من مسمى الإيمان! وزعم أن الإيمان هو التصديق والإقرار لا أكثر! وأن من قال : لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً من أعمال الإسلام!

وكان الفكر الصوفي قد حوّل الإسلام إلى سبحات روحية، وأوراد وأذكار، وهيام وجداني لا يتحرك في واقع الأرض، ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، ولا يقوم بجهاد، فضلاً عن الخلل العقدى في عبادة الأضرحة والأولياء والتقدم إليها بألوان من العبادة لا تجوز لغير الله .

وكان الاستبداد السياسي منذ بنى أمية، فبنى العباس، فالمماليك، فالعثمانيين، قد صرف الناس عن الاشتغال بالأمور العامة، ووجههم إلى الاهتمام بشئونهم الخاصة، وحصر مفهوم العبادة في الشعائر التعبدية، والفضائل الفردية التي لا تتدخل في شئون المجموع .

وتحوّل التوكل إلى تواكل سلبي دون الأخذ بالأسباب، وتحولت عقيدة القضاء والقدر إلى تخاذل وتقاعس، بعد أن كانت عقيدة إقدام وجرأة في مواجهة الأعداء والأحداث : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة : ٥١ ـ ٥٢).

وانفرج الطريق بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، بعد أن كان طريقًا واحدًا أوله في الدنيا وآخره في الآخرة : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ

الدُّنْيَا ﴾ (القصص : ٧٧) . ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥) . . فأهمل مجموع الأمة طريق الدنيا، من علم وقوة وتمكّن فى الأرض وعمارة لها وتحسين لأحوالها، وانصرفوا إلى ما ظنوا أنه يقربهم إلى الله، من حلقات الذكر وهيمان الوجد، بينما انصرف مجموعة من شرار الناس إلى الدنيا بمغرياتها، من أموال وبنين وزينة وزخرف وترف وتسلط على الناس، ونسوا البعث والنشور، والحساب والجزاء، فعاثوا فساداً فى الأرض، والأمة فى قبوعها السلبى لا تتعرض لهم بسوء!

وهذه الأمراض كلها، التى أفرغت الدين من محتواه الحىّ، وأفرغت لا إله إلا الله من شحنتها الفاعلة، كانت تستلزم البدء بتصحيح مفهوم لا إله إلا الله، وتربية قاعدة صلبة راسخة البناء، قبل التوجه إلى تجميع الجماهير!

* * *

وإذا كانت بقايا التقاليد، التى كانت قائمة فى المجتمع عند بدء الدعوة، قد خدعت الدعاة عن حقيقة المرض الذى أصاب الأمة فى أساس عقيدتها، فإن حماسة الجماهير فى تلقى الدعوة قد زادتهم انخداعاً عن حقيقة الواقع . .

تلقت الجماهير الدعوة بحماسة ملحوظة، وتجمع حول الإمام الشهيد فى سنوات معدودة، ما يقدر بنصف مليون من البشر فيهم الكثير من الشباب، وتلك نسبة عالية إذا قدرنا أن تعداد الشعب المصرى كله فى ذلك الوقت كان أقل من عشرين مليوناً، وإذا استبعدنا من التعداد النساء والأطفال والشيوخ، الذين لا يفكّرون فى الانشغال بأى أمر من الأمور العامة، أو يرحبون بأى جديد يظهر فى الساحة!

ولا شك أن الفيض الروحى الذى كان يتمتع به الإمام الشهيد، وقدرته الفائقة على التأثير فى مشاعر الناس، كان لها أثر فى تلك الحماسة الفياضة التى قوبلت بها الدعوة من جمهور كبير من الناس، وما كان يمكن لشخص لا يملك تلك الموهبة، أن يجمّع هذا الحشد الهائل من البشر، فى مثل هذا الوقت القصير.

ولكن فلننظر من جانب آخر فى تلك الجماهير، لأى شىء تجمّعت على وجه التحديد؟

لقد وجدت تلك الجماهير من يشبع جوعتها الروحية، بطريقة «متنورة» تختلف عن حلقات الذكر التى يلجأ إليها العامة لإشباع روحانيتهم عند مشايخ الطرق الصوفية، والتى كان المثقفون ينفرون منها ولكنهم يفتقدون البديل المتنور، فوجدوه فى شخص الإمام الشهيد وكلامه المؤثر، يشبع روحانيتهم ويحافظ فى الوقت ذاته على وعيهم، فلا يغرق فى الخدر الذى يسلب الشعور.. ووجدت من يُحيى آمالها فى عودة الإسلام إلى الوجود، بعد النكسة الحادة التى أصابت الناس بزوال الخلافة.. ووجدت من يرتفع بها عن ألوان الدنس التى كانت قد أخذت تلوث المجتمع، ويردها إلى المثل الرفيعة والأخلاق الفاضلة.. وكل ذلك دون أن يتعرضوا لأية مخاطر، ولا يبذلوا من الجهد أكثر من الحضور والاستماع!

ولكن هذه الجماهير التى جاءت بهذه السهولة ذهبت بالسهولة ذاتها حين بدت فى الأفق بوادر المخاطر! ذهبت ولم تعد! فما كان فى تقديرها قط أن حضورها واستماعها سيعرضها لأية مخاطر، ولا كانت مستعدة أى استعداد أن تعرّض نفسها للمخاطر.. ولو عرفت ذلك أو توقعته من مبدأ الأمر ما جاءت ولا فكرت فى المجىء!

لم يبق حول الإمام الشهيد إلا الذين رباهم على عينه، ووهب لهم طاقته الحقيقية وجهده الحقيقى..

هل كان كسبًا للدعوة مجىء هذه الجماهير الحاشدة التى فرت عند أول بوادر الخطر، أم كان أحد أسباب التعويق؟

سننظر فى هذا الأمر حين نستعرض ردود فعل الأعداء.. ولكن لنا هنا وقفة: ما الذى جعل الدعوة تتجه فى تلك الفترة الباكرة إلى الجماهير؟! إنه وَهْمٌ حسن النية، يحسن الظن بأحوال الناس، ويعتقد أن نقطة الخلل عندهم هى فساد السلوك، فإذا وعظوا بالقول المؤثر فقد انحلت المشكلة، واستقامت هذه الجماهير على طريق الإسلام، وأصبحت جنودًا مخلصة للدعوة، أو فى القليل خامات صالحة للتجنيد، فتتحرك بهم الدعوة نحو الهدف المنشود!

لم يتضح لأصحاب الدعوة فى مبدأ الأمر - كما اتضح لهم فيما بعد - أن الخلل ليس مقصوراً على فساد السلوك، ولكنه واصل كذلك إلى المفاهيم، وخاصة فيما

يتعلق بتحكيم شريعة الله ، وأن الأمر فى حاجة إلى جهد لتوصيل الحقيقة إلى الجماهير . . لقد اتضح ذلك فيما بعد[1] . . ولكن بعد ما كانت الدعوة قد قطعت شوطًا فى التوجه إلى «الجماهير» ، على أساس أنها صالحة ـ بالموعظة المؤثرة والشحن العاطفى ـ أن تكون جنوداً مخلصة للدعوة ، أو فى القليل خامات صالحة للتجنيد . . وبعد ما كان هذا التوجه إلى الجماهير ، وحشدها بهذه الصورة ، والتحرك بها على الساحة السياسية ، قد أثار ردود الفعل المتوقعة وغير المتوقعة عند الأعداء .

عندما تتحرك الجماهير تنزعج السلطات المحلية ، وحينما تكون الحركة إسلامية تنزعج السلطات المحلية والسلطات العالمية فى آن واحد . . وقد يكون انزعاج السلطات العالمية أشد! ولكى ندرك هذا الأمر على حقيقته ينبغى أن نقرأ صفحات من التاريخ .

فى القرنين الأخيرين ، كان قد ظهر جليًا أن أحوال العالم الإسلامى فى تدهور مستمر فى جميع المجالات . . فالدولة العثمانية التى كانت أوروبا تخشاها وترهبها ، قد أخذ سلطانها يتضاءل ويتقلص ، وبدأت روسيا القيصرية تعدو على أملاكها دون أن تستطيع الرد ، أو استرداد ما تفقده من الولايات ، وتمردت بلاد البلقان بتحريض الدول الأوروبية ، وتمردت الأقليات فى داخل العالم الإسلامى ، وبدأت الدولة تترنح تحت وقع الأحداث . . أما الأمة الإسلامية فلم تكن أحوالها أقل سوءًا ، فالتخلف يحيط بها من كل جانب ، والجهل والفقر ، والانغلاق على النفس ، والتبلد على الأحداث . . عندئذ رأت أوروبا أن الفرصة قد سنحت أخيراً للقضاء على عدوها القديم ، فاجتمعت وتآمرت ، وخططت للاستيلاء على العالم الإسلامى كله ، وإخضاعه للدول الأوروبية فيما سمى «بالاستعمار» ، ودخل مع

(١) أنشأ الإمام الشهيد عام ١٩٤٨ سلسلة مقالات بعنوان «معركة المصحف» بيّن فيها بوضوح أن أوضاع الأمة ليست إسلامية ، وأنها لا تكون إسلامية إلا حين تحكم شريعة الله دون غيرها من الشرائع . وهذا المعنى بهذا التحديد لم يكن واضحًا فى خط سير الدعوة الأول ، وكان بداية مرحلة جديدة من التوجيه . ولكن هذه السلسلة توقفت بسبب قيام حرب فلسطين ، ثم اغتيل الإمام الشهيد فى فبراير سنة ١٩٤٩ قبل أن يستوعب أتباعه الاتجاه الجديد .

أوروبا الصليبية عنصر جديد، هو اليهودية العالمية التى كانت تخطط لحسابها الخاص، ولكن فى تعاون كامل مع الصليبية، من أجل إنشاء وطن يهودى فى فلسطين.

وبعد رفض السلطان عبدالحميد مطالب اليهود بإقامة وطن لهم فى فلسطين، اتحدت تمامًا مصالح اليهودية العالمية مع مصالح الصليبية العالمية، فصار التخطيط واحدًا وإن كان كل فريق يسعى لتحقيق مصلحته الخاصة فى نهاية المطاف.. وكان التخطيط محكمًا فى كل اتجاه، وكان تنفيذه ميسرًا بالنسبة للصليبية الصهيونية، بسبب فقدان الأمة لوعيها الإسلامي، وعزيمتها الإسلامية التى أوصاها الله بها فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

وكان أخطر الأسلحة التى استخدمها الأعداء فى محاربة الإسلام ـ بعد أن استتب لهم الأمر عسكريًا وسياسيًا ـ هو الغزو الفكرى، الذى كان هدفه قتل روح المقاومة للغزو الصليبى الصهيونى، بالقضاء على مكمن العقيدة داخل القلوب، وتخريج أجيال تتقبل العبودية للغرب راضية بها، إن لم تكن مندفعة إليها مستعذبة إياها، ظانة ـ وهى تسعى إلى حتفها بظلفها ـ أنها متجهة فى طريق النجاة!

ولم يخف على الصليبية الصهيونية أن شعوب الأمة الإسلامية قد تستيقظ من غفوتها ذات يوم، وترفض التبعية المذلة للغرب، وتسعى إلى الاستقلال، فرتبت نفسها لهذا الأمر كذلك، ببذر اتجاهات وطنية وقومية، وإنشاء زعامات تتعلق بها الجماهير وتتحلق حولها، وهى مصنوعة على عين الاستعمار، وتوجيهه الخفى أو الظاهر، حتى إذا ما حدث ما يخشاه الغرب من ثورة ضد الاستعمار، كانت الثورة محدودة المطالب محدودة الأهداف، تطالب بالاستقلال العسكرى ـ إن قويت عليه ـ أو العسكرى والسياسى ـ ظاهرًا على الأقل ـ دون أن تفكر فى الاستقلال الفكرى والثقافى والروحى، فتظل التبعية للغرب قائمة فى واقع الأمر، من خلال الأنظمة الوطنية والقومية، و«الثورات التحررية»، والجماهير فى غفلتها تصفق وتطرب لما يُعْرَض أمام ناظريها من المسرحيات.

باختصار لقد كان الذى تخشاه الصليبية والصهيونية، وتسعى لمنعه بكل الوسائل، هو حدوث صحوة إسلامية، فهذه هى التى لا تفاهم معها، ولا التقاء فى منتصف الطريق. . والتى يعرف الأعداء جيداً مدى خطرها على مصالحهم: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٤٦).

وحين بدأت الحركة الإسلامية على يد الإمام الشهيد، كان العالم الصليبى والصهيونى يرقبها بتوجس ظاهر، ويحاول أن يتعرف على مدى خطورتها. كتب المستشرق البريطانى جب ـ والمستشرقون هم جهاز الاستخبارات الثقافى للصليبية الصهيونية ـ كتب كتاباً بعنوان: «الاتجاهات الحديثة فى الإسلام Modern Trends in Islam»، ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٣٦م، يتحدث فيه عن حركة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، ويتمدحها بحماسة ظاهرة، ولكنه عقّب فى أحد هوامش الكتاب بالتعقيب الآتى: «ظهرت بعد ذلك جماعة جديدة تسمى جماعة الإخوان المسلمين، يتزعمها رجل يسمى حسن البنا، ومن السابق لأوانه الحكم على هذه الجماعة، وإن كان من الظاهر أنها ذات خطورة خاصة».

وواضح فى هذا التعليق مدى التوجس، والرغبة فى سبر غور هذه الجماعة ذات الخطورة الخاصة!

كانت الخطورة الخاصة تتزايد بطبيعة الحال فى نظر الصليبية الصهيونية كلما تزايدت الجماهير الملتفة حول الدعوة الجديدة، التى تتحرك باسم الإسلام، ويتجمع الناس حولها باسم الإسلام. . ولكن الصليبية الصهيونية لم تكن تبينت بعد ما يجرى فى داخل الجماعة، من إعداد خطير غاية الخطورة، إعداد جنود للدعوة، مستعدين أن يموتوا فى سبيل الإسلام!

ولكن القنبلة انفجرت عام ١٩٤٨، وانفجرت فى أخطر موقع يمكن أن تنفجر فيه، وفى أخطر موعد يمكن أن تنفجر فيه: فى فلسطين، فى لحظة الإعداد لإنشاء الدولة اليهودية. .

وكان دوى الانفجار أعظم بكثير، وأخطر بكثير مما قدره أصحاب الدعوة فى ذلك الحين. .

أما كون أصحاب الدعوة يعرفون عداوة الصليبية الصهيونية للإسلام، ويعرفون توجسها منه، ورغبتها فى القضاء عليه، وكراهيتها لعودة الناس إليه، فأمر أوضح من أن يذكر؛ لأنه من بدهيات حس المسلم. فبحسب امرئ مسلم أن يقرأ فى كتاب الله هذه الآيات:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾(البقرة: ١٢٠) ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾. (آل عمران: ١٢٠). ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (المائدة: ٨٢). ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (البقرة: ١٠٩).

بحسبه أن يقرأ ذلك فى كتاب الله، ليعلم أن هذه العداوة قائمة وأنها لن تزول. . أما إدراك مدى هذه العداوة ومقدار كيدها، وتفاصيل ذلك الكيد، وموقعه من اللحظة القائمة، فأمر آخر مختلف. . والذى يظهر من مجرى الأحداث أن تقدير ذلك كله لم يكن دقيقا بالدرجة الكافية. .

لقد كان التخطيط اليهودى ـ تعاونه الصليبية بكل إمكاناتها ـ قد رتّب كل شىء يخطر على البال، تمهيداً لإقامة الدولة اليهودية. فمنذ رفض عبدالحميد العروض اليهودية المغرية مقابل السماح بإقامة وطن لليهود فى فلسطين، من رشوة شخصية لجيبه الخاص مقدارها خمسة ملايين من الجنيهات الاسترلينية الذهبية (تمثل وقتها ثروة بالغة الضخامة)، والوعد بالتدخل لدى روسيا وبريطانيا وفرنسا لكفها عن إثارة الأقليات، (وهى مشكلة الدولة السياسية)، والوعد بقروض طويلة الأجل لإنعاش الاقتصاد العثمانى المثقل بالديون، (وهى المشكلة الاقتصادية للدولة). . منذ رفض عبدالحميد هذه العروض المغرية، والملغومة فى ذات الوقت، فقد رسم اليهود مخططهم على سياسة طويلة الأجل، مقدارها خمسون سنة كما قرر هرتزل فى مؤتمره الصهيونى الذى أقامه فى مدينة بال بسويسرا، عام ١٨٩٧م.

عزلوا عبدالحميد، ورتبوا الحرب العالمية الأولى، لتجميع أوروبا الصليبية لقتال الدولة العثمانية والقضاء عليها، وكانوا يسمونها «الرجل المريض»، ثم قسموا تركة

الرجل المريض بعد القضاء عليه، بين بريطانيا وفرنسا صديقتي اليهود يومئذ (وحتى الآن بطبيعة الحال، مع تغير مركز الثقل من بريطانيا زعيمة «العالم الحر!» يومئذ إلى أمريكا زعيمته الحالية)، وجعلوا فلسطين ـ ميدان الصراع المقبل ـ تحت الانتداب البريطاني، للتمهيد لإقامة الدولة في ظل تصريح بلفور الذي قال: إن حكومة جلالة الملكة تنظر بعين العطف (!) إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. .

ولم يكتف التخطيط الماكر بهذا، بل قسّم البلاد المحيطة بفلسطين إلى دويلات ضعيفة متعادية متنابذة، لا وزن لها في عالم الحرب ولا عالم السياسة ولا عالم الاقتصاد، فضلاً عن نزاعات الحدود بين بعضها وبعض، وفضلاً عن نزعات الوطنية والقومية التي تفرق بين بعضها وبعض.

ولم يكتف الكيد الماكر بهذا، فالشباب في كل أمة طاقة خطرة إذا توجه توجهاً جاداً لأمر من الأمور الكبار، فينبغي صرفه بكل الوسائل عن الجد في أي أمر، وخاصة في الأمور التي يخشى من الجد فيها على مخططات الأعداء. . لذلك سلطت على الشباب كل وسائل التمييع، الذي تجعله يهتم بسفاسف الأمور وينصرف عن معاليها، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها»[1]. . سلطت عليه السينما والإذاعة والمسرح، (ولم يكن التلفزيون قد ظهر بعد، ولا كان اليهود قد بثوا بعد «جنون الكرة» على مستوى العالم كله)، وسلط عليه قضية «تحرير المرأة»، لتشغل الأولاد والبنات بعضهم ببعض في علاقات «بريئة!» أولاً، تتحول إلى علاقات غير بريئة بعد ذلك. . وسلّط عليه تعصبات السياسة الحزبية تأكل وقته وجهده واهتماماته، ليخرج في النهاية بغير شيء حقيقي، وتعصبات «الثقافة» ما بين مدارس الغرب المختلفة دون تحصيل ثقافي ذاتي، وتعصبات «الفن»، ما بين هذه المغنية وتلك، وبين هذا المغني وذاك، وكلها تفاهات!

ثم في الموعد المحدد، بعد خمسين سنة بالضبط من مؤتمر هرتزل، الذي أعلن فيه ضرورة إنشاء الدولة خلال خمسين عامًا، أعلنت الدولة، وقامت الحروب

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير.

المسرحية التى خاضتها الجيوش العربية ، بطريقة أقرب إلى الهذر منها إلى الجد ، كما قامت الخيانات ، وصفقات الأسلحة الفاسدة ، وتحركت الجيوش يمنة ويسرة لتقف فى النهاية عند خط التقسيم المتفق عليه سلفًا بين جميع الأطراف!

وهنا ، وفى أحرج لحظة بالنسبة لمخططات العدو ، انفجرت القنبلة ، وأحدثت دويّها المريع . .

دخل الفدائيون المسلمون ساحة المعركة ، واكتشف اليهود حقيقتهم ، واكتشفتها معهم الصليبية العالمية . .

كم كانت القنبلة خطيرة ، وكم كان دويها مريعًا على مستوى العالم كله! كانت أخطر بكثير مما قدرها أصحابها . .

حين اصطدم اليهود بالفدائيين الإسلاميين ، عرفوا على الفور أنهم نوعية مختلفة عن تلك الجيوش التى جاءت لتلعب دورها فى الحرب المسرحية . . إنهم أصحاب عقيدة جاءوا بدافع من عقيدتهم ، وجاءوا ليقاتلوا من أجل عقيدتهم ، وليموتوا من أجلها ، أسخياء بأرواحهم فى سبيل الله . . ذات العينة التى عرفوها من قبل فى التاريخ .

وأزعجهم الأمر وأذهلهم ، فما كانوا يتصورون قط أن هذه العينة من البشر يمكن أن تعود . . ومن مصر خاصة التى عمل فيها الغزو الفكرى من أيام الحملة الفرنسية ، ليخرجها من دينها ، بل يخرجها حتى من عروبتها ، تحت شعار (مصر للمصريين) ، الذى يعنى فى أطوائه أنه لا مجال فيه للعروبة ولا للإسلام . . وكان انزعاجهم حادًا ، فوق التصور ، فقد وصل الأمر بهم أن صيحة (الله أكبر ولله الحمد) كانت تفزعهم ، فيتركون مواقعهم ومؤنهم وذخيرتهم ، ويفرون طلبًا للنجاة . .

عندئذ وضح فى حسهم تمامًا أنه لا قيام لإسرائيل - فضلاً عن توسعها المرسوم فى المستقبل - إذا بقيت الحركة الإسلامية حية . . وأنه لابد من القضاء على الحركة الإسلامية لتعيش إسرائيل ، وتأمن وتستقر ، وتتوسع كما تشاء . وصدرت أوامر الصليبية الصهيونية بحل جماعة الإخوان المسلمين ، ثم قُتل قائدها ، وتوالت الأحداث .

لقد عوجلت الحركة بصورة عنيفة، أعنف مما كان متوقعًا بكثير . .

لم يكن أحد من القائمين بالدعوة يتوقع لها السلامة من الأذى، فذلك حسب السنة الجارية في حكم المستحيل، ولكن أحدًا لم يكن يتوقع أن يصل الأذى إلى هذا الحد الوحشي الذي وقع بالفعل . . أن يطلق الرصاص على قائد الجماعة في الشارع في وضح النهار، ثم ترفض المستشفيات إسعافه لينزف حتى الموت بأمر الدولة وتدبيرها، ويؤخذ ألوف من الشباب فيعذبوا في السجون بوحشية تعف عنها الوحوش . . كل ذلك لم يكن في الحسبان، ولم يكن أحد يتخيل أن يحدث.

ولا شيء بطبيعة الحال يمكن أن يبرر لتلك الوحوش البشرية وحشيتها، مهما حاولت أن تستر جرائمها بدعوى المحافظة على الأمن، أو القضاء على الفتنة، أو ما شابه ذلك من الدعاوى، التي لا تستر شيئًا في الدنيا، ويوم القيامة﴿ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (النور: ٢٥).

ولكنا نسأل من جانب آخر، هل كانت الحركة تسير على منهج صحيح، أم إنها تعجلت في حركتها قبل الأوان؟

ولا يحسبن أحد أن الحركة كانت ستهادَن لو أنها سلكت مسلكًا آخر . . فقد رأينا كيف كان رد الملأ حين عرض عليهم شعيب عليه السلام أن يصبروا حتى يحكم الله بينهم: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٧ ـ ٨٨).

كلا! لا يمكن أن تطيق الجاهلية دعوة لا إله إلا الله، ولا أن تهادنها أو تصبر عليها.

ولسنا نقول: إن الحركة لو استقامت على منهج صحيح كانت ستنجو من الأذى الذي يمكن أن يصل إلى حد التعذيب والقتل، فإن الجماعة الأولى التي رباها رسول الله ﷺ على عينه، وسارت على أعظم منهج يمكن لحركة أن تسير عليه، إذ كان

الوحى الربانى هو الذى يتولى توجيهها خطوة بخطوة، لم تسلم من الأذى، الذى وصل إلى حد التعذيب والتشريد والتجويع والقتل . . فليس السير على المنهج الصحيح مطلوبًا من أجل حماية الأشخاص القائمين بالدعوة! إنما هو مطلوب من أجل الدعوة ذاتها، من أجل أن تؤتى ثمارها كاملة، وتؤدى رسالتها على الوجه الأكمل.

عوجلت الحركة معاجلة عنيفة، ولما تستكمل بناء قاعدتها الصلبة على أساس متين . . لقد خرّجت فدائيين مخلصين مستعدين أن يموتوا فى سبيل الله، ويحتملوا الأذى فى شجاعة من أجل الدعوة إلى الله . . وخرّجت قومًا تربط بينهم أخوة فى الله، تعدل بل تفوق عندهم رابطة الدم . . وخرّجت قومًا نظيفى التعامل، لأنهم يخافون الله . . وخرّجت قومًا فيهم إيجابية وجلد على بذل الجهد . . وكلها صفات طيبة مطلوبة فى القاعدة، ولكنها ليست كل شيء، ولا تكفى وحدها لبناء القاعدة المطلوبة . . إنهم ليسوا مجرد أفراد يتطهرون لله، وينذرون أنفسهم لله.

إنهم دعوة . . تريد أن تنقذ أمة بأسرها مما هى واقعة فيه من الهوان والخسف، بسبب بعدها عن طريق الله، وهذا أمر يتطلب الكثير الكثير.

وسنتكلم عن التربية المطلوبة فى الفصل القادم، سواء منها ما كان مطلوبًا للقاعدة الصلبة، أو للجماهير التى تتحرك بها الدعوة . . ولكننا هنا ندرس أسباب التعجل، والآثار التى ترتبت عليه.

لقد استمرت الحركة فى توجهها الجماهيرى قبل استكمال بناء القاعدة، والتحرك بالجماهير قبل استكمال وعيها الإسلامى، والصدام مع السلطات فى معارك غير متكافئة . . وترتب على ذلك نتائج لا تخدم الدعوة فى كثير . . استمر الغبش حول قضية لا إله إلا الله، إن لم نقل : إنه زاد، بفعل ما اختلط بها من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية، قبل أن تتأصل فى قلوب الناس ـ الدعاة على الأقل ـ على أنها العبودية الخالصة لله أولاً، بصرف النظر عما يترتب عليها فى الحياة الدنيا من نتائج سياسية أو اقتصادية أواجتماعية . . ثم تكون هذه القضايا كلها حين يجيء دورها نابعة من لا إله إلا الله، ومرتبطة بها لا منفصلة عنها، ولا موازية لها، ولا مُقدَّمة عليها.

ولا ننسى هنا أن التعجل فى التحرك بالجماهير قبل أن تستكمل وعيها الإسلامى، إن لم نقل: قبل أن يتكون عندها وعى إسلامى، قد أزعج الأحزاب والكيانات العلمانية على «جماهيرها» التى تتسرب من بين يديها وتنضم للحركة الإسلامية، فوقفت تستدرج الحركة الإسلامية عن طريقها الأصيل، فى صورة تحد تواجهها به: أرونا أين برامجكم التى تنادون بها لتنتزعوا بها الشرعية منا، وتزعموها لأنفسكم؟ ومن ثم اندفعت الحركة الإسلامية تبحث عن برامج ترد بها على التحدى، ليصرفها ذلك عن تحرير قضيتها الأولى، قضية لا إله إلا الله.

إن قضية لا إله إلا الله ـ فى مرحلة التكوين بالذات ـ لا ترتبط فى حس أصحابها الذين يتربون على المنهج الصحيح، أى ارتباط بالنتائج التى تترتب عليها فى الحياة الدنيا، لا السلطان، ولا الاستقرار السياسى، ولا الوفرة الاقتصادية، ولا الهناءة الاجتماعية.. فقد لا يترتب عليها شىء من ذلك كله فى الحياة الدنيا؛ إنما قد يكون مصير أصحابها هو مصير سحرة فرعون الذين آمنوا، فكان نصيبهم القتل والصَّلْب، أو مصير أصحاب الأخدود، الذين آمنوا فكان نصيبهم الحرق بالنار أحياء عن بكرة أبيهم.. إنما كانوا مَثَلاً لمن بَعْدهم، وكان نصيبهم الذى رضيت به أنفسهم هو رضوان الله، وجنات عدن تجرى من تحتها الأنهار.

ولكن التعجل فى تجميع الجماهير، والتعجل فى التحرك بتلك الجماهير قبل أن تنضج، بل قبل أن تستكمل القاعدة ذاتها نضجها، هو الذى أدى إلى هذا الغبش المتزايد حول القضية الأساسية، وأصبح عماد الدعوة إلى الإسلام أن تطبيقه هو الذى سيحل جميع المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التى يعانى منها الناس اليوم، وبالتالى البحث عن «البرامج العملية» التى تواجه التحدى الذى يقدمه العلمانيون!

وكون الإسلام هو الحل، حقيقة ربانية، الله سبحانه وتعالى هو المتكفل بها بنفسه، وهو الواعد بها، ووعده الحق: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦).. أما أن هذا الحل سيتحقق بمجرد وصول الإسلاميين إلى الحكم، فأمر لا دليل له من كتاب الله، ولا من وقائع

التاريخ، فقد عاش المسلمون سنوات من الشظف الحاد بعد توليهم السلطة، وتأسيسهم الدولة الإسلامية التى تحكم بما أنزل الله، واستمر حتى أيام عمر رضى الله عنه، والناس صابرون على الشظف وعلى المشقات كلها، لأنهم مؤمنون، ولأنهم نذروا أنفسهم للدعوة، ولأنهم يرجون الآخرة، ولا ينظرون إلى شيء من متاع الحياة الدنيا، وهذا هو الذى حقق لهذه الدعوة أن ترسخ فى الأرض وتتمكن، وتمتد فى الآفاق.

ولو كان رسول الله ﷺ قد أغرى الجماهير بأنهم ـ إذا تسلم الإسلام السلطة ـ سيحلون كل مشاكلهم الأرضية، ويرفلون في النعيم، ما صبروا على شظف العيش الذى تلا تأسيس الدولة الإسلامية، واستمر بعد ذلك سنوات، ولا كانت تلك الحركة الباهرة التى غيرت وجه الأرض. وحين نوهم الناس ـ الذين لم تتمحض قلوبهم للا إله إلا الله ـ بأنهم إذا تسلم المسلمون السلطة سيحلون كل مشاكلهم فى التو واللحظة، ثم يستمر الإسلاميون فى الحكم سنوات والمشاكل لا تحل، بل تزداد حدة نتيجة اشتداد الصليبية الصهيونية فى الحرب، فهل سيصبر الناس، الذين لم يدخلوا من باب العبودية الخالصة لله، بل من باب المصالح الدنيوية؟ هل سيصبرون على الشظف والحرمان والجهاد المر، حتى يتحقق وعد الله فى أوانه المقدر عند الله، أم سينقلبون على الحكم الذى لم يحقق لهم ما جاءوا من أجله، وأدلوا من أجله بأصواتهم فى صناديق الانتخاب؟!

إنما تكون الدعوة أولاً وقبل كل شيء، لبيان واجب العباد نحو خالقهم، واجب العبودية الخالصة لله، والالتزام بما جاء من عند الله، بصرف النظر عما يترتب على إخلاص العبادة لله، فى الحياة الدنيا، من كسب أو خسارة بحساب الأرض، إنما هو الجزاء الأخروى، مع بيان أن الله وعد هذه الأمة بخاصة أن يحقق لها الاستخلاف والتمكين والتأمين فى الحياة الدنيا، ولكن بشرط واضح: أن يعبدوه وحده بلا شريك، ويخلصوا له العبادة، لا بمجرد أن يذهبوا إلى صناديق الانتخاب، ويحصلوا على أغلبية الأصوات، ثم يتولوا السلطة: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (النور : ٥٥).

ولا شك أن الدعوة ستمضى فى بطء شديد حين تكون على هذا الأساس، ولن تتجمع الجماهير بوفرة فى الزمن القصير، ولكن عندئذ يكون قد بدأ التمكين الصحيح بموجب المنهج الربانى، وبموجب السنن الربانية، ويتحقق قدر الله: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١).

* * *

ثم زاد الغبش مرة أخرى من جانبين اثنين: حين دخلت بعض فصائل الحركة فى صراعات دموية مع السلطة، وحين دخلت فصائل أخرى مجالس النواب!

لقد أدى انزعاج الصليبية الصهيونية من الحركة الإسلامية، بالإضافة إلى عوامل أخرى مصاحبة، إلى تغير حاد فى السياسة العالمية، ليس هنا مجال تفصيله، ولكن لابد من إشارة سريعة إلى ما يخص العالم الإسلامى منه.

لقد خرجت بريطانيا وفرنسا منهكتين من الحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، بينما خرجت أمريكا بعافيتها كاملة لم يصبها من دمار الحرب شيء يُذكر، وأغرى ذلك أمريكا أن تتزعم ما كان يسمى «العالم الحر»، وأن تطرد النفوذ البريطانى والفرنسى من أماكن سيطرته، وتحل هى محله على يد زعامات عميلة لأمريكا، تضفى عليها البطولات الزائفة، وتصوّر فى نظر الجماهير على أنها قاهرة الاستعمار، ومخلّصة الشعوب من شروره.. ولكن هذه اللعبة التى ربما بدت منطقية مع نتائج الحرب، كان لها هدف آخر خفى، تواطأت فيه الصليبية مع الصهيونية، ورتباه معًا، وهو ضرب الحركات الإسلامية فى المنطقة العربية بصفة خاصة، لتأمين إسرائيل، وإتاحة الفرصة لها لكى تستقر وتتمكن، وتتوسع فى الأرض الإسلامية كما تشاء، بعد ما بدا واضحًا من أن الضربة الأولى التى قتل فيها الإمام الشهيد، وعذب فيها من عُذِّب من الشباب، لم تكن قاضية، بل كانت كأنها زاد للحركة، زادها اشتعالاً وتوسعًا فى الآفاق.

ومن أجل هذا الهدف، اختير الزعماء المطلوبون بعناية . . اختيروا كلهم من العسكر! وليس كل العسكر صالحين لهذه المهمة الخطيرة، فلابد أن تتوافر فيهم شروط ثلاثة رئيسية، ولا بأس بعدها بأية إضافات: جنون السلطة، وقسوة القلب، وكراهية الإسلام. . احتذاء للنموذج الأول - المعتمد عندهم - كمال أتاتورك!

وحين توجد هذه الصفات في شخص معين، فسيتجه تلقائيًا لضرب الحركة الإسلامية، وبالعنف المطلوب! ومع ذلك فلم تكن الأمور تترك للمصادفة، وإنما كانت تدرس وتدبر للإيقاع بالحركات الإسلامية [1]، وقتل زعمائها وقادتها، واعتقال الألوف من شبابها، وتعذيبهم بألوان من الوحشية تقشعر لها الأبدان. . وهنا تبدو «الحكمة!» من اختيارهم من العسكر لا من المدنيين، فمع العسكر يمكن تسويغ كل شيء وتمريره، الأحكام العسكرية، والمحاكم العسكرية، وعنف البطش، وصرامة الإجراءات. . أما لو كانوا مدنيين فلن تكون لهم تلك الجرأة في الإجرام، ولا تلك القوة في الانتقام، ولا ذلك العنف، ولا ذلك الإرهاب.

ومضت المذابح تقام للمسلمين في كل بلد تولى العسكر فيه السلطة، ولا يمكن أن يكون ذلك بالمصادفة بطبيعة الحال! كان عن قصد وتخطيط وتدبير، وعرفت المنطقة أشكالاً من التعذيب الوحشي لا مثيل لها في التاريخ، إلا ما كان من محاكم التفتيش في الأندلس، التي كان هدفها القضاء الكامل على الإسلام. . وتوالت الضربات، فما تمر بضع سنوات - وأحيانًا بضعة شهور - حتى تكون قد أقيمت مذبحة هنا أو مذبحة هناك، تتجاوب أصداؤها في العالم كله، وترقص لها الصليبية الصهيونية طربًا، وتفرك أيديها سرورًا بنجاح (الأولاد) في أداء المهمة التي كلفتهم بها (الأم) الرءوم!

وتولد عن هذا الوضع المؤلم تياران في صفوف الحركة، مختلفان - بل متضادان - في الاتجاه، أحدهما تيار الشباب الذي استفزه ما يقوم به العسكر من إرهاب

---

(1) كما دبر حادث «المنشية» لعبدالناصر من أجل مذبحة ١٩٥٤ - ١٩٥٥ وغيرها وغيرها من الوقائع والأحداث.

وحشي، فقرر أنه لابد من الرد على العنف بالعنف، ظنًا منه أن المقاومة المسلحة ستقضي في النهاية على عنف العسكر، وتضطرهم - أو تضطر سادتهم - إلى تغيير الأسلوب.. والآخر تيار الشيوخ الذين أنهكهم توالي الضربات، فاختاروا طريق المسالمة إلى أقصى حد ممكن، وقرروا الدخول في لعبة «الديمقراطية»؛ لكي لا يُقال عنهم إنهم من أنصار العنف.. وكلا التيارين كان سببًا في مزيد من الغبش حول قضية لا إله إلا الله.

وبصرف النظر عن المبررات التي يقدمها كل فريق لتبرير مسلكه، فنحن هنا نتحدث عن الآثار التي نجمت عن التعجل في الحركة منذ البدء، والتي أضافت معوقات جديدة إلى المعوقات القائمة، أكثر مما كانت عونًا للحركة لكي تتقدم إلى الأمام، وإن بدت في نظر أصحابها خطوات إيجابية مفيدة للحركة، ومقرِّبة إلى الهدف المنشود.

إذا أخذنا في اعتبارنا أن وضع الدعوة الآن أقرب شيء إلى وضع الجماعة المسلمة في مكة، مع بعض الاختلاف، فإن اللجوء إلى العنف لا يخدم الدعوة، ويثير حولها من الغبش أكثر بكثير مما يوضح القضية ويبينها للناس، ولا ننسى أن بيان حقيقة القضية - قضية لا إله إلا الله - عنصر أساسي في الحركة كلها، سواء بالنسبة للقاعدة، أو بالنسبة للجماهير، وأنه لا يمكن إحراز تقدم حقيقي على مسار الدعوة، ما لم تتبلور هذه القضية تصوراً وسلوكًا في حس الناس.

وحين ندخل في معارك غير متكافئة مع السلطة، وقبل أن تحدد قضية «الشرعية» عند الناس، يحدث أمران معًا، كلاهما ضار بالحركة:

الأمر الأول: أن القضية تتحول - بعد فترة من الصراع تطول أو تقصر - إلى قضية ضارب ومضروب، وغالب ومغلوب، وتُنسى أو تُهَمَّش القضية الأساسية التي يدور حولها الصراع كله: قضية من المعبود على الحقيقة: آلله أم آلهة زائفة من دونه؟ وهي القضية التي تتضمن في أطوائها مجموعة من القضايا المنبثقة عنها، المترتبة عليها: قضية من المشرع: آلله، أم البشر؟ ومَن مُقرر القيم؟ ومَن مقرر المعايير؟ ومَن واضع المنهج للناس؟ تلك القضايا التي هي - منذ وضع البشر أقدامهم

على الأرض إلى قيام الساعة ـ موضع الصراع بين الجاهلية والإسلام، بين أهل الباطل وأهل الحق، وهي التي من أجلها أرسل الرسل، وأنزل الوحي، وأقيمت الجنة والنار!

والأمر الثاني: أننا نتيح فرصة هائلة للأنظمة المعادية للإسلام، أن تزعم للناس أنها لا تحارب الإسلام، وإنما تحارب الإرهاب الذي لا يقره الإسلام، وتصدقها الجماهير بعد فترة تقصر أو تطول! وفي ذلك خسارة مؤكدة للدعوة؛ لأنها تغطي الموقف الحقيقي لهذه الأنظمة، وتؤخر في حس الناس تبلور قضية الشرعية، وهي من القضايا الرئيسية التي يتوقف عليها في النهاية مصير الصراع بين الجاهلية والإسلام.

وكذلك حين ندخل في لعبة (الديمقراطية)، فإننا نخسر كثيراً في قضية لا إله إلا الله..

أول ما نخسره هو تحويل قضية الإلزام إلى قضية خيار تختاره الجماهير، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

إن قضية عبادة الله وحده بلا شريك، وهي قضية لا إله إلا الله، معناها أن يكون الله هو المعبود في الاعتقاد، وهو المعبود في الشعائر التعبدية، وهو المشرّع، وهو مقرر القيم والمعايير، وهو واضع منهج الحياة للناس.. وهي قضية إلزام لا خيار فيها للمسلم ما دام مقراً بالإسلام، بل هي قضية إلزام لكل من نطق بلسانه لا إله إلا الله، ولو كان في دخيلة قلبه منافقاً كارهاً للإسلام، فإنه إن أعرض عن شريعة الله، فإنه يؤخذ بإقراره اللساني، ثم يعتبر مرتداً عن الإسلام: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (النور: ٤٧ـ٤٨). ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

وحين ندخل فى لعبة الديمقراطية ، فأول ما نفعله هو تحويل هذا الإلزام الربانى إلى قضية يُستفتى فيها الناس ، وتؤخذ عليها الأصوات بالموافقة أو الرفض ، مع إتاحة الفرصة لمن شاء أن يقول : إنكم أقلية ، والأقلية لا يجوز لها أن تفرض رأيها على الأغلبية . . وإذن فهى مسألة رأى ، وليست مسألة إلزام ، مسألة تنتظر أن يصل عدد أصوات الموافقين عليها مبلغًا معينًا حتى تتقرر .

وبصرف النظر عما فعلته الجاهلية فى الجزائر ، حين وصلت الأصوات إلى المبلغ المطلوب ـ وهو درس ينبغى ألا يَغْفُل عن دلالته أحد ممن ينادون باتباع هذا الطريق ـ فإن القضية يجب أن تتحدد على أساس آخر مختلف . . إن تحكيم الشريعة إلزام ربانى ، لا علاقة له بعدد الأصوات ، ولا يُخيَّر الناس بشأنه ، هل يقبلونه أم يرفضونه ، لأنهم لا يملكون أن يرفضوه ثم يظلوا مسلمين !

وفرق بين أن تكون إقامة الإسلام فى الأرض متوقفة ـ بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى ـ على وجود قاعدة مؤمنة ذات حجم معين ، تملك تحقيق هذا الإلزام الربانى فى عالم الواقع ، وبين أن يكون الإلزام ذاته موضع نظر ! وموضع استفتاء ! سواء استطعنا تحقيقه فى عالم الواقع ، أم لم نستطع لضعفنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس ، كما كان حال المسلمين فى مكة . . ويجب أن تقدمه الدعوة للناس على هذا الأساس : أنه إلزام ربانى ، وأن الناكل عنه مرتد فى حكم الله ، وأن جميع الناس مطالبون بتحقيقه ، حكامًا ومحكومين ، سواء وجدت هيئة أو جماعة تطالب به أم لم توجد ؛ لأنه ليس متوقفًا على مطالبة أحد من البشر ، بعد أن طلبه رب العالمين من عباده بصيغة الأمر الملزم .

وهذا المعنى يختفى تمامًا فى حس الناس ـ أو فى القليل يفقد شحنته الفاعلة ـ حين ندخل فى لعبة الديمقراطية ، التى تقرر من حيث المبدأ أنه لا إلزام لشىء إلا ما تقرره غالبية الأصوات .

والخسارة الثانية التى نقع فيها حين ندخل فى لعبة الديمقراطية ، هى تمييع قضية الشرعية ، فالشرعية فى الديمقراطية هى لمن يأخذ أغلبية الأصوات ، وهذا ليس هو المعيار الربانى ؛ إنما المعيار الربانى ـ كما ذكرنا فى فصل سابق ـ هو تحكيم شريعة الله ،

ومن أعرض عن تحكيم شريعة الله فلا شرعية له فى دين الله، ولو حصل على كل الأصوات لا غالبيتها فحسب، وهنا مفرق طريق حاد بين الإسلام وبين الديمقراطية.

وحين ندخل فى لعبة الديمقراطية فلابد أن نقر بشرعية من يأخذ غالبية الأصوات، ولو كان لا يحكّم شريعة الله، لأن هذا هو قانون اللعبة، والذى لا نملك مخالفته، وعندئذ نقع فى محظور عقدى، وهو إعطاء الشرعية لأمر قال الله عنه إنه كفر، وهو التشريع بغير ما أنزل الله.

ومهما قلنا فى سرنا وعلننا: إننا لا نوافق على التشريع بغير ما أنزل الله، فإنه يلزمنا أن نخضع لقانون اللعبة، مادمنا قد ارتضينا أن نلعبها، بل طالبنا فى كثير من الأحايين أن يُسمَحَ لنا باللعب فيها، واحتججنا حينما حُرمنا من هذا الحق..

ولم يَفُت أعداءنا أن يستغلوا وقوعنا فى ورطة الديمقراطية ليحرجونا، ويشتدوا فى إحراجنا، فقالوا لنا: ما موقفكم إذا دخلتم الانتخابات ولم تنجحوا، ونجح غيركم ممن لا يحكّم الشريعة؟ فقلنا ـ ويالعجب ـ: نحترم رأى الأمة!! فسألونا: إذا كنتم فى الحكم ثم رغبت الأمة عنكم، وأعطت الأصوات لغيركم، فقلنا ـ ويالعجب ـ: نخضع لقرار الأمة!أولو كان قرار الأمة مناقضاً لما قرره الله؟!

أى تمييع لقضية لا إله إلا الله وقضية الشرعية أشد من ذلك؟

ومع ذلك فمادمنا قد دخلنا اللعبة فلا مناص لنا من أن نقبل قانونها، لأن هذا هو مقتضى المنطق. إنما يحق لنا أن نرفض القانون حين لا نشارك فى اللعبة أصلاً، فنكون منطقيين مع أنفسنا ومع الناس حين نقول لهم: إننا لم نشارك فى اللعبة لأن قانونها مخالف لما قرره الله وألزم به عباده..

وبطبيعة الحال، فإننا حين نقول ذلك فسيقول عنا أعداؤنا: أنتم لستم ديمقراطيين، أنتم أعداء الديمقراطية، ونقول لهم: قولوا ما شئتم، فلن نقبل نظام حكم يعطى البشر ابتداءً حق التشريع بما يخالف شرع الله؛ لأننا إن قبلنا ذلك لا نكون مسلمين! والذى أنزله الله علينا هو الإسلام وليس الديمقراطية، والذى ألزمنا الله به هو الإسلام وليس الديمقراطية، والذى يحاسبنا الله عليه يوم القيامة هو

الإسلام وليس الديمقراطية: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: ١٩).
﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وفى الإسلام شورى، ولكن الشورى ليست هى الديمقراطية، فالشورى هى فى الطريقة الصحيحة لتطبيق النص، وفيما يجتهد فيه المسلمون فيما ليس فيه نص[1].. أما الديمقراطية فهى تجعل الحاكمية ابتداءً فى يد البشر، ولا توافق على اعتبارها حق الله وحده بلا شريك! وما أبعد الشقة بين ديمقراطيتهم وشورى الإسلام: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠).

ولو لم يكن فى دخولنا لعبة الديمقراطية من خسارة، إلا تمييع قضية لا إله إلا الله وقضية الشرعية، لكان هذا كافيًا لتجنب الخوض فى اللعبة، أيا تكن الفوائد الجزئية التى يمكن أن تتحقق من دخولنا البرلمانات، والتى نخسرها حين نمتنع من الدخول فيها.. وقد حرّم الله الخمر والميسر مع أن فيهما - بصريح القرآن - منافع للناس؛ وإنما حرمهما كما صرحت الآية الكريمة، لأن إثمهما أكبر من نفعهما: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩).

وهذه قاعدة فقهية نهتدى بها فيما ليس فيه نص، وقضية البرلمانات والدخول فيها ليس فيها نص، ولكن التدبر الواعى للقضية يصل بنا إلى أن تمييع قضية لا إله إلا الله ومقتضياتها، وتمييع قضية الشرعية، يؤثر تأثيرًا عكسيًا على الدعوة؛ لأنه يشتت وعى الجماهير بهاتين القضيتين الرئيسيتين من قضايا الدعوة، وهما: أن تحكيم شريعة الله إلزام ربانى لا يُستفتى فيه الناس، وليس منشأ الإلزام فيه أن يرضى عنه أكثرية الناس، أو لا يرضوا، إنما منشأ الإلزام فيه هو كوننا مسلمين، بل هو مجرد زعمنا أننا مسلمون.. وأن الشرعية فى دين الله لا علاقة لها بعدد الأصوات التى ينالها فلان أو فلان، فإنما يتعلق عدد الأصوات بشخص الحاكم الذى تختاره

---

(١) حدود الاجتهاد معروفة فى الفقة الإسلامى وهى ألا تحرم حلالا ولا تحل حراما ولا تصادم مقاصد الشريعة، ومجالها واسع جدا يشمل كل ما يجدّ فى حياة الأمة من أمور، ولكنه منضبط بضوابط الشريعة.

الأمة ليطبق شريعة الله ، لا بنوع الحكم الذى يزاوله الحاكم ، والذى لا خيار فيه لأحد من الناس ، حكامًا كانوا أو محكومين ، بعد أمر الله الملزم بتطبيق الشريعة ، وحكم الله الصريح بنفى الإيمان البتة عمن يُعرض عن شريعة الله : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك ﴾ (النساء : ٦٥) . ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ (النور : ٤٧) .

* * *

هذه قضايا رئيسية من قضايا الدعوة ، وما لم تع الجماهير جيدًا هذه القضايا ، وتؤمن بها إيمانًا راسخًا ، فلن تتوفر القاعدة الجماهيرية الصحيحة ، التى يمكن أن يقوم عليها حكم إسلامى ، فالجاهلية العالمية كلها واقفة بالمرصاد لتمنع تحقيق هذا الحكم فى واقع الأرض ، ولابد من إيمان واع وراسخ يقاوم الضغط العالمى كله ، ويصمد إزاءه ، وكل غبش نحدثه حول هذه القضايا هو فى الحقيقة تعويق للدعوة ، وإن ظننا أنه يقرب الطريق .

* * *

تلك خلاصة سريعة للأسباب التى أدت إلى تعجل الحركة المعاصرة فى تحركها ، والنتائج التى ترتبت على هذا التعجل ، والتى من شأنها أن نراجع حساباتنا ونحاول التصحيح .

وفى الفصول القادمة سنتحدث عن التربية المطلوبة ، سواء للقاعدة الصلبة التى تحمل مسئولية الدعوة ، أو للقاعدة الجماهيرية التى لابد من إنشائها لتتم الحركة فى واقع الأرض ، وتصل إلى أهدافها بعون الله ، مسترشدين فى حديثنا بخطوات المنهج النبوى فى الدعوة ، والذى كانت نقطة البدء فيه هى إقامة القاعدة الصلبة التى تحمل البناء .

القاعدة الصلبة

غنى عن البيان أن كل رسول هو عنوان رسالته، وهو النموذج الذى يفترض فى أتباعه أن يتبعوه، وأن يحققوا فى ذوات أنفسهم ما وسعهم أن يحققوه من الاقتداء به فى أقواله وأفعاله، وتنفيذ ما أمرهم به، وما نهاهم عنه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤). ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر: ٧). ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (الأحزاب: ٢١).

«.. فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[١].

وغنى عن البيان كذلك، أن الرسالة الخاتمة كانت رسالة فذة بين الرسالات جميعًا؛ لأنها الرسالة التى اكتمل بها الدين، والموجهة للبشرية كافة لا لقوم بأعيانهم كما كان شأن الرسالات السابقة، ولأنها الرسالة التى أنزلت لتحكم بشمولها كافة حياة الناس من جميع جوانبها، وترسم منهج الحياة الكامل للبشرية من لدن مبعثه ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ (المائدة: ٣). ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨). ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ (المائدة: ٤٨).

وكان هذا كله ـ فى تقدير الله ـ هو المناسب لختم الرسالة، وبعث النبى الخاتم عليه

---

(١) أخرجه البخارى.

الصلاة والسلام: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...﴾ (الأحزاب: ٤٠).

«لا نبي بعدي»[1].

كان من المناسب مع ختم الرسالة، أن تكون الرسالة الخاتمة شاملة لكل ما يحتاج الناس إليه في وقتها الذي نزلت فيه، وفي المستقبل الذي يكون من بعد إلى قيام الساعة؛ بحيث لا يضلون بعدها إن تمسكوا بها، ولا يحتاجون لغيرها في تدبير شئونهم[2]: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وسنتي»[3].

وكان طبيعيًا ـ والرسالة الخاتمة على هذه الصورة ـ أن يكون الرسول الخاتم ﷺ أعظم رسول بين الرسل، وأعظم من أقلّت الأرض.. ولا نبعد عن الحقيقة كذلك إن قلنا: إن الرجال الذين ربّاهم الرسول ﷺ كانوا ـ بعد الرسل الكرام صلوات الله عليهم ـ أعظم رجالات التاريخ.

نستطيع أن نقول بصفة عامة: إن القيم والمبادئ التي يشتمل عليها منهج التربية المستخدم ذات تأثير كبير فيمن يتربون عليها، وإنه على قدر عظمة هذه القيم والمبادئ يكون مستوى المتلقين من الصفات الحميدة والأخلاق العالية.. كما نقول من جانب آخر إن شخصية المربي ذات تأثير كبير فيمن يتلقون عنه، وإنه على قدر عظمة المربي يكون مستوى المتلقين عنه من الرفعة وكرم الشمائل.. ونقول من جهة ثالثة: إن استعداد الفطر التي تتلقى من المربي له تأثير كبير في المستوى الذي يمكن أن يصل إليه المتلقون من الرفعة، على قدر ما يكون في هذه الفطر من السلامة والبعد عن الأمراض.. فإذا أخذنا في اعتبارنا هذه العناصر الثلاثة، أمكننا أن نكوّن فكرة عن الأسس التي قامت عليها القاعدة الصلبة التي أنشأها رسول الله ﷺ، وعن نوعية هذه القاعدة التي غيّرت وجه التاريخ.

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) تجدّ في حياة الناس أمور جديدة على الدوام، وما كان هذا غائبا عن علم الله وهو ينزل رسالته، ولكنه أودع شريعته ما تواجه به الجديد كله وتستوعبه وتهيمن عليه. وقد فصل الفقهاء والأصوليون هذه الأمور تفصيلا وافيا يطلب في كتبهم لمن شاء.

(٣) أخرجه الشيخان.

فأما المبادئ فيكفي أن يكون منطلقها وأساسها الأول هو التوحيد، هو «لا إله إلا الله»، والتوحيد هو الذى أنشأ هذه الأمة، وأخرجها إلى الوجود خير أمة أخرجت للناس: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠). ولكن الخيرية الناشئة من التوحيد لا تتمثل فى أحد ولا فى شيء، كما تتمثل فى تلك القاعدة التى ربّاها رسول الله ﷺ على عينه، فى فترة التربية فى مكة، ثم بعد ذلك فى المدينة. .

التوحيد ـ فى حقيقته المنزلة من عند الله، والتى استوعبها قلب رسول الله ﷺ، وربّى عليها أصحابه ـ هو أعظم ما فى هذا الوجود من حقيقة، وهو أعظم ما فى حقيقة الوجود من مؤثر فى بنية الكون وبناء النفوس:

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران: ٢).

الكون عابد بفطرته، والإنسان عابد بفطرته، ولكن السموات والأرض أتت إلى الله طائعة مستسلمة، وبقى الإنسان، بعضه يستسلم، وبعضه يستكبر وينأى بجانبه: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحج: ١٨).

والأصل فى فطرة الناس هو التوحيد: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠). ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

«كُلُّ مولود يولد على الفطرة»[١].

«إنى خلقتُ عبادى حنفاء كلهم»[٢].

---

(١) أخرجه البخارى. (٢) أخرجه مسلم.

ولكن الله من فضله وكرمه لم يشأ أن يقهر الإنسان على التوحيد كما تخضع الكائنات الأخرى بالقهر، بل كرمه وفضله: ﴿ ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ في البَرِّ والبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٠).

ومن آيات هذا التكريم حرية الاختيار: ﴿ ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٧ ـ ١٠).

ومع أن هذه الحرية تكريم رباني تفضل الله به على الإنسان، فإن بعض الفطر تنتكس مستخدمة حريتها في عصيان الله والاستكبار عن عبادته، بدلاً من أن تختار الهدى وتستقيم عليه، فيصبح في الناس مؤمن وكافر: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ومِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ (التغابن: ٢).

فأما الذين آمنوا فهم الذين استقاموا على الفطرة السوية، وعلى قدر صدق إيمانهم ورسوخه وقوته يكون ارتفاعهم في مدارج السالكين لتحقيق الغاية العظمى التي خلق الله الخلق من أجلها: ﴿ ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ماذا يفعل التوحيد في النفوس؟

أرأيت إلى قطعة الحديد حين يمرر فيها تيار كهربي أو يمرر عليها مغناطيس.. ماذا يحدث في كيانها؟ يحدث ـ كما يقول علم الفيزياء ـ أن يعاد ترتيب ذراتها على نسق معين، فيصبح لها قوة كهربية مغناطيسية لم تكن لها من قبل، وتصبح طاقة محركة بعد أن كانت ساكنة لا تتحرك ولا تحرك..

أين كانت هذه الطاقة في كيانها؟ كانت مبعثرة مشتتة، فلم تكن تظهر ولم تكن تعمل، فلم يكن لها وجود واقعي مشهود.. والآن تجمعت على نسق معين، فظهرت، وعملت، وصار لها آثار مشهودة في عالم الواقع..

شبيه بذلك ما يحدث في نفوس البشر حين تخالطها بشاشة الإسلام، حين تعرف التوحيد، حين تؤمن بلا إله إلا الله.. تتجمع النفس من شتاتها وتتحدد وجهتها.

ولكن، فلنقف لحظة لنسأل: ما الذى يحدث الشتات فى النفوس؟ أو هكذا النفس بطبيعتها؟ أم إنها هكذا تصبح حين تترك بلا رعاية ولا عناية ولا توجيه؟ حين لا يقوم الإنسان «بالتزكية» المطلوبة منه تجاه نفسه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس ٩ ـ ١٠).

يحدث الشتات من اتّباع آلهة شتى.. ويحدث من ضغط الشهوات.. ويحدث من عدم اتخاذ هدف محدد فى الحياة.. تلك ـ على الأقل ـ ثلاثة أسباب رئيسية تُحدث الشتات فى النفوس، فيجىء الإيمان فيُجْليها، فتتجمع النفس من شتاتها وضياعها، وتصبح طاقة هائلة تتحرك وتُحرك.

فأما إنسان الجاهلية العربية، فقد كان يعبد آلهة شتى بعضها ظاهر كالأصنام، وبعضها خفى كالقبيلة وعُرف الآباء والأجداد..

فأما الأصنام فالحديث عنها مستفيض، حتى ليحسب الإنسان لأول وهلة أنها وحدها كانت هى الآلهة المعبودة من دون الله فى الجاهلية العربية، ولكن الذى يُنعم النظر يتبين أنها لم تكن وحدها المعبودة من دون الله، فانظر إلى الشاعر [1] الذى يقول:

وهل أنا إلا من غـزية إنْ غَوَتْ غويتُ وإن تَرشدْ غزية أرشد

فما عبادة الاتّباع إن لم تكن هذه؟ يعرف أن قبيلته غاوية ثم يتبعها ـ على علم بغوايتها ـ لأنها فى حسّه ربٌ معبود، لا تجوز مخالفته فى الرشد ولا فى الغىّ!

وكان عُرف الآباء والأجداد ربًا معبوداً من دون الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

عُرف الآباء والأجداد، الذى يجعل أبا طالب يُحْجم عن الإسلام ـ على كل حبّه لابن أخيه ﷺ، وكل حدبه ورعايته، وكل حمايته له من كفار قريش ـ لكى لا يُقال عنه إنه خالف عُرف الآباء والأجداد! فأى عبودية أشد من هذه العبودية؟

---

(١) هو دريد بن الصمة.

أما إنسان الجاهلية المعاصرة، فيعبد أربابًا أكثر عددًا وأشد خفاء من أرباب الجاهلية العربية . . (فالمصلحة القومية) بديل من القبيلة العربية القديمة، أكبر وأخطر، وأشد استيلاء على نفوس أتباعها . . (والرأى العام العالمى) بديل من عُرف الآباء والأجداد، أكبر وأخطر، وأعنف تأثيرًا على «المستضعفين» خاصة فى كل الأرض، بينما هو صناعة مصنوعة على يد الشياطين الذين يحكمون الأرض، من وراء ستار أو بلا أستار . . (والتقدم) إله . . (والعلم) إله . . (والعلمانية) إله . . (والإنتاج) إله . . (والحرية الشخصية) إله . . .

وناهيك عن الشهوات!

إنها فى القديم والحديث أرباب معبودة من دون الله . . أرباب تهلك عبّادها وتسلمهم إلى البوار . .

إنها فى وضعها الطبيعى فى صميم الفطرة، غذاء ضرورى للنفس البشرية، لكى تقوم بنشاطها الطبيعى فى عمارة الأرض، التى هى جزء من مهمة الخلافة التى خلق الله لها الإنسان: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠). ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١). ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (آل عمران: ١٤).

ولكنها كما تكون غذاءً صالحًا مفيدًا تكون سمًا مهلكًا حين تتجاوز الحد . . كالغذاء الجسدى سواء بسواء . . فالجسم ـ لكى يقوم بنشاطه الطبيعى ـ يحتاج إلى قدر من البروتينات والنشويات والأملاح والفيتامينات، ولكنك إذا تجاوزت المقدار المناسب فى أى منها، يحدث خلل فى وظائف الجسم، فلا يعود يتمثل الغذاء تمثلاً صحيحًا، ولا يعود قادرًا على بذل النشاط الطبيعى الذى يفترض أن يبذله، وتبدأ الأمراض . . والنفس كذلك، تحتاج إلى هذه الشهوات أو «الدوافع» لتتحرك حركتها الطبيعية، التى يفترض أن تقوم بها فى الحياة الدنيا، ولكنها إذا اتبعت إغراء هذه الشهوات ـ وهى لكونها محببة ومزينة تغرى بالمزيد ـ فإن نظامها يختل،

فتفسد، وتعجز عن القيام بالنشاط السوى، وإن قامت بألوان من النشاط المنحرف، كما تختل الخلية السوية حين يصيبها السرطان.. تنشط، ولكنه النشاط المؤدى إلى الدمار.

وهنا نقطة «الابتلاء» الذى يعرض للإنسان في حياته، والذى هو هدف من أهداف خلقه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: ٢). ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الكهف: ٧).

فموضوع الابتلاء هو الطريقة التى يتناول بها الإنسان متاع الأرض.. هل يقف فيه عند الحدود المأمونة التى قدرها الله - وهو اللطيف الخبير الذى يعلم مَن خلَق، ويعلم ما يصلحه وما يصلح له - أم يسرف ويتجاوز الحدود، فينقلب المتاع سمًا مهلكًا يضر أكثر مما ينفع، أو يضر ولا ينفع؟: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤). ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴾ (البقرة: ٢١٩). ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾ (البقرة: ١٨٧).

ولقد كان إنسان الجاهلية العربية غارقًا فى الشهوات، يعبُّ منها بمقدار ما يتيح له وضعه الاجتماعى، ووضعه الاقتصادى، لا يرى فى ذلك بأسًا، بل يراها فخرًا وكرامة! ويسوغها بمنطقه المعتل:

يقول طرفة بن العبد:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى	وجدِّك لم أحفل متى قام عوّدى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة	كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تزبد
وكرّى إذا نادى المضاف محنّبا	كسيد الغضا - نبهته - المتورد
وتقصير يوم الدجن، والدجن معجب	ببهكنة تحت الطراف المعمد

فيذكر الخمر والنساء والحرب، وذلك بعد أن قال قبلها:

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى	وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟

فمادام الخلود مستحيلاً ـ في واقع الحياة الدنيا ـ «فالمنطق» في الجاهلية أن يعب الإنسان من الشهوات بقدر ما يستطيع، لأنها فرصة واحدة، إن ضاعت لا تعود.

أما إنسان الجاهلية المعاصرة، فالشهوات في حياته هي الأصل الذي يعيش من أجله، وإن كان يعمل وينتج فمن أجل أن يحصل على الوسيلة التي تتيح له أكبر قدر من المتاع! يستوي في ذلك من كانت شهوته هي السلطة فيعمل على اكتسابها، أو شهوته هي المُلْك فيعمل على اكتسابه، أو شهوته هي الجنس ولذائذ الحس، وهي التي جعلتها الجاهلية المعاصرة سعاراً محموماً للصغير والكبير، والعاقل والمجنون، والرجل والمرأة على السواء!

أما الهدف فلا هدف في الجاهلية أبعد من الحياة الدنيا، وما فيها من المتاع المتاح: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤). ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٧). ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (النجم: ٢٩ـ ٣٠). ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم: ٧).

وحين ينحصر الإنسان في الحياة الدنيا وأهدافها القريبة ـ مهما بدت بعيدة ـ فإنه يفقد كثيراً من كيانه الذي خلقه الله له، حين خلقه من قبضة من طين الأرض، ونفخ فيه من روحه.. يفقد القيم العليا، التي هي القوام الحقيقي للإنسان: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص ٧١ـ ٧٢).

فأما إنسان الجاهلية العربية فقد كان أبعد همه هو القبيلة وما يدور حولها من أحداث وأحاديث، لذلك كان حفظ الأنساب والفخر والهجاء، وأخبار المعارك، والكر والفر، هي عالمه الذي يعيش فيه، ويعيش من أجله، ويقول فيه الشعراء شعرهم، ويكون هو سمرهم في منتدياتهم، وموضع تنافسهم فيما بينهم.. إلى جانب ما يمارسونه من تكاثر في الأموال والأولاد، وما يمارسونه من الشهوات.

وأما إنسان الجاهلية المعاصرة، فهو أشد ضلالاً وانحصاراً في الحياة الدنيا وعالم الحس، وأشد بُعداً عن القيم العليا وتكاليفها، لتكالبه على المتاع الحسّي، ولأن صانعي هذه الجاهلية حريصون على إبعاده إبعاداً كاملاً عن كل قيمة إنسانية، ترفع الإنسان عن محيط الحيوان، لذلك تفننوا في تزيين الأرض، وتزيين المتاع الدنس بكل وسيلة تخطر - أو لا تخطر - على البال.

وفي الجاهليات كلها - قديمها وحديثها - حين ينحصر الناس في الحياة الدنيا ولا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والجزاء، تبدو الحياة في نظرهم عبثًا لا معنى له، ولا قيمة للقيم فيه، إلا بمقدار ما تخدم شهوات الإنسان ومصالحه في عمره المحدود، وتنتاب الإنسان الحيرة التي عبّر عنها الشاعر الجاهلي المعاصر (إيليا أبو ماضي) في هذه الأبيات:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت!

ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت!

وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أو أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري!

ولهذا كانت الخمر دائمًا جزءاً من الجاهلية، لأنها وسيلة للهروب من الشعور بعبثية الحياة، وهو شعور ثقيل على النفس، كما يغرق الناس في اللهو، لقتل الوقت الذي يظل فارغًا وثقيلاً، حين يفرغ الناس من صراعاتهم الهابطة ومصالحهم القريبة، ويبحثون عن هدف يملأ الفراغ فلا يجدون.

في الجاهلية العربية كانت الخمر ومجالس الشراب وألعاب الميسر وسيلتهم الكبرى للهروب.. وفي الجاهلية المعاصرة صارت المخدرات إلى جانب الخمر، وصارت المراقص ودور اللهو ونوادي القمار.. وفي الجانب الآخر صار القلق النفسي والأمراض العصبية، والانتحار والجنون، حين لا تفلح الوسائل كلها في رفع الشعور بعبثية الحياة عن كاهل الحس.

* * *

تلك كلها أسباب وراء الشتات الذى يصيب النفس البشرية فى الجاهلية، والإيمان هو الذى يجمّع النفس من الشتات . .

الإيمان معناه ابتداءً: الاعتقاد بأنه إله واحد لا إله غيره . . وأن كل الآلهة الأخرى وكل الأرباب، وكل المعبودات من دون الله، وَهْمٌ لا حقيقة له، ولا وجود له إلا فى ظنون أصحابه، وهى ظنون لا تغنى من الحق شيئًا . . ومعناه أنه لا معبود بحق إلا الله، لأنه لا إله فى الحقيقة غيره، فكل عبادة موجهة إلى غيره فهى باطلة من أساسها، لأنها موجهة لمن لا ألوهية له فى الحقيقة . . ومعناه الالتزام بما جاء من عند الله، لأنه لا يستقيم فى الحس أن يكون هو المعبود الحقيق بالعبادة وحده، ثم يُطاع غيره فى معصيته! ومعناه فى نهاية الأمر أن الله هو المشرّع، هو الذى يحدد الحلال والحرام، والحسن والقبيح، والمباح وغير المباح، وهو الذى يضع الحدود التى يمارس الناس فيها متاع الحياة الدنيا، وهو الذى يضع للناس منهج الحياة، ويحدد لهم ما يعيشون له من أهداف.

ومن شأن هذا الإيمان ألا يبقى سببًا من أسباب الشتات التى يتطرق بها إلى النفوس . .

حين يتوحد الإله المعبود تنتهى من الحس تمامًا كل الآلهة المزعومة، التى تشتت النفس فى اتّباعها، ولكل منها مطالب، ولكل منها نزعات أو شطحات لا تلتقى فى اتجاه واحدٍ، فتتوزع النفس بينها، وكل إله منها لا يمارس ألوهيته إلا على حساب إله آخر: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٩).

وحين يتوحد الإله المعبود تنضبط الشهوات فى حدودها التى حددها الله، فتصبح غذاءً صالحًا للنفس، ولا تعود سمًا مهلكًا، ولا هَمًّا مقعدًا مقيمًا، لا يرتوى ولا يشبع، ولا يدع للنفس فرصة للسكينة والهدوء . .

وحين يتوحد الإله المعبود يتحدد الهدف الذى ينظم فى داخله كل الأهداف، وتتحدد القيم التى تحقق الأهداف. وتذهب عن الحياة عبثيتها، حين يؤمن الإنسان بالبعث والنشور، والحساب والجزاء.

* * *

إذا كان هذا دور المبادئ في نشأة القاعدة الصلبة، فلنقل كلمة سريعة عن دور المربي ﷺ، أعظم مرب في التاريخ، ولن نوفيه حقه ﷺ في هذه الكلمة ولا في كلمات. . وحسبه ما شهد له به ربه المنعم الوهاب: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، ولكننا لا نستطيع أن نتعرف على تلك القاعدة، دون أن نلم ولو إلمامة سريعة بالأثر الضخم الذي أحدثه وجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم العظيم بين ظهرانيهم.

إن الأتباع يقبسون دائمًا شيئًا من صفات قائدهم، من خلال حبهم له ومصاحبتهم إياه، وقد يكون هذا بغير وعي كامل منهم، فإن الإعجاب بشخصية القائد يدفع الأتباع تلقائيًا إلى محاولة التشبه به في بعض أعماله، وبعض أقواله، وبعض مواقفه، وبعض تصرفاته، وقد كان هذا حادثًا بالفعل من الصحابة رضوان الله عليهم، تجاه نبيهم الذي يحبونه حبًا فوق كل حب، ويوقرونه فوق كل توقير عرفه أتباعٌ تجاه قائدهم في التاريخ كله. .

سأل هرقل أبا سفيان، ولم يكن قد أسلم بعد، عن حال المؤمنين مع النبي ﷺ، فقال: ما رأيتُ أحدًا يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمدًا.

ولكن الأمر مع رسول الله ﷺ، لم يكن مقتصرًا على هذا الإعجاب الذي يؤثر في الأتباع بغير وعي كامل منهم، إنما كان تأثرًا واعيًا بأمر من الله الذي آمنوا به وأسلموا وجوههم له، وبأمر من الرسول ذاته ﷺ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١). ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر: ٧). ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ (التوبة: ١٢٠). ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده»[١]. «صلُّوا كما رأيتموني أصلي»[٢]. «خذوا عني مناسككم»[٣].

---

(١) أخرجه الشيخان. (٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه مسلم.

ذلك أنه ليس مجرد قائد يقود جماعة من الناس، إنما هو نبى يبلغ عن ربه، ويبين للناس ما نزل إليهم، فطاعته أمر، وطاعته عبادة لله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: ٥٩). ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠).

لذلك اجتمع للرسول ﷺ من أتباعه ذلك الحب الفائق الذى يفوق كل حب، والالتزام بالطاعة التى هى عبادة لله، فاجتمع له من التأثير فى نفوس أصحابه، رضوان الله عليهم، ما لم يكن له مثيل فى التاريخ.. تأثير الشخصية الفذة، وتأثير المبادئ الفذة كلاهما فى آن..

فأما المبادئ فقد تحدثنا عنها إجمالاً فى الفقرة السابقة، وسنعود إليها بالتفصيل فيما بعد.

أما شخصية الرسول ﷺ فقد يجزئنا فى هذا المقام أن نقول: إنها شخصية جامعة، جمعت ما تفرّق فى أشخاص الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم: روحانية عيسى، وصبر نوح، وحزم موسى، ورقة إبراهيم عليهم السلام.. إلى خصال تفرّد بها ﷺ، لم تُتح لنبى قبله.. فاجتمع فيه شخصية القائد السياسى الذى يجمّع أمة من شتات، ويبوئها مكانًا عاليًا بين الأمم.. وشخصية القائد العسكرى، الذى يربّى جيشًا فذًا فى شجاعته وقوة بأسه، ويخوض به أنبل المعارك.. وشخصية المربى الذى لا يألو جهدًا فى تربية أتباعه على القمة من الأخلاق الفاضلة.. وشخصية العابد المتبتل الذى لا يغفل عن العبادة، آناء الليل وأطراف النهار.. وشخصية المجاهد الذى لا يفتر عن الجهاد.. وشخصية الزوج المثالى والأب الرحيم الودود.. وكل ذلك على توازن فى الشخصية، لا يطغى منها جانب على جانب، ولا ينشط جانب على حساب جانب.. لا جرم يكون تأثيره فى أتباعه أعظم تأثير أحدثه نبى فى قومه، وأعظم تأثير أحدثه بشر فى التاريخ.

* * *

وكما أجملنا الحديث عن المبادئ التى أنشأت القاعدة التى أقامها رسول الله

ﷺ ، وعن شخصية المربى الأعظم الذى ربّى تلك القاعدة ، نقول كذلك كلمة مجملة عن نوعية الرجال الذين قامت القاعدة على أكتافهم :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام : ١٢٤) .

إن اختيار الله لنبيه ﷺ ، وللأرض التى تنطلق منها الرسالة ، وللقوم الذين يتلقون الرسالة أول مرة ، وراءه ولا شك حكمة بالغة ، فقد اختار الله لرسالته الخاتمة أعظم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، واختار أرضاً يعلم الله أنها أنسب أرض تنطلق منها الرسالة الخاتمة . . أرض لا مطمع فيها فى ذلك الوقت ، لدولة من الدول العظمى التى تحكم الأرض يومئذ ، لأنها صحراء جرداء ، فتنشأ الجماعة المؤمنة وتتمكن ، دون أن تتدخل سلطة خارجية لكبتها أو إضعافها ، أو تعويقها عن مهمتها ، حتى إذا تنبهت الدول «العظمى» لخطرها ، وأرادت أن تتصدى لها ، كانت قد أنشأت دولتها ، وأنشأت قوتها الضاربة التى ترهب بها الأعداء .

أما البشر فى هذه الأرض ، فقد علم الله كذلك أنهم أصلح من يحمل هذه الرسالة ، وينطلق بها فى الآفاق . . وثنيون . . نعم . مشركون . . نعم . لُدّ الخصومة . . نعم . شديدو الجدال . . نعم . ولكنهم من وراء ذلك كله ، أسلم فطرة من شعوب الأرض الأخرى ، التى أفسدتها الحضارة الجاهلية بترفها ورخاوتها وإخلادها إلى الأرض ، وانتشار المباذل فيها ، كما كانت الإمبراطوريتان «العظيمتان!» عن يمين الجزيرة وشمالها : فارس والروم ، فضلاً عن استخذاء شعوبها لسطوة الحاكم المقدس الذى تخنع له الرقاب ، ويتعامل مع شعبه تعامل السيد مع العبيد ، فيطغى السيد ويخضع العبيد .

لقد كانت الجاهلية العربية قد أفسدت ولا شك نفوس العرب المشركين . . ولكنه - كما ثبت فى الواقع - فساد فى القشرة ، لم يتوغل إلى صميم الفطرة ، فما إن أزالت العقيدة الجديدة هذه القشرة الفاسدة ، حتى اتصلت رأساً بعناصر الخير المذخورة فى الفطرة ، فأحدثت الأعاجيب .

وفيما عدا الكفار الذين أصروا على كفرهم ، وقاتلوا هذا الدين بضراوة حتى قتلوا ، فإن النفوس التى استجابت ، قد استجابت استجابة رائعة ، لا مثيل لها فى

أتباع الرسل من قبل، لسلامة فطرتهم تحت القشرة الزائفة، ولإخلاصهم العميق لهذا الدين، ولشجاعتهم واستعدادهم للبذل والفداء.

وعنصر آخر لابد من الإشارة إليه، هو استعدادهم للانتقال السريع إلى أى مكان جديد يستوطنونه فيكون وطنًا لهم.. لا تشدهم إلى أرضهم تلك الروابط المقعدة، التى تشد الفلاح إلى أرضه، فيحس بالغربة إذا انتقل منها بضع خطوات، وبهذه الخصلة انتشروا فى الأرض كما لم ينتشر شعب من قبل، يحملون الهدى والنور لكل البشرية.

* * *

تحدثنا حتى الآن حديثًا مجملاً عن عوامل ثلاثة، أسهمت فى صلابة القاعدة التى أنشأها الرسول ﷺ: عظمة المبادئ التى قامت عليها القاعدة، وعظمة المربى ﷺ، وسلامة الفطرة لدى الذين تلقوا المبادئ العظيمة، وتأثروا بعظمة المربى. ولم نتحدث بعد عن دور التربية التى قام بها رسول الله ﷺ لأتباعه..

فالمبادئ قد توجد - وهى اليوم موجودة كما كانت يوم أنزلت من عند الله - ولكنها لا تعمل من ذات نفسها، ما لم يبذرها المربى فى نفوس أتباعه، ويستنبتها، ويتابعها بالرعاية والعناية والتوجيه. والمربى قد يوجد ولكنه لا يعطى تأثيره الكامل، حتى يعطى الجهد اللازم لعملية التربية، فالتأثر التلقائى وحده لا يكفى لتربية النفوس، ما لم يبذل المربى جهدًا إيجابيًا فى تعميق القيم المطلوبة، وترسيخها فى النفوس.

ولقد تحدثت فى كتاب آخر عن منهج التربية الإسلامية[1]. ولكنا نريد هنا أن نحدد دور التربية فى إنشاء القاعدة، لأنه الموضوع الذى يواجهنا اليوم فى حركتنا المعاصرة، ونفتقده افتقادًا حادًا فى كثير من المواضع.

قلنا فيما سبق إن الإيمان بلا إله إلا الله له تأثيره العميق فى النفس البشرية، لأنه يعيد ترتيب الذرات فى داخل النفس، كما يفعل التيار الكهربى فى قطعة الحديد.. نعم، ولكن النفس الحية - برغباتها وهواتفها وأشواقها وانفعالاتها وجواذبها - لا

---

(١) كتاب «منهج التربية الإسلامية».

تشبه قطعة الحديد الساكنة ، التي يمكن أن تحتفظ بصورتها التي تكون عليها فترة غير قصيرة من الزمان . . بل إن قطعة الحديد ذاتها ـ وهي لا تنفعل ولا تتحرك في داخلها الأحاسيس ـ لا تحتفظ بوضعها الذي يحدثه التيار الكهربي إلى الأبد ، ما لم توضع لها حوافظ تحفظها من أن تتبعثر ذراتها مرة أخرى ، كما كانت من قبل !

والنفس البشرية أولى ـ بانفعالاتها وأشواقها وجواذبها ـ أن تتبعثر مرة أخرى ، إذا لم تقم حولها الحوافظ التي تحفظها من التبعثر ، والتي تعمل على إعادة ترتيب ذراتها ، كلما همت أن ينفرط نظامها من جديد . .

وكما أن قطعة الحديد لا تفقد كل مغنطيسيتها إذا تركت مدة بلا حوافظ ، ولكن تضعف فيها المغناطيسية بالتدريج ، فكذلك النفس التي آمنت ، لا يضيع إيمانها كله إذا تركت طويلاً بلا حوافظ ، ولكن يضعف إيمانها بالتدريج حتى يصبح إيمانًا غير فاعل ، وغير قادر على التماسك ، حتى كأنه غير موجود في عالم الواقع . . وهنا تبدو الحاجة الملحة إلى التربية على الإيمان ، وليس مجرد الإيمان .

إن النفس البشرية تعاني في حياتها الدنيوية حركة موارة دائبة في كيانها ، هي التي تحدثها الشهوات التي ورد ذكرها في كتاب الله المنزل : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (آل عمران : ١٤) .

وقد ذكرنا من قبل أن هذه الحركة الموارة الدائبة في داخل النفس ـ والتي من طبيعتها أن تدفع الإنسان إلى أعمال معينة وسلوك معين ـ هي نقطة الابتلاء الذي يعانيه الإنسان في حياته الدنيا ، والذي تفترق فيه نفس عن نفس ، وسلوك عن سلوك : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف : ٧) .

وقد أجملت الآية الكريمة ذكر الشهوات التي تتحرك داخل النفس وتحركها إلى أعمال معينة وسلوك معين ، لأن المجال ليس مجال التفصيل[1] . ولكن انفعالات الإنسان وأشواقه وهواتفه وجواذبه لا تكاد تحصى ، ولا تكاد تنتهي ، ولا تكاد تكف

---

(١) ورد التفصيل في آيات أخرى ، وفي كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

عن الإلحاح، كما قال الشاعر: «وحاجة من عاش لا تنقضى» . . ولذلك فالابتلاء قائم فى كل لحظة، والحاجة إلى التربية قائمة فى كل لحظة كذلك، حتى تستقيم النفس على الوضع المطلوب، وتتحرر من العبودية للشهوات، وتتعود على الاستقامة حتى تصبح بالنسبة لها هى الأصل، وينطبق عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠). . ومع ذلك فلا عصمة للإنسان من الخطأ، ولا أمان لأحد من هواتف النفس التى توقعها فى الأخطاء، وإن كان باب التوبة مفتوحًا أمام البشر على الدوام: «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[1] . . وهنا يظهر دور التربية، وحاجة البشرية إليها، وضرورة الاهتمام بها إلى أبعد الحدود.

وليست التربية مطلوبة لضبط شهوات النفس وهواجسها وانفعالاتها فحسب، وإن كان هذا من الأسس التى لا غنى عنها، ولا تستقيم بغيرها حياة، ولكنها مطلوبة لمستويات أخرى من السلوك، ومستويات أخرى من القيم اللازمة للحياة . .

لقد قدّر الله للإنسان فى حياته الدنيا ألوانًا مختلفة من الابتلاء، بعضها ضغوط تقع عليه من داخل نفسه، وهى دوافعه ونوازعه وشهواته، وبعضها الآخر ضغوط تقع عليه من خارج كيانه، وإن كانت تؤثر على ما فى داخل نفسه، سواء كانت ضغوطًا سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، ويدخل فى هذه الأخيرة أعراف الناس وتقاليدهم، وكلها تنزع إلى إخضاع الناس لمقتضياتها، وإن كان الكثير منها فى الجاهلية خاصة أهواء أكثر مما هى ضرورات حقيقية، أهواء يفرضها الذين استكبروا على الذين استضعفوا: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

ولابد لكى تستقيم الحياة على المستوى اللائق بالإنسان، الذى كرّمه الله وفضله على كثير ممن خلق، لابد أن يقاوم الإنسان هذه الضغوط، ولو تعرض بسبب تلك المقاومة إلى ألوان من الحرمان . .

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة.

ولو تركت النفس بغير رعاية وتعهد، فإنها تصبح لينة القوام، ضعيفة لا تقوى على مقاومة الضغوط، سهلة الانثناء والالتواء، فيطمع الذين استكبروا فى استخدام مزيد من الضغط، ليحصلوا من الناس على مزيد من الاستسلام، وعندئذ يظهر الفساد فى الأرض، أى يتمكن ويستشرى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١).. يستوى فى هذا «الكسب» طغيان من يطغى واستسلام من يستسلم، فكله فساد يبعد الحياة عن صورتها السوية التى ينبغى أن تكون عليها..

وهنا يبرز دور التربية مرة أخرى لإكساب النفس الصلابة اللازمة لها فى مواجهة الضغوط. والقيم والمبادئ هى الأحجار الصلبة التى تقى البناء النفسى من الانهيار عند أول صدمة أو الانثناء تحت الضغط، وعلى قدر التمسك الحقيقى بتلك القيم والمبادئ تكون الصلابة الحقيقية للنفس، وذلك التمسك هو الذى تحدثه التربية الصحيحة بجهدها الدؤوب، ولكنه لا يحدث فى النفس حتى تكون قد تعودت من قبل على ضبط شهواتها وأهوائها، لأنه بغير ذلك لا تقوى على الصلابة ولا تطيق تكاليفها.: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف: ٤٣). ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٠).

ولا تنتهى الحاجة إلى التربية عند هذا الحد، ولا عند هذا المستوى من الأمور، وخاصة بالنسبة للمؤمنين، فقد اقتضت مشيئة الله ألا يكون الناس كلهم أمة واحدة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩). ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ (التغابن: ٢)..

ثم كان من سنته سبحانه وتعالى أن يقع التدافع فى الأرض بين المؤمنين والكفار، بين أهل الحق وأهل الباطل، لكى لا تفسد الأرض باستعلاء أهل الباطل فيها بغير رادع يردعهم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١).. ولا يعجز الله سبحانه وتعالى أن يدمر أهل الباطل

ويبطل طغيانهم، وهو الذى يقول للشيء كن فيكون: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠).. ولكن سنته اقتضت أن يجعل تدميرهم على يد أهل الحق، بعون الله وتأييده، وأن يكون هذا بالنسبة لأهل الحق جزءاً من الابتلاء المقدر لهم فى سنة الله، وتشريفًا لهم ورفعة فى ذات الوقت: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (محمد: ٤). ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٧)..

وهذا الأمر وهو مجاهدة الباطل ودفعه من أجل إصلاح الأرض وحفظها من الفساد هو القمة التى يصل الإنسان إليها فى الحياة الدنيا، وهو فى الوقت ذاته ذروة سنام الإسلام: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت (والكلام لمعاذ بن جبل رضى الله عنه)، بلى يا رسول الله. قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[1].

وهو أمر يحتاج إلى تربية طويلة وإعداد. إعداد نفسى وروحى قبل الإعداد الجسمى والمادى، وهو مستوى من مستويات التربية لا يتم حتى يكون الإنسان قد مر بالمستويين السابقين، فهو فى حاجة إلى الصلابة النفسية التى ترتكز بدورها على ضبط الشهوات، وهكذا تتدرج التربية فى مستوياتها الثلاثة بدءاً بالتدريب على ضبط الشهوات وتعويد النفس على الانضباط، مروراً باكتساب الصلابة بترسيخ القيم العليا فى بنية النفس، وصولاً إلى الاستعداد للجهاد والصبر على تكاليفه فى النفس والمال..

ثم هنالك مستوى أخير، لابد أن نشير إليه فى حديثنا عن خير القرون، خاصة جيل الصحابة رضوان الله عليهم، هو مستوى التطوع النبيل، الذى يتجاوز الواجبات والمفروضات، ويرتقى إلى المندوبات والمستحبات فيجعلها كالواجبات والمفروضات، بغير إلزام من الله ورسوله، ولكن حبًا لله ورسوله، وعبادة خالصة لله ابتغاء مرضاته، وهو مستوى بلغ الذروة فيه ذلك الجيل الفريد الذى رباه رسول الله

---

(١) أخرجه الترمذى.

ﷺ ، وإن لم يخل جيل من أجيال الأمة الإسلامية من أفراد يرتفعون إلى ذلك المستوى السامق الرفيع .

* * *

إذا اتضح لنا ذلك فقد اقتربنا من تصور الجهد الذى بذله المربى الأعظم ﷺ للارتفاع بتلك النفوس إلى ذلك المستوى الرفيع الذى وصلت إليه فى عالم الواقع ، وهو مستوى غير مسبوق فى تاريخ البشرية . .

وربما يساعدنا على تصور هذا الجهد أن نتعرف على الأداة العظمى التى استخدمها الرسول ﷺ فى تربية أصحابه ، وهى الأداة اللازمة لكل تربية على منهج الإسلام فى أى جيل من أجيال الإسلام ، وهى تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر ، وممارسة الحياة فى معية الله . .

لا شئ يمكن أن يرتقى بالنفس درجة وراء درجة مثل ذلك الإيمان . إنه هو الذى يوفر الحوافظ التى تحفظ النفس من الانفلات ، والهبوط مع ثقلة الشهوات ، ثم يحبب إليها الارتفاع فى مدارج السالكين إلى أعلى الدرجات .

وعلى قدر ما يعيش الإنسان مع الله ، يحبه ويخشاه ، ويذكره فى سره وجهره ، ويبتغى رضاه ، وعلى قدر ما يعيش على ذكر من اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور ، وحساب وجزاء ، وجنة ونار ، تكون قدرته على ضبط شهواته ، وقدرته على تمثل القيم العليا ، وقدرته على إعداد نفسه للجهاد فى سبيل الله ، ورغبته كذلك فى التطوع النبيل ابتغاء مرضاة الله .

وإذا تتبعنا آيات الذكر الحكيم فسنجد فيها تركيزاً شديداً على تلك الأمور بالذات . .

فأما التعريف بالله ، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وقدرته التى لا يعجزها شيء ، وعلمه الذى لا يعزب عنه شيء ، ورقابته التى لا تغفل عن شيء ، ورحمته التى وسعت كل شيء ، وجبروته الذى لا يقف أمامه شيء ، فأوضح من أن يشار إليه فى كتاب الله الكريم ، وهو الموضوع الأول والأكبر من موضوعات الكتاب

الكريم، من حيث المساحة التى يشغلها، والتركيز المستمر عليه، وبيان مقتضياته، وهى عبادة الله وحده بلا شريك، فى الاعتقاد القلبى، وشعائر التعبد من صلاة وصيام وزكاة وحج، واستعانة واستغاثة، وذبح ونذر ودعاء، والالتزام بما جاء من عند الله من أوامر ونواه وتشريعات وتوجيهات وأحكام.

وأما مشاهد القيامة، مع تنوع أساليب عرضها، وتعدد مواضع ذكرها والتذكير بها، بنعيمها وعذابها، فأمر واضح كذلك لمن يتدبر كتاب الله.. ولكن يلفت النظر فى السور المدنية خاصة الربط بين الأمرين معًا: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، سلبًا وإيجابًا، وربط ذلك بالعقائد والشعائر والشرائع وأنماط السلوك والأخلاق، سواء عند المؤمنين بهما أو الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢). ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: ٢٣٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة ٢٦٤). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩). ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩). ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١). وإذا كان الربط مباشرا فى السور المدنية بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، فهو موجود فى السور المكية كذلك وإن ذكر كل منهما على حدة: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٢٢) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦).

والدلالة التربوية لهذا الأمر أن الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، كلٌّ قائم بذاته، ومتعمق بذاته فى أغوار النفس، ثم مرتبطين متلازمين متكاملين، هو الأداة الكبرى فى منهج التربية الإسلامية التى تؤتى ثمارها المرجوة بالتعهد المستمر والمتابعة اليقظة الدؤوب.. وهذا هو الذى قام به رسول الله ﷺ، بالصورة الفذة التى لا مثيل لها فى التاريخ..

لقد كان عمله الدائم ﷺ، فى مكة خاصة، هو تعميق الإيمان بالله، وتعميق الإيمان باليوم الآخر فى نفوس أصحابه رضوان الله عليهم، ثم الربط بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر فى تلك النفوس، حتى يصبح أحدهما مذكرًا بالآخر تلقائيًا ومؤديًا إليه: إن ذُكِّر الإنسان بالله ذكَرَ معه اليوم الآخر، بنعيمه وعذابه.. وإن ذُكِّر باليوم الآخر ذكَرَ الله سبحانه وتعالى، مالك الدنيا والآخرة، ومالك كل شىء فى الوجود.

وتبدو القمة التى وصل إليها ﷺ فى تربية أصحابه بهذه الأداة الضخمة فى هذا الوصف الرائع لهم فى كتاب الله، بعد أن نهلوا من هذه التربية الفذة، وأخذوا منها بأوفى نصيب: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤).

هذا الوصف العظيم من رب العالمين يصور تلك القمة الرائعة. إن ذكر الله لحظة يحدث في النفس آثاره، فما بال الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، أي في جميع أحوالهم؟ كيف يكون أثر هذا الذكر في نفوسهم؟!

ومن جهة أخرى فإن ذكر الله لا يخطر في النفس وهي هابطة منجذبة إلى ثقلة الشهوات.. فتلك هي لحظات الغفلة، التي يغفل فيها الإنسان عن ذكر الله، إنما يذكر الإنسان ربه وهو متجه نحو الصعود، فإذا استصحبنا هذا المقياس فكل لحظة ذكر هي في الحقيقة لحظة صعود.. فكيف بالذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم أي في جميع أحوالهم، كم صعدوا وكم ثبتوا على الصعود؟! إنه شيء رائع حقًا حين نتصوره على حقيقته..

إن الصعود أمر شاق على النفس البشرية حتى تتعود عليه! لأن قبضة الطين ذات ثقل يميل دائمًا إلى أسفل، ويحتاج إلى رفع مستمر حتى يتوازن، ويحتاج إلى رفع أكثر لكي يغلب دافعُ الصعود على دافع الهبوط..

حقيقة إن أداة الرفع موجودة في كيان الإنسان، في أعماق فطرته، وهي النفخة العلوية فيه: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١ ـ ٧٢).

ولكن هذا لا ينفي أن هناك جهدًا ينبغي أن يبذل لتدريب هذه الأداة على العمل، وهو الجهد الذي تقوم به التربية، فبينما تعمل الشهوات تلقائيًا في الكيان البشري بطبيعة كونها محببة ومزينة للإنسان، ومثيراتها حاضرة في ألوان المتاع التي تزخر بها الحياة الدنيا، فإن أداة الضبط التي تحبس الشهوات في نطاق معين، لترتفع بالطاقة الحيوية بعد ذلك إلى المجالات العليا، مجالات القيم ومعالي الأمور التي يحبها

الله . . هذه الأداة في حاجة إلى تدريب لتقوم بعملها ، كما يحتاج الطفل إلى التدريب على المشي ليقاوم ثقلة الأرض ، مع أن القدرة على المشي كامنة في كيانه منذ خلقه الله ، وإذا لم يدرب فقد يتأخر مشيه كثيرا ، أو يصبح مقعدا يزحف زحفا على الأرض : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران : ١٤ ـ ١٧) .

تلك ثقلة الشهوات ، وهذه أدوات الصعود .

ومزية الإسلام العظمى في هذا المجال أنه وهو يعمل على رفع الإنسان إلى أعلى لموازنة ثقلة الشهوات لا يدفعه إلى منطقة ينعدم فيها جذب الأرض ، كما تفعل الرهبانية والهندوكية والبوذية ، فهذه قد تيسر للإنسان التحليق في الفضاء ، ولكنها تؤدي به إلى إهمال عمارة الأرض وحفظها من الفساد بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلها تكاليف ربانية أمر بها الله ، لأنه يعلم أن فيها صلاح الحياة والإنسان ، وهو الذي خلقه ويعلم ما يصلحه وما يصلح له : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) . ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(هود : ٦١) . ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١) . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف : ١٠ ـ ١١) .

وكذلك فإنه وهو يوجه الإنسان إلى عمارة الأرض ، والاستمتاع بالطيبات فيها ، لا يتركه يغرق في حمأة الشهوات ، لأنه عندئذ يترهل ويفسد ، ويستثقل التكاليف التي يتطلبها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، لأنها تبدو في

حسبه موانع تعوّق الإنسان عن المتاع : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ (التوبة : ٤٢) . ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨٦ ـ ٨٧) . .

وإنما يعمل الإسلام على أن يقوم الإنسان متوازنًا بين عنصريه المكوّنين له : قبضة الطين ونفخة الروح ، عاملاً في الدنيا وعاملاً للآخرة في ذات الوقت : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥) .

* * *

كانت الأداة العظمى في يد رسول الله ﷺ لتربية أصحابه هي تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر في نفوسهم ، والتذكير الدائم بالله سبحانه وتعالى ، وتعويدهم أن يعيشوا قدر طاقتهم في معية الله ، وكان هو عليه الصلاة والسلام قدوتهم العظمى في ذلك الأمر ، كما هو في كل أمر . .

إن القدوة ذات تأثير هائل في عملية التربية . . والله الذي خلق النفس البشرية يعلم سبحانه أن الموعظة وحدها لا تكفي ، مهما يكن من بلاغتها وقوتها ، ما لم يحملها قلب بشر ، يتمثلها ويترجمها واقعًا مشهودًا أمام الناس ، ثم يدعو الناس إلى اتباعها وقد بيّن لهم بالقدوة العملية كيف يكون الاتباع .

كان الله قادرًا سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مكتوبًا في قراطيس ، ثم يلهم العرب الأميين أن يقرأوه . . ولكنه يعلم وهو اللطيف الخبير أن النفوس لا تتقبل الأمر على هذه الصورة ولا تتأثر به التأثر المطلوب ، الذي يحول الأمر إلى حركة واقعية ذات قوة وانطلاق ، إنما أنزله سبحانه وتعالى على قلب بشر ، تمثله تمثلاً كاملاً ، وترجمه واقعًا يراه الناس ، فيحب هذا الواقع من شرح الله صدره للإسلام ، فتهفو له نفسه ، وينقاد إليه ، ويدخل في دين الله .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ . فقالت : كان خُلُقه القرآن[1] . .

وعلى هذا النحو نفهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النور : ٥٤). وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ٤٤) . . فليس البلاغ مجرد أن يقول الرسول للناس : إن ربكم يقول لكم كذا وكذا . . وليس البيان محاضرة ولا درسًا نظريًا يلقيه الرسول على الناس . . وإن كان البلاغ بهذا المعنى ، والبيان بهذا المعنى مطلوبين من أجل إعلام الناس بما لا يعلمونه من أمور الدين . . أما تحويل هذا العلم إلى واقع نفسى ، يتحول بدوره إلى واقع عملى ، فأمر آخر يحتاج أن يبلغ الرسول للناس كلام ربهم مترجمًا إلى واقع ، مشروحًا فى عمل ، حتى يقتدى الناس به ، ويتعلموا فى درس عملى كيف يقومون بتنفيذه ، وفى ذلك درس للدعاة ، نعود إلى تفصيله فيما بعد .

وقد كان رسول الله ﷺ دائم الذكر لله ، يعيش حياته كلها فى معية الله ، لا يغفل قلبه عن ذكره ، ولا يفتر عنه لسانه ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ومنحه من الطاقة ما يطيق به هذه الصلة الدائمة بالله . . وإنها بالنسبة للبشر لجهد جاهد . .

ما يطيق البشر حتى الصحابة رضوان الله عليهم أن يقضوا حياتهم كلها على ذلك المستوى السامق الذى كان عليه رسول الله ﷺ فى صلته الدائمة بالله ، وذكره الدائم له سبحانه وتعالى فى جميع الأحوال واللحظات .

فتلك خصيصة خص الله بها الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، وخص منها سيد الرسل ﷺ بالنصيب الأوفى ، أما الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم خير البشر بعد الرسل ، فقد شكوا إلى رسول الله ﷺ أنهم حين يكونون معه يكونون على حال ، وإذا فارقوه كانوا على حال آخر غير حالهم وهم معه ، فقال «والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم . ولكن ياحنظلة ساعة وساعة»[2] .

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد وابن ماجة .

ومع ذلك فإن الساعة التى شكا منها الصحابة رضوان الله عليهم، لم تكن ساعة هبوط ولا غفلة عن ذكر الله، ويكفى وصف الله لهم بأنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، إنما كان الفارق بينها وبين الساعة التى يكونون فيها مع رسول الله ﷺ فارقًا فى الدرجة لا فى النوع.

ونعود إلى الوصف الرائع الذى وصف الله به الصحابة رضوان الله عليهم..

إنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكيف كان ذكرهم له؟ أهو الذكر الذى يؤدى إلى الفناء على طريقة الصوفية، باعتبار أن الفناء عندهم هو حقيقة الوجود؟ أم الذكر الذى يؤدى إلى حضور الطاقة البشرية فى الواقع المشهود، وتجمعها لتعمل فى مرضاة الله؟

لقد كانوا يذكرون الله ليسألوا أنفسهم: ماذا يريد الله منا فى هذه اللحظة؟ فإن كان متطلب اللحظة هو الجهاد فى سبيل الله، كان الذكر هو الدافع إلى الجهاد.. وإن كان متطلب اللحظة هو تحصيل العلم الذى هو فريضة على كل مسلم، كان الذكر هو الدافع إلى تحصيل العلم.. وإن كان متطلب اللحظة هو السعى فى تحصيل الرزق الحلال أو الإنفاق فى سبيل الله أو عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، كان الذكر دافعًا إلى ذلك.. وإن كان متطلب اللحظة عاشروهن بالمعروف، كان الذكر هو الدافع إلى المعاشرة بالمعروف... وهكذا فى سائر التكاليف الربانية وسائر مجالات العمل فى واقع الحياة.

وكانوا يذكرون الله ليسألوا أنفسهم أين هم - اللحظة - من رضوان الله؟ أهم فى الوضع الذى يرضى الله عنهم فيه؟ فإن كان كذلك حمدوا الله، وعملوا على اكتساب المزيد من رضوان الله بزيادة التقرب إليه بما يحبه من الأعمال، وإن كان غير ذلك ذكروا الله كذلك، ولكن ليغيروا ما هم فيه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦).

ولننظر فى الآيات التى أشرنا إليها من سورة آل عمران، لنرى ما الذى أدى إليه

الذكر: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (آل عمران: ١٩١)..

لقد كان متطلب اللحظة وهو مطلوب في كل لحظة التفكر في خلق السموات والأرض، للتعرف على ما في بنيتها من الحق: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن: ٣). ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص: ٢٧).. ولقد أدركوا بما علمهم ربهم، وبما رأوا من انتظام السنن الربانية، سواءما يتعلق منها بالكون المادي أو بالحياة البشرية أن خلق الكون لا يمكن أن يكون باطلاً ولا عبثًا، وأن الحكمة ملحوظة في كل جزئية فيه.. وحين يصل تفكيرهم إلى هذا المدى، يدركون أن الحياة الدنيا ليست هي نهاية المطاف، ولا يمكن أن تكون، فهناك من البشر من يظلم، ويظل ظالمًا إلى آخر قطرة من حياته.. ومنهم من يُظْلَم ويظل مظلومًا إلى آخر قطرة من حياته.. فلو كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف فأين الحق؟ إنها تكون عندئذ عبثًا لا غاية له ولا حق فيه.

وهنا ينقلهم ذكر الله، والتفكر في الحق الكامن في هذا الخلق إلى ذكر اليوم الآخر، وما فيه من جنة ونار، فيستعيذون بالله من النار: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١)..

وإذ تذكروا النار فقد فزعوا إلى ربهم أن ينجيهم منها: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (آل عمران: ١٩٢).. وكأنما يقدمون بين يدي مولاهم مؤهلاتهم التي يرجون بها النجاة من النار: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ١٩٣-١٩٤)..

ويستجيب الله لهذه الضراعة الحارة من عباده، ولكن لأي شيء استجاب

سبحانه؟ ألمجرد الذكر؟ ألمجرد التفكر؟ ألمجرد التدبر؟ ألمجرد الضراعة؟ وكلها مطلوبة من المؤمن الصادق الإيمان: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

هنا الدرس التربوى فى هذه الآيات التى بدأت بهذا الوصف الرائع الذى وصف به الله صحابة رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم».. إنه الذكر الذى يؤدى إلى العمل المشهود فى واقع الأرض.. هاجروا وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا فى سبيل الله فصبروا، وقاتلوا وقتلوا.. فاستجاب لهم ربهم.

وعلى هذا الذكر ربى رسول الله ﷺ أصحابه، بالقدوة أولاً فى شخصه الكريم، ثم بمواعظه وتوجيهاته، ومتابعته المستمرة وعنايته ورعايته، حتى صاروا إلى تلك القمم البشرية التى لا مثيل لها فى التاريخ

* * *

والآن فلننظر ماذا كان يريد ﷺ، وإلى أى شيء كان يهدف من بذل الجهد الجبار الذى بذله فى تربية أولئك الأصحاب.. ألمجرد أن يكونوا حواريين له ﷺ؟ ألمجرد أن يكونوا مؤمنين صادقى الإيمان؟ إنه هدف نبيل ولا شك، ويستحق أن يُبذل فيه الجهد، ولكن! أكُل هذا الجهد؟

لقد كان جزء من هذا الجهد يكفى لتحقيق هذا الهدف على أحسن صورة يرغب فيها رسول! كان يكفى جهد كالذى بذله عيسى ابن مريم عليه السلام فى تربية حوارييه الذين التفوا حوله، وأخلصوا له، ونشروا دينه من بعده، وكانوا مثلاً فى الرأفة والرحمة والزهد ونظافة الأخلاق: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ٢٧).. ولكن محمداً ﷺ لم يكن يريد مجرد أن يربى جماعة من المؤمنين، ككل المؤمنين الذين رباهم الرسل من قبله،

إنما كان يريد أمرًا آخر أعظم وأجل . . يريد أن يربى القاعدة الصلبة التى تنشىء بدورها ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

إن الفارق بين أى جماعة من الجماعات المؤمنة التى رباها الرسل الكرام قبل محمد ﷺ ، والجماعة المؤمنة التى رباها رسول الله ﷺ كامن فى التكاليف الربانية التى كلف الله بها هؤلاء وهؤلاء ، والمهمة المطلوبة من هؤلاء وهؤلاء . .

فأما الجماعات المؤمنة السابقة فقد قال الله عنها : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة : ٥) . .

وأما جماعة الرسول ﷺ فقد كلفهم التكليف ذاته ؛ أن يعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ثم كلفهم تكليفًا آخر ، اختصهم به دون الأمم السابقة كلها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) . ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

الأمم السابقة أخرجت لتؤمن بالله وتستقيم على الإيمان فى ذات نفسها فحسب ، وهذه الأمة أخرجت للناس ، لتكون نموذجًا تهتدى به البشرية كلها إلى الصراط المستقيم . . وفرق فى الإعداد والتكوين بين شخص يُراد له أن يستقيم فى ذات نفسه وفى حدود قوم محدودين ، وشخص يراد منه أن يكون نموذجًا يحتذى ، لا فى داخل قومه فحسب ، بل على نطاق البشرية كلها حيثما التقى بها فى أي بقعة من الأرض .

وقد يكون الأساس واحدًا : عبادة الله وحده بلا شريك ، ولكن يظل الفرق قائمًا بين أساس تريد أن تقيم فوقه بناء صغير الحجم ، محدود النطاق ، وأساس تريد أن تقيم فوقه بناءً شاهقًا متسع الأرجاء ، كلاهما مطلوب فيه الإتقان ، وكلاهما يحتاج إلى جهد ، ولكن شتان بين أساس وأساس ، وجهد وجهد ، وإتقان وإتقان . .

الفارق نلحظه ابتداءً فى كتاب الله . .

كل أمة مؤمنة دعيت للإيمان بالله واليوم الآخر ، ولكن لا يوجد كتاب من الكتب

المنزلة أخذت فيه هذه القضية المساحة والتركيز اللذين أخذتهما في كتاب الله الأخير. وكل أمة مؤمنة ربطت التكاليف المطلوبة منها بهذه القضية الجوهرية التي هي أساس كل شيء، ومنطلق كل شيء، ولكن لا توجد رسالة أحكم فيها ربط التكاليف بهذه القضية الجوهرية كما أحكم في الرسالة الأخيرة، مع تعدد التكاليف في تلك الرسالة واتساع نطاقها وشمولها لكل مجالات الحياة[1].

ثم نلحظ الفارق - على خط مواز لما جاء في كتاب الله - في المنهج النبوي الذي ربى به رسول الله ﷺ أصحابه، سواء في تركيز المنهج على قضية الإيمان بالله واليوم الآخر، أو في إحكام ربط التكاليف كلها - الاعتقادية والسلوكية - بهذه القضية الجوهرية.

في الفترة المكية لم تكن قد نزلت بعد الأحكام والتوجيهات التي تنظم حياة الجماعة المؤمنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إنما كانت كلها مخصصة لبذر العقيدة الصحيحة في النفوس، وتهيئة هذه النفوس لمقتضيات هذه العقيدة، التي كان مقدراً في علم الله أن تجيء في موعدها المناسب..

ونتكلم الآن عن المؤمنين الذين آمنوا أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وآمنوا بالبعث والنشور والحساب والجزاء، لأن هؤلاء هم القاعدة الصلبة التي رباها رسول الله ﷺ، والتي هي موضع حديثنا في هذا الفصل.. ولكن لا يفوتنا أن نذكر كم عاني رسول الله ﷺ، في عرض هذه القضية، وتبليغها للناس، سواء من طغاة قريش الذين وقفوا لهذه الدعوة بالمرصاد، يحاربونها بكل وسائل الحرب، أم من الجماهير التي حاربتها لأنها تخالف مألوفاتها، ولأنهم هم في ذات الوقت مستعبدون لأولئك الطغاة، وعوا ذلك أم لم يعوه، وارتضته نفوسهم أم كرهوه..

في هذه الفترة التي نحن بصددها كان التركيز على مقتضيات بعينها من مقتضيات لا إله إلا الله..

فأما النطق فهو وقتئذ العلامة الظاهرة للإيمان، فلم يكن ينطق بالشهادتين في

---

(١) انظر إن شئت فصل «مقتضيات لا إله إلا الله في الرسالة المحمدية» من كتاب «لا إله إلا الله، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة».

ذلك الوقت إلا من آمن حقًا، وجاء يعرض إيمانه على رسول الله ﷺ، مخاطراً بنفسه، معرضًا نفسه للأذى ينصب عليه من كل حدب وصوب، والجاهلية كلها من حوله تناجزه العداء، وتظهر له الإنكار والبغضاء. ومع أن النطق في ذلك الوقت كان علامة مؤكدة على الإيمان، لأنه لم يكن يعرّض نفسه لمخاطر النطق إلا من آمن حقًا، وبلغ به التصديق مبلغ اليقين، فهل اكتفى رسول الله ﷺ منهم بأنهم صدقوا في داخل قلوبهم ونطقوا بألسنتهم؟!

ولو اكتفى بذلك منهم، فهل كانت تقوم تلك القاعدة الصلبة التي غيّر الله بها وجه الأرض؟

وفيم إذن كان لقاؤه معهم في دار الأرقم، ومصاحبته لهم، وقضاؤه الساعات معهم؟ ليقول لهم: آمنوا بأنه لا إله إلا الله، وقد آمنوا بالفعل؟ أم ليقول لهم انطقوا بألسنتكم أنه لا إله إلا الله وقد نطقوا بالفعل؟ إنما كان يلتقي بهم ليربيهم على مقتضيات لا إله إلا الله، مقدمًا لهم النموذج العملي في شخصه الكريم.

لقد كان من مقتضيات لا إله إلا الله في ذلك الحين، وفي كل حين، الصبر على الأذى في سبيل الحق، في سبيل العقيدة الصحيحة التي يؤمن بها الإنسان.. فهل كان مجرد الإيمان، أي التصديق بلا إله إلا الله والنطق بها، يؤدي تلقائيًا إلى الصبر على الأذى مهما اشتد، والتمسك بالحق مهما كلّف في النفس والمال؟ أم يحتاج هذا الأمر إلى جهد معين لتقوية الكيان النفسي حتى يحتمل الضغط دون أن ينثني أو ينهار؟ ومن أين يتعلمون ذلك؟ أبمجرد أن يقال لهم اصبروا تنضبط المشاعر، وتصلب العزيمة، وتصغر الدنيا بمتاعها الحلو في نظر صاحبها، ويتطلع إلى ما هو أعلى وأشفّ، فيحتمل الأذى صابراً، ولا يفرط في الحق الذي آمن به؟ كلا والله! إنما يحتاج الأمر إلى تلقين وتعليم وتدريب وتوجيه.. والمعلم الأعظم ﷺ هو الذي يعلم ويلقن، ويدرب ويوجه.. ولكن لا بمجرد كلمات يلقيها لأصحابه، بل بنموذج عملي يرونه شاخصًا أمامهم، يطبق في ذات نفسه ما يدعوهم إليه، على المستوى الأعلى، فيتعلمون فينفذون..

لقد أوذي سيد الرسل ﷺ أذىً يهد الجبال..

أوذي بالتكذيب، وما أشق التكذيب على الصادق الأمين.. وأوذي بالسخرية،

وما أشق السخرية على قلب من يؤمن بالحق، ويعلم أنه الحق وأنه خير وأنه هدى وأنه نجاة وأنه فلاح، وأن الساخرين في الضلال البعيد. وأوذى بالدعاية المضادة والتشهير والتنفير ومحاولة صرف الأتباع، بل محاولة صرف الناس عن مجرد السماع.. وأوذى الإيذاء البدني والحسي.. إنْ بقذفه بالأحجار حتى تدمى قدماه الشريفتان، وإن بنشر الشوك في طريقه كما فعل أبو لهب وامرأته حمالة الحطب، وإن بإلقاء الأوساخ عليه وهو ساجد يذكر ربه، وإن.. وإن..

ولا يزيده ذلك كله إلا استمساكًا بالحق، وإصرارًا عليه.. وتعرض عليه المغريات كلها التي تغرى الناس في الحياة الدنيا، الملك والسلطان والمال والجاه والمتاع، فيقول لعمه وقد شكاه قومه إليه: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يمينى، والقمر في شمالى، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى تنفرد سالفتى» أو قال: «حتى أهلك دونه»[1].

وهكذا يلقن الدرس لأصحابه، لا مجرد كلمات، وإن كانت الكلمات مطلوبة للبيان، ولكن سلوكًا عمليًا يشرح الكلمات، ويحولها إلى حقائق مشهودة في عالم العيان.

وكان من مقتضيات لا إله إلا الله في ذلك الحين، وفي كل حين، امتلاء القلب بحب الله، واستشعار عظمته سبحانه وتعالى، والتعلق به، والتطلع إليه، والتوجه إليه في كل سلوك وكل شعور. فهل كان مجرد الإيمان، أى التصديق بأنه لا إله إلا الله، والنطق بها، يؤدى تلقائيًا إلى ذلك التوجه وذلك السلوك؟ أم يحتاج الأمر إلى تعليم وتلقين، وتدريب وتوجيه؟

ومن يوجّه ويعلم إلا المربى ﷺ؟ لا بمجرد كلمات تلقى، ولكن بسلوك عملى يراه الأصحاب، ويتمثلونه ويتعلمون منه. إذ يرونه في كل لحظة ذاكرًا لربه، متوجهًا إليه، متطلعًا لرحمته، متذللاً متضرعًا تائبًا منيبًا لا يفتر لسانه عن الدعاء، ولا قلبه عن الذكر.

وكان من مقتضيات لا إله إلا الله في ذلك الحين، وفي كل حين، الإيمان بقضاء

(١) انظر كتب السيرة.

الله وقدره، والإيمان بأنه هو وحده المدبر، هو وحده المقدر، هو وحده الفعال لما يريد، هو وحده الرزاق، هو وحده الضار النافع، هو وحده المحيي المميت، هو وحده المالك لكل شيء وكل أمر، هو المتصرف وحده في الكون وفي الناس، لا يكون شيء إلا بأمره، ولا يكون شيء حتى يشاء سبحانه.

فهل كان مجرد التصديق بلا إله إلا الله والنطق بها يحدث ذلك الإيمان في النفوس؟ أم يحتاج الأمر إلى التعليم والتلقين والتدريب والتوجيه؟ وهل يكفي لترسيخ ذلك الإيمان كلمة أو كلمات أو درس عابر أو دروس؟ إنها ليست نظرية تدَّرس وتحفظ، ويُسأل فيها الإنسان فيجيب بلسانه، إنها معاناة واقعية، تصطدم في كل لحظة برغبة من رغبات النفس، أو شهوة من شهواتها، أو هاجس من هواجسها، أو تجربة مريرة يمر الإنسان بها، ثم يتعلم من خلال المعاناة، ويحفظ الدرس، لا بعقله فقط ولا بوجدانه فقط، بل بأعصابه وجسده وروحه وكيانه كله.

ضربت هذا المثل في كتاب سابق[1]: إذا سألت أي إنسان في الطريق: مَن الذي يرزقك؟ يجيب بداهة: الله هو الرزاق، ولكن حين يضيّق عليه في الرزق، أو قل على وجه التحديد: حين يؤذى في رزقه فماذا يقول؟ يقول في أغلب الأحوال: فلان قطع رزقي، أو فلان يريد أن يقطع رزقي! فما دلالة ذلك؟ دلالته أن ما كان يبدو بديهية لم يكن كذلك في الحقيقة! أو قل: إنه كان بديهية ذهنية لم تتعمق في الوجدان، لم تصبح بعد بديهية قلبية ينبني عليها سلوك! أو تنبني عليها المشاعر الصحيحة التي ينبني عليها بعد ذلك سلوك صحيح!

لفت نظري أمر وأنا أقرأ خطاب الله لبني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٤٩).

العذاب واقع من فرعون: يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ولكن الابتلاء واقع من الله! هل يرد هذا الخاطر على الذهن بداهة حين يرى العذاب أو يسمع عنه؟ أم يتجه الذهن إلى الفاعل المباشر الذي يقع الفعل منه؟ ويحتاج الإنسان إلى تعليم

---

(١) كتاب «واقعنا المعاصر»

وتلقين لكي يعلم أن الفاعل قائم بالعمل ، نعم ، ولكن وراء ذلك قدر الله؟ وحين يعلم ذلك ، ويستقر في خلده حتى يصبح يقينًا ، فلمَن يتجه ليرفع عنه البلاء؟ هذا هو الدرس من وراء التوجيه . . ولا يتنافى ذلك في حس المؤمن مع اتخاذ الأسباب ، ولكن دون اتكال على الأسباب ، ودون اعتقاد بأن الأسباب تعمل من ذات نفسها ؛ إنما هي تعمل بقدر من الله ، وفي الحدود التي قدرها الله ، ويظل التطلع دائمًا إلى المدبر الحقيقي وراء الأحداث والأشخاص ، الله الذي بيده ملكوت كل شيء .

وكان من مقتضيات لا إله إلا الله في ذلك الحين - وفي كل حين - الأخوة في الله ، والحب والبغض في الله ، والولاء والبراء في الله . . وكانت تلك كلها بالنسبة للبيئة العربية ، ولكل بيئة جاهلية في القديم والحديث ، أموراً مخالفة ومغايرة لعُرف البيئة . . ففي الجاهلية العربية كان رباط الدم هو الرباط الثابت الدائم الوثيق ، وكل رباط غيره إما ضعيف منقطع وإما غير موجود أصلاً . . وفي الجاهليات الحديثة أصبح البديل من رابطة الدم القريبة المحصورة رابطة القومية والوطنية التي تفاخر بها تلك الجاهليات وتتعصب لها على نفس الصورة التي كانت تفاخر بها الجاهلية العربية وتتعصب بها لرابطة الدم المتمثلة في القبيلة . . اختلاف في مدى السعة لا في الجوهر !

أما الحب والبغض في الجاهلية العربية وفي كل جاهلية فمداره المصالح ، وهي في الأغلب المصالح المادية القريبة ، ومداره من جهة أخرى «الأنا» : أنا ، وكرامتي ، ومالي ، وسلطاني ، وقومي ، وأتباعي إن كنتُ من «الملأ» ، أو سادتي إن كنتُ من المستضعفين !

وأما الولاء والبراء فهو صنو الحب والبغض ، لا ضابط له إلا تلك المصالح التي تكون اليوم هنا وتكون غداً هناك . . فهو لذلك دائم التقلب لا يثبت على حال ، وصداقات اليوم قد تنقلب غداً عداوة ، وعداوات اليوم قد تنقلب غداً صداقة ، لا لتغير في المبادئ ، ولا في القيم ، ولكن لتغير المصالح المؤقتة التي لا تثبت على حال . . والجاهليات كلها في هذا الشأن سواء !

ولم يكن مجرد الإيمان - بمعنى التصديق - بلا إله إلا الله ، والنطق بها ، ليؤدى تلقائيًا إلى تغيير جذرى فى تلك الأمور كلها ، التى يساندها عرف الجاهلية ، وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأخلاقية . . وإن كان الإيمان بلا إله إلا الله يهيئ النفس دون شك للتغيير وتقبل التغيير . أما المعايير الجديدة ، والقيم الجديدة ، والأوضاع الجديدة التى يُراد بناؤها فلا تتأتى تلقائيًا ، ولا تتم فى لحظة ، ولو كانت لحظة الإيمان ، وإنما تُبنى لبنة لبنة حتى يستقيم بها البناء الجديد . .

وذلك تقوم به التربية .

وذلك ما قام به المربى الأعظم ﷺ ، فى دأب ، وحدب ، ورعاية ، ومتابعة ، حتى وصل به إلى تلك القمم السامقة ، فأصبحت الأخوة فى الله أقوى فى نفوس القوم من رابطة الدم ، وأصبح الحب والبغض لا علاقة له بالمصالح الأرضية ، بل هو معها فى موضع التقابل الكامل ، والكفة الراجحة هى لما كان لله وفى الله ، وأصبح الولاء والبراء مرتبطًا بالقيم الإيمانية وحدها ، خالصًا لله .

وكان من مقتضيات لا إله إلا الله فى ذلك الحين ، وفى كل حين ، مجموعة من الفضائل الخلقية العالية ، كان بعضها موجودًا فى البيئة العربية ولكن الجاهلية كانت قد أفسدته فحَرَفَتْه عن مساره السوى . . كالشجاعة التى كانت الجاهلية قد حولتها حمية جاهلية ، كما جاء فى سورة الفتح[1] . . والكرم الذى كانت الجاهلية قد حرفته عن مساره السوى ، فأصبح إنفاقًا للمال رئاء الناس ، كما جاء فى سورة البقرة[2] ، فلزم تصحيح مسارها ، وردها إلى أصلها السوى فى الفطرة ، لكى تكون لله ، وفى الله . وبعضها لم يكن موجودًا فى الجاهلية العربية ، ولا يمكن أن يوجد فى أى جاهلية ، كمنع التظالم بين الناس ، وإقامة الحياة على القسط والعدل ، لا على قانون الغاب ، واحترام الإنسان من حيث هو إنسان ، بصرف النظر عن جنسه ولونه

---

(١) «إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية» (سورة الفتح : ٢٦)

(٢) «كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين» (سورة البقرة : ٢٦٤)

ولغته ووطنه ووضعه الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي، وهو أمر لا يمكن أن يتم إلا حين تتجرد النفس لله[1].

وليس قصدنا هنا أن نذكر كل مقتضيات لا إله إلا الله على سبيل الحصر، حتى بالنسبة لفترة التربية بمكة، إنما قَصَدْنا أن نقول: إنها لم تكن قط، منذ أنزلت من عند الله، مجرد التصديق والإقرار كما يزعم الفكر الإرجائي، وأن مجرد التصديق والإقرار، حتى حين كان علامةً على صدق الإيمان في أوائل الدعوة، حين لم يكن يقدم على مخاطره إلا المؤمنون حقًا، لم يكن بذاته يصنع شيئًا مما صنعته لا إله إلا الله في نفوس العصبة المؤمنة التي رباها رسول الله ﷺ، إنما صنعت ما صنعت حين آمن معتنقوها بمقتضياتها، وتربوا على مقتضياتها، وعملوا بها في عالم الواقع..

وليس قصدنا كذلك أن نقول: إن التربية على هذه المقتضيات هي العمل الفذ الذي قام به رسول الله ﷺ بالنسبة للقاعدة الصلبة خاصة، فهذا أمر مطلوب من كل مرب يتصدى لإنشاء قاعدة للدعوة في أية بقعة في الأرض، وفي أي فترة من الزمن إلى قيام الساعة، إنما العمل الفذ الذي قام به ﷺ هو الدرجة العجيبة التي أوصل إليها الصحابة رضوان الله عليهم في العمل بمقتضيات لا إله إلا الله، والتي التقى فيها الواقع بالمثال، والتي تحولت فيها المندوبات والمستحبات في نفوسهم إلى واجبات ومفروضات، يلزمون بها أنفسهم بغير إلزام من الله ورسوله، والدرجة العجيبة التي آمنوا بها باليوم الآخر فعاشوه في كل لحظة كأنه حاضر يشهدونه الآن، لا بعد آماد من الزمان، وهذا هو الذي تميز به ذلك الجيل الفريد على يد المربي الأعظم ﷺ، وليس مجرد الالتزام بمقتضيات لا إله إلا الله، الذي هو مطلوب من كل من تصدى للدعوة للا إله إلا الله!

* * *

---

(1) تزعم الديمقراطية أنها هي أول من قرر هذه المبادئ وطبقها بالفعل، وأعطى «الآخر» حق الوجود وحق التعبير عن نفسه! والجواب على ذلك هو ما وقع في البوسنة والهرسك، وفي بلاد الشيشان، وما يقع في الفلبين، وما يقع في كشمير، وما يقع في فلسطين، وما يقع في كل مكان يكون فيه مسلمون تحت حكم اليهود والنصارى، مقابلاً بما كان من القسط والعدل والتسامح من المسلمين لمن وقع تحت حكمهم من اليهود والنصارى!

ثم اتسعت رويداً رويداً مقتضيات لا إله إلا الله ، فشملت جوانب جديدة من النفس والحياة لم تكن داخلة فيها من قبل ، أنزلها العزيز العليم بعلمه وحكمته فى وقتها المقدر عنده ، وصار الالتزام بها واجبًا ، ولم تعد المقتضيات الأولى وحدها تحقق الإيمان .

يقول الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ - ٢٢٤هـ) فى كتاب «الإيمان»[١] ص ٥٤ وما بعدها .

«وإنا رددنا الأمر إلى ما ابتعث الله عليه رسوله صلى الله عليه ،[٢] وأنزل به كتابه ، فوجدناه قد جعل بدء الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فأقام النبى ﷺ بمكة بعد النبوة عشر سنين أو بضع عشرة سنة يدعو إلى هذه الشهادة خاصة وليس الإيمان المفترض على العباد يومئذ سواها ، فمن أجاب إليها كان مؤمنا ، لا يلزمه اسم فى الدين غيره ، وليس يجب عليه زكاة ولا صيام ولا غير ذلك من شرائع الدين . وإنما كان هذا التخفيف عن الناس يومئذ فيما يرويه العلماء رحمة من الله لعباده ورفقا بهم ، لأنهم كانوا حديث عهد بجاهلية وجفائها ، ولو حملهم الفرائض كلها معًا نفرت منه قلوبهم ، فجعل ذلك الإقرار بالألسن وحدها هو الإيمان المفترض على الناس يومئذ ، فكانوا على ذلك إقامتهم بمكة كلها ، وبضعة عشر شهرا بالمدينة بعد الهجرة ، فلما أناب الناس إلى الإسلام وحسنت فيه رغبتهم ، زادهم الله فى إيمانهم أن صرف الصلاة إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس . . فلو أنهم عند تحويل القبلة إلى الكعبة أبوا أن يصلوا إليها وتمسكوا بذلك الإيمان الذى لزمهم اسمه ، والقبلة التى كانوا عليها لم يكن ذلك مغنيا عنهم شيئا ولكان فيه نقض لإقرارهم ، لأن الطاعة الأولى ليست بأحق باسم الايمان من الطاعة الثانية . فلما أجابوا الله ورسوله إلى قبول الصلاة كإجابتهم إلى الإقرار ، صارا جميعا معًا هما يومئذ الإيمان ، إذ أضيفت الصلاة إلى الإقرار . . . فلبثوا بذلك برهة من دهرهم ، فلما أن داروا إلى الصلاة مسارعة ، وانشرحت لها صدورهم ، أنزل الله فرض الزكاة فى إيمانهم إلى ما قبلها فقال ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة

---

(١) حققه محمد ناصر الألبانى - طبع دار الأرقم بالكويت ، ١٤٠٥هـ .

(٢) كذا فى الأصل كما قال المحقق .

٨٣ ، ١١٠) وقال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة ١٠٣) فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار ، وأعطوه ذلك بالألسنة ، وأقاموا الصلاة غير أنهم ممتنعون عن الزكاة كان ذلك مزيلا لما قبله ، وناقضا للإقرار والصلاة ، كما كان إباء الصلاة قبل ذلك ناقضا لما تقدم من الإقرار . والمصدق لهذا جهاد أبى بكر الصديق رحمة الله عليه بالمهاجرين والأنصار على منع العرب للزكاة ، كجهاد رسول الله ﷺ أهل الشرك سواء ، لا فرق بينهما فى سفك الدماء وسبى الذرية واغتنام المال ، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها . ثم كانت شرائع الإسلام كلها ، كلما نزلت شريعة صارت مضافة إلى ما قبلها ، لاحقة به ، ويشملها جميعا اسم الإيمان ، فيقال لأهله مؤمنون . وهذا هو الموضع الذى غلط فيه من ذهب إلى أن الإيمان بالقول . . » .

* * *

إذا نظرنا إلى القاعدة الصلبة كما ربّاها رسول الله ﷺ ، نعود فنسأل ، لأى هدف كان الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه يبذل ذلك الجهد الضخم الذى بذله خلال ثلاثة عشر عامًا فى مكة ثم عشر سنوات فى المدينة ، لإخراج هذه النماذج الفذة من البشر؟ ألمجرد أن يُوجِدَ جماعةً مؤمنةً تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتقوم بعبادة الله؟!

بعض هذا الجهد الضخم كان يحقق هذا الهدف فى عالم الواقع ، وهو فى ذاته هدف نبيل يستحق أن يبذل فيه الجهد ، ولكن الرسول الأعظم ﷺ كان كما أشرنا من قبل يهدف إلى ما هو أكبر من ذلك وأجلّ . .

لم تكن مهمة هذه الجماعة مجرد القيام بعبادة الله على النسق الذى قامت به الجماعات المؤمنة من قبل ، إنما كانت مهمتها نشر التوحيد فى الأرض ، وإخراج الناس على مستوى البشرية كلها ، من عبادة العباد إلى عبادة الله ، كما عبّر ربعى بن عامر رضى الله عنه فى مواجهة رستم قائد الفرس ، وأحد كبار الطواغيت فى ذلك الزمان . . ومثل هذه الجماعة يحتاج إلى إعداد خاص ، لا كمجرد إيجاد جماعة من الناس تؤمن بالله واليوم الآخر وتعبد الله .

في عالم التجارة والصناعة يعلم الناس أن البضاعة المعدة للاستخدام المحلي غير البضاعة المعدة للتصدير، الأولى يمكن أن تكون على النحو الذي يؤدي الغرض بصورة من الصور، أما الأخرى فيجب أن تكون متقنة الصنع، إلى الحد الذي يجعلها تفرض نفسها على السوق، وتطرد ما دونها مما لا يرقى إلى مستواها.. فإذا كان هذا لازمًا بالنسبة للتجارة المادية الأرضية، فهو أولى بالنسبة للتجارة العليا التي قال الله عنها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف: ١٠ - ١١).

كان المطلوب لهداية البشرية جماعة فذة، فائقة التكوين، تشهد بسلوكها الواقعي لهذا الدين، أنه الدين الحق، وأنه الدين الذي يجب اتباعه، وأن كل شيء غيره لا يدانيه، ولا يصلح بديلاً عنه..

كان المطلوب إيجاد نسق من البشر يواجه الجاهلية بأكملها، لا ليقف إزاءها فحسب، ولكن ليستعلي عليها، وينقض بنيانها، وينشئ بناءً جديدًا في مكانها، يقوم على الأسس الصحيحة التي يقوم عليها بناء سليم.. وهذا هو الذي تم بالفعل على يدي رسول الله ﷺ..

لم تكن المواجهة مع الجاهلية العربية وحدها، وإن كانت هذه بحكم الواقع هي أول جاهلية واجهتها الدعوة في منطلقها الأول.. إنما كانت الأرض كلها تعيش في جاهلية سواء كانوا من الوثنيين، عباد النار وعباد الجن وعباد الأصنام وعباد الأفلاك وعباد الطواغيت، أو كانوا أهل دين سماوي وقع فيه التحريف والتبديل..

وفي مواجهة كل أولئك كان الدين الجديد، وكان رسوله ﷺ، وكانت الجماعة التي يقوم بتربيتها..

هل كان مجرد إنشاء جماعة مسلمة تعبد الله على استقامة كافيًا لمواجهة هذا كله؟ فضلاً عن تغييره، فضلاً عن إقامة الدين الصحيح في مكانه؟!

كلا ! لقد كان الأمر فى حاجة إلى جماعة فائقة التكوين ، تكون نواة للمجتمع الجديد ، وكانت هذه هى جماعة الرسول ﷺ : القاعدة الصلبة التى قام على أكتافها البناء ، والتى غيّرت بواقعها واقع الأرض .

تروى كتب السيرة الكثير عن تلك القاعدة الصلبة ، وعن المستويات الرائعة التى وصلوا إليها . . وما بنا هنا أن نترجم للصحابة رضوان الله عليهم ، وكتب السيرة فى متناول الجميع ، ولا أن نتحدث عن أعيانهم ، والحديث عنهم يحرك النفوس ويهزها هزًا ، لعظمتها وروعتها ، إنما نحن معنيون هنا بذكر المواصفات التى بُنيت عليها القاعدة الفذة ، من أجل التدبر والاعتبار .

ومع ذلك فأنا شخصيًا تهزنى نماذج بعينها ، لا أملك نفسى فى التأثر بها ، ليست كلها لكبار الصحابة رضوان الله عليهم ، بل بعضها لأشخاص يمر بهم التاريخ مرورًا عابرًا فى سطور قليلة ، مع روعتها ، ولا أرى بأسًا أن نقف عندها هنيهة .

* كانت امرأة تُصرع فتتكشف فى أثناء نوبتها ، فشكت ذلك إلى رسول الله وطلبت منه أن يدعو لها لتشفى من صرعها . فقال لها عليه الصلاة والسلام : «إن شئت دعوتُ لك ، وإن شئت صبرت ولك الجنة» . قالت : أصبر يا رسول الله ! ولكن ادع لى ألا أتكشف . فدعا لها ، فلم تعد تتكشف بعد ذلك [١] .

* اشتد الفقر برجل وزوجته ، فقال لها : إن رسول الله ﷺ يعطى المحتاجين ، فهلا سألناه أن يعطينا من المال الذى بين يديه؟ فقالت له : تريد أن تشكو الله إلى رسوله ﷺ ؟ فصبرت وصبر .

* مر عمر رضى الله عنه وهو يعس ليلاً يتفقد أحوال رعيته ببيت سمع فيه بكاء صبية صغار ، فدخل فوجد امرأة تضع قدرًا على النار تحركه ، وحولها صبية يتضاغون ، فسألها ما يبكى الصبية؟ قالت : الجوع . قال : وما هذه القدر؟ قالت : أضع فيها حصوات أقلبها حتى ينام الصبية ، فإنه لا طعام لدينا ، وعمر لا يأبه بنا ، وهى لا تعرف أنه عمر ، فقال لها : وما يدرى عمر بك؟ قالت : وفيم إذن تولى أمر المسلمين؟ فبكى عمر ، وذهب إلى بيت المال ، ومعه تابعه ، فحمل دقيقًا وسمنًا

---

(١) رواه مسلم .

وعاد إلى بيت المرأة، فيقول له تابعه، دعني أحمل عنك يا أمير المؤمنين! فيقول: ومن يحمل عني يوم القيامة! ثم يضع الدقيق والسمن في القدر، وينفخ النار حتى يتخلل الدخان لحيته الكثيفة.. ولا يغادر المكان حتى يرى الصبية قد أكلوا وشبعوا وناموا.

* خرج أحد المقاتلين إلى المعركة مشوقًا إلى الجنة، مشوقًا إلى الشهادة، وفي يده تمرة ـ أو تمرات ـ فلم يطق صبرًا حتى ينتهي من أكلها، فألقاها من يده وهو يقول: لئن بقيتُ حتى أنتهي من هذه إنه لأمرٌ يطول! ودخل المعركة فنال الشهادة التي كان يسعى إليها.

* لبس أحد المجاهدين زرد الحرب استعدادًا للمعركة فقال له صاحبه: إن هناك ثلمة في الزرد عند العنق يخشى أن ينفذ منها السهم، فقال لصاحبه باسمًا: إني لكريم على الله إن أصبت في هذا الموضع! ودخل المعركة فأصابه سهم في الثلمة فأكرمه الله بالشهادة..

والأمثلة لا تنتهي.

* * *

ربما كان خير طريقة لتحديد المواصفات التي نشأت عليها القاعدة الصلبة أن نُجَمِّع الأوصاف التي وصف بها الله ورسوله هذه الجماعة الفذة، أو الأوامر التي أمرهم بها الله ورسوله فالتزموا بها أروع التزام، أو التوجيهات التي وجههم إليها الله ورسوله فسارعوا إلى تنفيذها، فهي في مجموعها هي المواصفات الحقيقية التي قامت عليها القاعدة.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ١ ـ ١١).

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد : ١٩ ـ ٢٤).

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٢ ـ ٤).

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٧١).

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (التوبة : ٨٨).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤).

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٦).

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة : ١١٢).

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٣٥).

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح : ٢٩).

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩).

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ (الشورى : ٣٧ـ٤١).

﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩).

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨).

﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ

جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (الأنفال: ٦٢ - ٦٣).

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ (النساء: ١٣٥).

﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (المائدة: ٨).

﴿ الم (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ (البقرة: ١ - ٥).

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (١).

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٢).

«إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالأنساب، كلكم لآدم وآدم من تراب» (٣).

«ليس الشديدُ بالصُّرعة ولكن من يملك نفسه عند الغضب» (٤).

«وتبسمك في وجه أخيك صدقة» (٥).

«إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها» (٦).

«مَثَلُ القائم في حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من

---

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أبو داود والترمذي.
(٤) أخرجه الشيخان.
(٥) رواه الترمذي.
(٦) رواه أحمد.

فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ولو أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1].

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدَّ أحدُكم شفرته وليُرحْ ذبيحته»[2].

«ألا إني أتقاكم لله وأخشاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3].

* * *

على هذه المواصفات الفذة، وفي أعلى درجاتها، قامت القاعدة الصلبة التي أنشأها رسول الله ﷺ، فماذا فعلت في واقع الأرض؟

لقد كانت بادئ ذي بدء، هي النواة التي تجمع حولها المسلمون في شبه الجزيرة العربية، محضن الدعوة الأول، أو قل بلغة العصر: النواة التي تجمعت حولها القاعدة الجماهيرية، التي تحركت بها الدعوة إلى الآفاق..

إنه لابد لكل دعوة فاعلة في واقع الأرض أن يكون لها قاعدة جماهيرية، تتحرك بها، وتتحرك من خلالها، ولكن هذه القاعدة لا تتجمع بالحجم المطلوب، إلا حول قائد مرب، ونواة صلبة متماسكة ذات إشعاع قوي يغري «الجماهير» بالتجمع والالتفاف، ولكنها ـ في واقع الأمر ـ لا تكون على ذات المستوى الذي تكون عليه الصفوة التي يربيها القائد، ويوليها عنايته الخاصة، ويجتهد في توجيهها ومتابعة أحوالها.

ومجتمع الرسول ذاته ﷺ لم يكن كله على المستوى، فقد كان يشتمل كما جاء في كتاب الله على «المثَّاقلين» و«المبطئين» وضعاف الإيمان، والمستطارين الذين تهزهم الشاردة والواردة، وهذا كله بخلاف المنافقين الصرحاء والمستترين!

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) رواه مسلم والنسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجة.

(٣) رواه الشيخان.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ (التوبة : ٣٨).

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : ٧٢ ـ ٧٣).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء : ٧٧).

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء : ٨٣).

أما المنافقون فحدّث عنهم ولا حرج . .

فإذا كان هؤلاء كلهم كانوا في مجتمع الرسول ﷺ والرسول بين ظهرانيهم، والوحي يتنزل متتابعًا يوجه الخطى، ويصحح المشاعر والسلوك، فقد تبين إذن أن «القاعدة الجماهيرية» لا يمكن أن ترتفع كلها إلى المستوى، ولا يمكن أن تكون كلها كالصفوة التي تنصب عليها عناية القائد المربي . . ولكن الواقع التاريخي يقول : إن القاعدة الصلبة التي رباها رسول الله ﷺ على عينه، وأولاها رعايته وعنايته، كانت من الصلابة ورسوخ الإيمان وصدق التوجه بحيث حملت كل أولئك وسارت بهم إلى أهدافها، لا يقعدها المثاقلون ولا المبطئون، ولا ضعاف الإيمان، ولا الخفاف المستطارون، ولا حتى المنافقون، ولا حتى الأعداء الصرحاء! وتلك هي العبرة من إيجاد القاعدة الصلبة الراسخة الإيمان الرفيعة المستوى، لأنه بدونها لا تجد «الجماهير» مَن يرفعها إلى أعلى كلما جنحت إلى الهبوط، أو يقوّم خطواتها كلما جنحت إلى الانحراف، أو يهديها إذا ضلت الطريق.

القاعدة الصلبة إذن ضرورة، وليست ترفًا، أو أمرًا زائدًا عن الحاجة، أو شيئًا يمكن السير بدونه مسيرة صحيحة.

* * *

ثم كانت القاعدة الصلبة التى ربّاها رسول الله ﷺ، وأسند إليها قيادة «الجماهير»، سواء القيادة العسكرية فى القتال، أو القيادة الأخلاقية فى التعامل الفردى، أو القيادة الاجتماعية فى تشكيل علاقات المجتمع، أو القيادة الفكرية فى توعية الناس بحقيقة الإسلام، بالقدوة وبالكلمة، كانت هذه القاعدة هى التى واجهت الجاهلية فى الجزيرة العربية وهزمتها، وألغت وجودها، ونقضت بنيانها، وأقامت البناء الجديد فى مكانه.

ولم يكن ذلك أمرًا هينًا فى الحقيقة.

والذى يتتبع وقائع التاريخ، والذى يتدبر آيات القرآن التى تصف المعركة بين الحق والباطل، يعلم كم من الجهد بذل فى تلك المعركة الهائلة حتى انحسمت فى نهاية الأمر لصالح الدين الحق، سواء الجهد النفسى فى الصبر على لأواء المعركة وتجنيد النفس لها، أو الجهد البدنى أو المادى، وكم من التضحيات، وكم من البطولات، وكم من المثل الرائعة تحققت فى واقع الأرض.. ويعلم المكانة الحقيقية للقيادة النبوية المباشرة للصفوة، وقيادته ﷺ «للجماهير» بمعاونة الصفوة، ويعلم أخيرًا مكانة القاعدة الصلبة فى هذا الجهاد كله، الذى غيّر واقع الجزيرة العربية، ثم غيّر واقع الأرض.

لم تكن المعركة هينة وهى تواجه عقائد فاسدة، وقيمًا فاسدة، وأعرافًا فاسدة، وأنماطًا من السلوك فاسدة، ونفوسًا أفسدها الانحراف العقدى والقيمى والعرفى والسلوكى، ثم استنامت إلى انحرافها، تحسبه هو الحق، وهو الصواب، وهو الشىء الذى يجب المحافظة عليه، والقتال دونه!

ولأمر ما شبه الله الصراع بين الحق والباطل بما يوقدون عليه فى النار: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ

حلية أو متاع زبدٌ مثله كذلك يضربُ اللهُ الحقَ والباطل فأمّا الزّبدُ فيذهبُ جُفاءً وأمّا ما ينفعُ النّاسَ فيمكثُ في الأرْضِ كذلك يضربُ اللّهُ الأمْثال ﴾ (الرعد : ١٧).

إنها نار حقيقية! نار تلذع! نار تكوى! نار تصهر . . يحتملها المؤمنون بالصبر والعزيمة والتوكل والتوجه إلى الله، ثم يكون من نتائجها نفى الخبث أولاً من قلوب المؤمنين المجاهدين الصابرين، حين تتمحص نفوسهم ويتجردون لله، ثم نفى الخبث من الأرض حين يزهق الباطل، وتذهب انتفاشته وصولته وطغيانه، ويحكم الحق . .

وقامت قاعدة الصلبة بدورها كاملاً فى كل ذلك، حتى استقر الأمر فى الجزيرة للإسلام.

ثم قامت القاعدة الصلبة بدور أوسع . .

الجزيرة العربية هى القاعدة، هى المحضن، هى المنطلق، ولكن الهدف هو كل الأرض!

لقد نزل هذا الدين للناس كافة، والمؤمنون فى الجزيرة العربية بقيادة الرسول ﷺ هم الهداة للبشرية، الدعاة الذين يدعونها إلى الدين الحق، المعلمون الذى يعلمونها كيف تكون حقيقة الدين : ﴿ وكذلك جعلناكُم أُمّةً وسطاً لتكونوا شُهداءَ على النّاسِ ويكُونَ الرّسُولُ عليكُمْ شهيداً ﴾ (البقرة : ١٤٣). ﴿ ولتكن منكُمْ أُمّةٌ يدْعُون إلى الخيْر ويأمُرُون بالمعْرُوفِ وينْهوْن عنِ المُنكَر وأولئك هُمُ المُفْلحُون ﴾ (آل عمران : ١٠٤).

ولم يكن ذلك بالأمر الهين . .

إن التاريخ يركز عادة على المعارك التى تدور بين الجيوش.

وحقيقة إن معارك الجيوش هى التى تحسم فى النهاية نتيجة الصراع، ولكن النظر إلى الأمر على أنه صراع حربى فحسب، تقرره الجيوش فى ميدان القتال، يخفى جانبًا مهما من حقيقة الصراع، ويحصره فى حيز ضيق، ويلغى أمرًا على جانب

كبير من الأهمية، أو يصغر من شأنه، وهو أمر العقائد والقيم التى يدور من أجلها الصراع.

إن الصراع ـ بلغة العصر ـ هو صراع حضارى فى حقيقته، صراع بين الحضارة السليمة والحضارة الفاسدة، بين الحضارة الإيمانية والحضارة الجاهلية، صراع شامل، يشمل كل جوانب النفس، وكل جوانب الحياة، وإن كان الصراع الحربى هو الذروة التى تحسم النتيجة، ولو إلى حين!

لقد تغلب التتار فى فترة فى فترات التاريخ واكتسحوا الأرض، ولكنهم لم ينشئوا حضارة، بل الأجدر أن نقول: إنهم هدموا الحضارة وأنشئوا بدلاً منها طغياناً وكفراً.. حتى قدّر الله لهم أن يدخلوا فى الإسلام.

ولقد تغلبت جيوش الغرب فى التاريخ الحديث، واكتسحوا الأرض، ولكنهم لم ينشئوا حضارة حقيقية تستحق أن توجد، وتستحق أن تعيش، على الرغم من كل التقدم المادى والعلمى والتكنولوجى الذى يملكونه، بل نشروا فى الأرض قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق، ونشروا الفساد العقدى والفساد الخُلُقى على أبشع صورة عرفتها جاهلية فى التاريخ.

ليس الصراع الحربى هو حقيقة الصراع، أو قل ـ على أقل تقدير ـ ليس وحده هو حقيقة الصراع، إنما حقيقة الصراع هى القيم التى تقاتل من أجلها الجيوش، والتى ينشرها أصحابها حين تنتصر الجيوش! وفى هذا يتميز الفتح الإسلامى عن كل الحركات التوسعية فى التاريخ.

لم تكن شهوة التوسع، ولا شهوة امتلاك الأرض، ولا شهوة القهر والإذلال للآخرين هى التى حركت الجيوش العربية للفتح، إنما كان الهدف ـ بأمر من الله ـ هو نشر التوحيد فى الأرض، وإزالة الجاهلية وطغيانها، لتكون كلمة الله هى العليا، ويكون الدين لله: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال: ٣٩).

هو كما قال ربعى بن عامر رضى الله عنه لقائد الفرس: إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة..

حركة حضارية عليا لتحرير الإنسان من عبادة الطاغوت إلى عبادة الله، ومن اعتناق الوهم إلى اعتناق الحقيقة، ومن الجور والظلم إلى العدل والقسط، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلمات إلى النور..

ما من حركة حضارية فى التاريخ صنعت ما صنعه الفتح الإسلامى.

وليست الروعة فيه كامنة فى عبقرية القتال وحدها، التى انتصر فيها رجال محدودو العدد والعدة على أضعاف أضعافهم فى العدد والعدة وفنون القتال والإمكانات المادية من الفرس والروم، مما لا تفسير له - بعد عون الله سبحانه وتعالى ومدده - إلا أثر العقيدة الصحيحة فى الله واليوم الآخر فى نفوس معتنقيها، وإلا التربية على حقائق العقيدة الصحيحة، التى مكنت هؤلاء الرجال المحدودى العدد والعدة من الوصول إلى المحيط غربًا والهند شرقًا فى أقل من نصف قرن، وهى سرعة لا مثيل لها فى التاريخ.

ليست الروعة كامنة فى عبقرية القتال وحدها، وإنها - بذاتها - لأمر هائل فى ميزان التاريخ، ولكن الروعة الكبرى هى فى فتح القلوب للإسلام، ودخول الملايين فى الدين الحق، بغير إكراه!

لم يكن القتال قط لإكراه الناس على الدخول فى الإسلام: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).. إنما كان القتال لإزالة الجاهلية، ممثلة فى عقائد جاهلية تقوم عليها نظم جاهلية تحميها جيوش جاهلية، فإذا أزيلت هذه فالناس أحرار بعد ذلك يختارون لأنفسهم ما يشاءون: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وأما «الآخر» الذى يريد أن يحتفظ بدينه، وهو على غىٍّ واضح، فهو امن على نفسه ودينه وكيانه كله، ما لم يتعرض للمؤمنين بالأذى والقتال: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨).

وهذه الملايين التى دخلت فى الإسلام بغير إكراه، إنما دخلت فيه حين رأته ممثلاً فى بشر يعتنقونه ويمارسونه بالفعل، بشر تربّوا على حقيقة الإسلام، فترجموه إلى واقع مشهود يُعْجب الناظرين إليه، فتهفو له قلوبهم فيدخلون فيه. ولو لم يكونوا على هذه الصورة الوضيئة ما دخل الناس فى الدين الجديد بهذه الكثرة فى ذلك الزمن القصير، ولو غُلبوا فى ميدان القتال، فالسيف قد يفتح الأرض، ولكنه لا يفتح القلوب! وإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وهو رسول الله، فكيف بالبشر الفاتحين إذا لم يكونوا على خلق قويم؟!

إن تحول شعوب بأكملها إلى الإسلام فى تلك اللمحة الخاطفة من الزمان لهو أثر من آثار تلك التربية الفذة التى ربّى عليها رسول الله ﷺ تلك القاعدة الصلبة، التى أولاها رعايته وعنايته، لتكون ستاراً لقدر الله يفعل بها الله ما يشاء سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (الصف: ٩).

ولم تكن روعة الفتح محصورة فى دخول تلك الأم فى الإسلام بهذه السرعة الخاطفة، ولكن كانت كذلك فى العدل المثالى الذى تعامل به المسلمون ـ الذين رباهم رسول الله ﷺ بالإسلام ـ مع البلاد المفتوحة، حتى مع من بقى على دينه منهم، وقصة عمر رضى الله عنه مع والد الشاب القبطى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص بالعصا شهيرة فى التاريخ، وكلمته التى قالها لعمرو: «يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» شهيرة كذلك، وفذة فى التاريخ!

ولم تكن هذه وتلك هى حدود تلك الروعة الهائلة، فقد كان دخول أمم بأكملها فى اللسان العربى ـ دون إكراه ـ عجيبة لا مثيل لها فى التاريخ، فقد نسيت تلك الشعوب لسانها، حتى مَن بقى منهم على دينه، وصارت لغتها هى العربية، بها تتخاطب وبها تفكر وبها تؤدى عبادتها!

وأخيراً وليس آخراً فقد كانت العناية الفائقة من رسول الله ﷺ بتربية القاعدة الصلبة هى الضمان ـ بعد الله سبحانه وتعالى ـ لاستمرارية المنهج، بعد أن يمضى مُؤَسِّسُهُ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، والخلافة الراشدة ـ بكل ما حوت من المثل

الرفيعة فى كل مجال من مجالات الحياة ـ هى مصداق هذه الحقيقة، فقد كانت هى الامتداد الواقعى لمنهج الرسول ﷺ، بعد انقطاع الوحى، وغياب القائد العظيم ﷺ بشخصه عن العيون.

وصحيح أن هذه الفترة لم تدم طويلاً، وما كان مقدراً لها أن تدوم، ولكن الهبوط عنها لم يكن هبوطًا عن الإسلام ولا نهاية للإسلام، كما يرجف المستشرقون وأعداء هذا الدين عامة، إنما كانت هذه الفترة تحليقًا فى آفاق سامقة العلو، يعتمد كثير من أعمالها على التطوع النبيل بما هو فوق الإلزام الملزم، المفروض من عند الله ورسوله، فإذا هبط الناس بعد ذلك إلى أرض الالتزام أو قريبًا منها فما هبطوا فى الحقيقة، إنما تراخت أجنحتهم عن التحليق فحطوا على الأرض الصلبة يسيرون على الأقدام! وحسبهم ـ بعد أن هبطوا من التحليق فى تلك الذرى العالية ـ ما قاموا به من نشر التوحيد فى الأرض، وما أمدوا به البشرية من قيم حضارية عالية، ظلت أوروبا تقبس منها حتى القرن السابع عشر الميلادى، أى بعد الذروة بأكثر من عشرة قرون!

ولم تكن تلك الفترة مع ذلك مجرد برق لامع أضاء هنيهة ثم اختفى، فضوءه اللامع ما زال ينير الطريق حتى هذه اللحظة، وإلى ما شاء الله بعد! إنها ما تزال ـ بمثاليتها الواقعية ـ مدداً للأجيال، يتملاها كل جيل، فيحاول أن يرتفع إليها. فإن لم يصل بالفعل فحسبه الاتجاه إلى الصعود، فهو دائمًا خير من التقاعس الذى يؤدى حتمًا إلى الهبوط بحكم ثقلة الأرض، وجذبها لمن يركن إليها. وكل حركات الإصلاح والبعث فى تاريخ الإسلام ـ وما أكثرها، والحاضرة واحدة منها ـ إن هى إلا أثر من آثار تلك الفترة اللامعة التى ما يزال ضوءها ينير الطريق. ومن أجل ذلك بالذات يسعى المستشرقون وأعداء الإسلام عامة إلى محاولة تشويه تلك الفترة ليطمسوا ذلك النور اللامع، ويمنعوا إشعاعه من الوصول إلى الأجيال التى تستضىء به فتنهض إلى الصعود من جديد، وهيهات لجهدهم الخبيث أن يفلح، فهم يعاندون قدر الله: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصف: ٨).

* * *

وهنا يحضرنا أمر له أهميته البالغة في تربية الرسول ﷺ لتلك القاعدة الصلبة، وهو كثرة مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه.

ونسأل بادئ ذي بدء: هل كان رسول الله ﷺ في حاجة إلى المشاورة والوحي يتنزل عليه بما يشاء الله أن ينزله من البيان، ويصحح مسار الجماعة المسلمة كلما همت أن يقع منها انحراف؟ بل يصحح للرسول ﷺ نفسه بعض ما يقع منه من تصرفات، كتصرفه مع ابن أم مكتوم، وكتصرفه في أسرى بدر؟

كلا! ما كان الرسول ﷺ في حاجة إلى المشاورة، وهو يقوم بأعباء الدعوة، ويدير حياة الجماعة المؤمنة سواء في مكة أو في المدينة. إنما هي التربية ومستلزماتها.

إن التربية على السمع والطاعة وحدهما تخرّج جنوداً ملتزمين، ولكنها لا تخرّج قادة!

ولقد كان الالتزام بأمر الرسول ﷺ عبادة مفروضة من عند الله: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠). ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤). ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر: ٧). ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (النساء: ٥٩). ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣). ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ (التوبة: ١٢٠).

ولكنه ﷺ لم يكن يريد من أصحابه فقط أن يكونوا جنوداً ملتزمين بأمر قائدهم، والالتزام بأمره هو الفلاح والنجاح، فضلاً عن كونه عبادة مفروضة، إنما كان يريد أن يجعل منهم قادة للبشرية، تحقيقاً لقدر الله بهم، ومراده سبحانه وتعالى من إخراج هذه الأمة: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

والتدريب على القيادة والريادة لا يكون إلا بالمشاورة من القائد للذين يربيهم..

المشاورة هي التي تولد فيهم الوعي وتنميه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

وواضح من سياق الآية أن البصيرة شيء قائم بذاته مطلوب بذاته إلى جانب الإيمان ، الذي يعبّر عنه في الآية بقوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

الإيمان مطلوب نعم ، ولكن البصيرة مطلوبة كذلك ، للتحرك بهذا الدين في عالم الواقع ، لكي تؤتي الحركة ثمارها كاملة بإذن الله ، ولا يتبدد الجهد كله أو جزء منه في حركة خاطئة ، أو فيما لا طائل وراءه .

والمشاورة من القائد لأتباعه تعوّد الأتباع أن يفكروا بعقولهم في المواقف المختلفة ، والآراء المختلفة ، ليختاروا أصوبها وأليقها بالموقف الذي يُراد اتخاذه ، كما تعوّدهم كذلك على تحمّل المسئولية ، فالرأي مسئولية بجانب كونه أمانة . . وحين تتكرر المشاورة ، ويتكرر التفكير والتمحيص مع تحمل المسئولية يكون الإنسان قد أعدّ لمواجهة المواقف العملية حين يكون فيها ، فلا تنفر مشاعره من المواجهة ، ولا يتهيب المسئولية ، وتلك هي الصفات المطلوبة في القائد الناجح . وليس كل إنسان بطبيعة الحال يكون قائدا ناجحا . ولكنك لن تتعرف على الشخص المؤهل لأن يكون قائدا ناجحا حتى تتيح الفرصة لمجموعة من الناس - الذين تقوم بتربيتهم - لكي يتلقوا التدريب المطلوب ، فتتضح مقدراتهم ويبرز منهم من هو مؤهل للبروز . . أما إذا ربيتهم على السمع والطاعة في الأمور كلها ، فلن يتهيأ لأحد أن يكتسب الخبرة المطلوبة ، وحين تسند إليهم المسئولية يضطربون ثم يفشلون ، وتنتكس المسيرة على أيديهم بعد ذهاب القائد المحنك ، ولو كانوا في حياة القائد من الجنود المخلصين !

ومن هنا يتضح حرص الرسول ﷺ على مشاورة أتباعه ، وهو الغني عن المشاورة ، لأنه كان يعدّهم - على علم - لأن يكونوا من بعده قادة محنكين ، أو في القليل مستشارين صائبي الرأي ، لتستمر المسيرة بعده ولا تتوقف ، ولا تنتكس بعد غياب القائد الملهم العظيم .

* * *

تلك هي القاعدة الصلبة التي رباها رسول الله ﷺ ، وهذا دورها في التاريخ .

لم يكن إنشاؤها ترفًا ، ولا كان الجهد الضخم الذي بذله رسول الله ﷺ في تربيتها أمرًا زائدًا على الضرورة ، بل كان بإلهام الله وعونه وتوفيقه ، ألزم شيء لهذا الدين ، وللشأن الهائل الذي أنزل الله من أجله هذا الدين .

والآن فلننتقل إلى واقعنا المعاصر ، لنتعرف على صورته الحقيقية ، وعلى موضع القدوة فيه من منهج الرسول ﷺ في تربية القاعدة الصلبة التي حملت أول مرة أعباء هذا الدين .

ما حال الجاهلية اليوم؟

يقول ابن تيمية رحمه الله : «فأما بعدما بعث الرسول ﷺ ، فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار الكفار ، وقد تكون في شخص دون شخص ، كالرجل قبل أن يسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام . فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة . والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين ، وفي كثير من المسلمين »[1] .

فإذا كان هذا في القرن الثامن الهجري والمسلمون بعدُ متمسكون بكثير من أمور دينهم ، وإن كانوا مفرطين في كثير . . فكيف لو رأى ابن تيمية رحمه الله واقعنا المعاصر . . ماذا كان يقول فيه ، وقد فشت بدعة التشريع بغير ما أنزل الله ، والمنع والإباحة بغير ما أنزل الله ، فأصبح تحكيم شريعة الله ممنوعًا بنصوص الدساتير ، والمطالبة به جريمة تطير من أجلها الرءوس ، ويعذب من أجلها الألوف ومئات الألوف في السجون . . وأصبح عُرى النساء أصلاً من الأصول ، وتحجبهن ـ كما أمر الله ـ بدعة منكرة تهاجمها وسائل الإعلام بشتى وسائل الهجوم . . وأصبح «القانون» يحمي ارتكاب الفاحشة ما دام يتم برضى الطرفين ، كأنما الطرفان ـ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٧٨ ـ ٧٩ .

وحدهما ـ هما أصحاب الشأن في القضية، والله سبحانه وتعالى لا دخل له، ولا يجوز له في عُرف الجاهلية أن يكون له دخل في الأمر، وليس هو سبحانه الذي يمنع ويبيح، وأصبح الولاء والبراء في الله ولله قضية من قضايا التعصب المقيت، لا يتقبلها ذوق العصر، فقد أصبح العالم بفضل وسائل الاتصال كالقرية الواحدة، لا يجوز لأحد أن يشذ عن أعرافها وتقاليدها وأفكارها بحجة من الحجج، والدين خاصة هو أشد الحجج مقتًا وإغراقا في التعصب المقيت! وأصبح.. وأصبح.. وأصبح..!

كيف كان ابن تيمية رحمه الله سيقول لو رأى الواقع المعاصر في الغرب، وفي كثير من أقطار الإسلام؟

«بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء»[1].

ما المطلوب من الغرباء اليوم؟ وما ذلك الشيء العظيم الذي يستحقون عليه هذه الكرامة عند الله؟

إن كل جهد يقوم به الغرباء لإزالة الغربة الثانية للإسلام مأجور عند الله، بنص كتابه الكريم: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١).

ولكن هذا لا يمنع أن يكون للغرباء خطة يسيرون عليها، وأولويات يرتبونها في العمل الذي يقومون به لإزالة الغربة عن الإسلام في واقعه المعاصر.

فهل يصلح العمل بغير قاعدة صلبة تنتقل الدعوة منها إلى الجماهير.

نقول بادئ ذي بدء: إننا لا نطمع ـ ولا يطمع أحد ـ في إنشاء قاعدة على مستوى القاعدة التي أنشأها رسول الله ﷺ، سواء بالنسبة للقاعدة الصلبة أو القاعدة

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

الجماهيرية . . ومع ذلك فهناك مواصفات ضرورية لا يقوم البناء بدونها مهما كلفنا توفيرها من الجهد ومن الزمن ومن المعاناة . .

إننا لا نطالب أحداً أن يحلّق في الآفاق العليا التي حلّق فيها صحابة رسول الله ﷺ في تمكن وقوة، فذلك أصلاً غير ملزم لأحد . . وإن كان هناك أفراد على مدى التاريخ الإسلامي لم ينقطع مددهم قط، يرتفعون بأنفسهم إلى تلك الآفاق، ولكنا نطلب السير بالأقدام على أرض الالتزام، أو حتى قريباً منها، لكي يكون عملنا مقبولاً عند الله، ومؤهلاً بإذن الله للنجاح.

فما المواصفات المطلوبة في القاعدة الصلبة، التي تقوم بدورها بإنشاء القاعدة الجماهيرية وتوجيهها وتربيتها . .

هل يصلح لها أي إنسان بمجرد أن يؤمن بالله واليوم الآخر، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويكون من الخاشعين؟ إن هذه كلها مواصفات عظيمة، وكلها مطلوبة، ولكن على أي درجة هي مطلوبة؟ وهل هي وحدها المطلوبة بالنسبة للقاعدة الصلبة خاصة؟

ضربت فيما سبق مثلاً، أعيد الإشارة إليه هنا مرة أخرى . . لو سألت إنساناً في الطريق : مَن الذي يرزقك؟ فسيقول بلا شك : الله! فلو أوذي في رزقه فقال : فلان من الناس يريد أن يقطع رزقي، فهل يكون الإيمان بتلك الحقيقة، وهي أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، قد تعمق في حسه حتى أصبح يقيناً قلبياً يترتب عليه سلوك؟ أم يكون في حاجة إلى تعميق إيمانه حتى يصل إلى درجة اليقين؟ وكذلك حقيقة أن الله هو الضار النافع، وهو المحيي المميت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ (العنكبوت : ١٠).

هل يصلح هذا لبنة في القاعدة الصلبة التي تحمل البناء؟ وهل يثبت في الابتلاء، والابتلاء سنة من سنن الله : ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت : ١ ـ ٣).

والفتنة ليست بالعذاب وحده، فهذه قد يحتملها كثيرون: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

وفتنة الخير أخطر، لأنها تعصف بكثير من الناس، يصمدون فى فتنة العذاب، ولكنهم لا يقوون على الصمود أمام إغراء المال والسلطة والجاه والمناصب وكثرة الأتباع والأعوان.. فهل كل من ثبت فى محنة يصلح أن يكون لبنة فى القاعدة الصلبة فضلاً عن أن يكون من قياداتها؟

واضرب هنا مثلاً آخر أشرتُ إليه من قبل فى كتاب واقعنا المعاصر:

الأخوة معنى من المعانى الجميلة التى يمكن أن يصاغ حولها الكلام المنمق المؤثر العذب، وهى من معانى الإسلام الأصيلة، ومن الركائز التى اهتم الرسول ﷺ بترسيخها فى القاعدة الصلبة التى أنشأها حين آخى بين المهاجرين والأنصار، فصارت أخوة أقوى فى نفوسهم من أخوة الدم، وهى أوثق ما كانت توثّقه الجاهلية العربية.

وكما قلت فى كتاب (واقعنا المعاصر): الأخوة يمكن ممارستها بسهولة والناس فى سعة من أمرهم، فهى لا تكلف كثيراً فى تلك الحالة، ولكن إذا ضاقت الطريق بحيث لا أستطيع أن أسير وأخى متجاورين، بل لابد أن يتقدم أحدنا على الآخر، فهل أقدّم نفسى أم أقدّم أخى؟ ولا حاجة بنا للارتفاع إلى المستوى السامق الذى يضيق فيه الطريق أكثر، فتصبح الفرصة متاحة لواحد دون الآخر، إما أنا وإما أخى، فذلك مستوى غير ملزم، وهو الذى وصفه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩).. والذى كان شيئًا عاديًا فى هذه القاعدة التى أنشأها رسول الله ﷺ، وأصبح اليوم شيئًا بعيد المنال.

* * *

ولكنى أركز هنا على أمرين اثنين بالذات، مما تحتاج إليه القاعدة الصلبة التى يُراد منها اليوم أن تواجه الجاهلية العاتية المحيطة بالإسلام من كل جانب: التجرد لله، والوعى: الحركى والسياسى.

من مداخل الشيطان إلى نفوس ذوى المواهب خاصة، فتنة «الذات»، فتنة «الأنا». حين يكون الإنسان جندياً فى الصف يكون أبعد عن كيد الشيطان منه حين يبدأ يبرز بمواهبه، وتكون له مكانة خاصة، فهنا يجد الشيطان فرصة أكبر للغواية! وكلما برز الإنسان كانت محاولة الشيطان لإغوائه أشد!

وتكون الفتنة فى عنفوانها حين يتهيأ الإنسان لمركز من المراكز القيادية، أو لمركز الزعامة ذاته.. هنا يختلط الأمر فى كثير من النفوس إذا لم تكن قد تربّت على التجرد لله، بين الدعوة وبين «الأنا» القائمة بالدعوة.

أنا ممثل الدعوة! أنا الذى تتوفر فىّ الصفات المطلوبة للقيادة! إذن فما يصيب شخصى يصيب الدعوة! وما يريحنى وترتاح إليه نفسى هو صالح الدعوة! هكذا يتدسس الشيطان إلى النفوس، فيجعل ذواتنا مركز اهتمامنا ومركز تحركنا.

إن فلاناً يقف فى طريقى، يناوئنى أو يعارضنى، أو لا ترتاح إليه نفسى.. إذن فوجوده ليس فى صالح الدعوة، بل قد يكون خطراً على الدعوة! لابد من وقفه عند حده! لابد من تحجيمه! إن لم يكن الأفضل فصله من الجماعة، لتسير الدعوة فى طريقها المستقيم، أى الطريق الذى يكون فيه عزى وجاهى وسلطانى!

آفة من أشد آفات العمل الإسلامى، آفة أدت فى الجهاد الأفغانى إلى إهدار دم مليون ونصف مليون شهيد، والعبث بمقدرات أمة، وضياع أمل تعلق به المسلمون فى كل الأرض! ومازالت تتسبب فيما يصيب بعض الجماعات من تشقق وتحزب وتشرذم وعداوة وخصام، وإن تلفع الخصام بخلاف على المبادئ أو الخطط أو الأساليب!

حين نكون متجردين لله نحتمل النقد سواء كان لأشخاصنا أو لأفكارنا أو لتصرفاتنا..

ونضرب مثلاً من جماعة الذروة، لا لأننا نعتقد أنه يمكن أن يوجد فى عصرنا الحاضر! ولكن فقط لننظر كيف يفعل التجرد لله فى نفوس البشر، فيرفعهم إلى تلك الذرى العالية، وهم بعد بشر ما يزالون لم يصبحوا ملائكة، ولا توقع منهم أحد أن يصبحوا ملائكة!

قام عمر رضي الله عنه على المنبر فقال: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا! فقال له سلمان الفارسي رضي الله عنه: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة! قال عمر: ولِمَ؟ قال: حتى تبين لنا من أين لك هذا البُرد الذي اتزرت به وأنت رجل طوال لا يكفيك بُرد واحد، كما نال بقية المسلمين! فنادى عمر ولده عبدالله فقال له: نشدتك الله! هذا البُرد الذي اتزرتُ به أهو بردك؟ قال عبدالله رضي الله عنه: نعم! هو بردي أعطيته لأبي ليأتزر به، لأنه رجل طوال لا يكفيه البرد الذي ناله كبقية المسلمين! فيقول سلمان رضي الله عنه: الآن مُرْ! نسمع ونطع!

هذا وعمر رضي الله عنه أمير المؤمنين، وليس أمير جماعة من الجماعات الإسلامية!

ترى كم أميراً من أمراء الجماعات الإسلامية يطيق أن يوجه إليه النقد من أحد أتباعه؟ وكم أميراً يرجع إلى الحق حين يكون الذي وجّهه إليه أخ من إخوته في الله، فضلاً عن جندي من جنوده؟!

وحين نكون متجردين لله لا تكون ذواتنا محور اهتمامنا ولا محور تحركنا، ولا نحس بالغيرة من بروز غيرنا ـ حين يبرز عن جدارة ـ ولا بالتفاف الناس حوله وإعجابهم به أو إطرائهم له، ولا نعتبر ذلك انتقاصاً لمكانتنا أو عملاً عدائياً موجهاً ضدنا، ولا يدفعنا ذلك إلى محاولة الانتقاص منه أمام أتباعنا، لكي لا يتحول «ولاؤهم» عنا إلى ذلك «المنافس» الذي التف حوله الناس!

وحين نكون متجردين لله لا يكون «الولاء» لأشخاصنا أو لجماعتنا ـ الأولى أن نقول «حزبنا» ـ هو محك الحكم على صلاحية الآخرين وجدارتهم، بل يكون المحك هو المحك الرباني: ﴿ إنَّ أكْرمكُمْ عند الله أتْقاكُمْ إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).. وتكون طريقة الحكم على الآخرين هي الطريقة التي أمر بها الله: ﴿ يأيُّها الذين آمنُوا كُونُوا قوّامين بالْقسْط شُهداء لله ولوْ على أنفُسكُمْ أو الْوالديْن والأقْربين ﴾ (النساء: ١٣٥).. ﴿ يأيُّها الذين آمنُوا كُونُوا قوّامين لله شُهداء بالْقسْط ولا يجْرمنّكُمْ شنآنُ قوْمٍ على ألا تعْدلُوا اعْدلُوا هُو أقْربُ للتّقْوى ﴾ (المائدة: ٨).

وحين لا نكون متجردين لله بالقدر الكافى يحدث كثير مما يحدث فى واقعنا المعاصر!

* * *

الأمر الثانى الذى نريد أن نركز عليه هو الوعى، هو البصيرة التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨).

البصيرة بالنسبة للقاعدة الصلبة ضرورة لا غنى عنها، لأنها هى التى تقرر مسار العمل الإسلامى، متى نكمن؟ ومتى نتحرك؟ كيف نتحرك؟ ندخل فى صدام مع السلطة أم نهادنها؟ أم ندخل فى تحالف معها؟ نبدأ ببناء القاعدة أم نتوجه إلى الجماهير؟ وحين نتوجه إلى الجماهير فماذا نقول لهم؟ هل نستغل «القضايا العامة»، قضايا الخبز والبطالة، وارتفاع الأسعار، أم نركّز على قضايا التربية وقضايا العقيدة؟ هل نستعرض عضلاتنا أمام أعدائنا أم نعرض عنهم؟ ومن هم أعداؤنا على وجه الدقة؟ هؤلاء المحليون الذين يحاربوننا أم هى الجاهلية العالمية على اتساعها: اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون فى كل الأرض؟ وعشرات من الأسئلة ومئات لابد فيها من وجود الوعى السياسى والحركى، ووجود البصيرة، لكى نحاول - قدر طاقتنا - أن نرسم خطة سليمة للحركة تحقق أفضل النتائج الممكنة فى الظروف المحيطة.

ولنعلم بادئ ذى بدء، أنه ليس هدف الخطة السليمة حماية أشخاصنا من الأذى، فالجاهلية لا تكف عن الأذى بأى حال، ولا تصبر على دعوة لا إله إلا الله! إنما نحاول ألا تؤذى الدعوة من خلال تصرفاتنا!

وليس هدف الخطة السليمة الوصول إلى السلطة أو إلى شىء من السلطة بالتنازل عن مبادئنا وقيمنا التى هى جزء من ديننا ومن عقيدتنا بحجة «مجاراة الظروف»، أو أن ذلك فى صالح الدعوة!

ولنعلم أولاً وآخراً أن لله سننًا لا تتبدل ولا تتحول ولا تجامل ولا تحابى، وأننا إذا تجاهلناها أو توهمنا أننا نستطيع أن نتخطاها فلن نصل فى حركتنا إلى شىء!

والبصيرة، منها جزء يكتسب بالتعليم، أى التعرف على السنن الربانية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتدبر التاريخ وأخذ العبرة منه.. والتعرف على أحوال الأمة الحاضرة والأسباب التى أدت إلى الواقع الذى تعيشه الأمة فى وقتها الحاضر.. والتعرف على مخططات الأعداء، والطرق التى يتخذونها لمقاومة الإسلام ومحاولة القضاء على الحركة الإسلامية.

ومنها جزء يكتسب بالخبرة من التجارب التى تمر بها الحركة، والنتائج التى تترتب على كل تحرك.

ومنها جزء يكتسب بالتربية، عن طريق المشاورة التى تتم بين القائد وأعوانه، والتى يتم فيها تمحيص الآراء وبيان وجهات النظر، لا التى تتم صوريًا بين عدد محدود من الرجال، بين ضغط السمع والطاعة، والتهديد بالإخراج من الجماعة للذين يتكرر منهم الاعتراض!

وحين لا توجد هذه البصيرة، أو حين تكون ناقصة، يحدث كثير من التخبط الذى يحدث فى واقعنا المعاصر!

* * *

تلك بعض المواصفات الضرورية فى بناء القاعدة، فهل استكملناها حقًا؟

إنه يجب أن يكون فى حسنا ابتداءً أننا لا نهدف إلى مجرد إقامة جماعة تؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وتؤدى الشعائر التعبدية على صورة من الصور، ثم تقوم بالدعوة.. إن هذا يكون عملاً مبروراً فى ذاته، مأجوراً إن شاء الله يوم القيامة، ولكنه ليس هو الذى ينقذ الأمة الإسلامية مما هى فيه، ولا هو الذى يعطى النموذج الذى يحول الجاهلية عما هى فيه!

والمطلوب الحقيقى من العمل الإسلامى هو هذا على وجه التحديد: إنقاذ الأمة الإسلامية مما هى فيه، ومحاولة تحويل الجاهلية عما هى فيه.

وهذا الهدف لا يتحقق إلا بإنشاء جماعة على مستوى فائق، على النسق الذى قامت به الجماعة الأولى على يد المربى الأعظم عليه صلوات الله وسلامه، وإن لم تكن على ذات المستوى، الذى قد يتعذر الوصول إليه فى أى جيل من الأجيال.

وذلك يقتضى البدء بإنشاء القاعدة الصلبة وتربيتها على أعلى ما يُتاح لنا من مستويات التربية ، وتنقيتها من الشوائب بأقصى ما يُتاح لنا من وسائل التنقية ، ثم من بعد ذلك دعوة الجماهير .

ووسيلتنا فى التربية هى ذات الوسيلة التى استخدمها المربى الأعظم ﷺ : تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتعميق الصلة بالله ، وتعويد النفوس على الحياة فى معية الله ، والتدريب على ممارسة السلوك الإيمانى فى عالم الواقع . . ثم تعميق الوعى ، بالوسائل التى تؤدى إلى تعميقه ، على أن نأخذ فى اعتبارنا أن القدوة هى الوسيلة الأولى ـ والكبرى ـ فى عملية التربية ، ثم تأتى بعدها الموعظة والنصائح والدروس ، مع الرعاية والمتابعة والدأب والصبر ، حتى تستجيب النفوس ثم تستقيم .

جهد ضخم فى الحقيقة ، وهو على ضخامته لا يؤتى ثماره فى يوم وليلة ، ولا يمكن استعجاله ، ولا يمكن تخطيه ، إذا كنا جادين فى القيام بعمل ينقذ الأمة مما هى فيه ، ويسعى إلى تحويل الجاهلية عما هى فيه !

توسيع القاعدة

فى مرحلة من مراحل المسيرة يأتى دور توسيع القاعدة، عن طريق توجيه الدعوة للجماهير، وهذه المرحلة يمثلها فى حياة الجماعة الأولى، جماعة الرسول ﷺ، دخول أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فى الإسلام، بعد ما كانت القاعدة الصلبة قد تم بناؤها من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم، وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ (التوبة: ١٢٠).

وهؤلاء جنود وأعوان، اجتذبتهم الدعوة فدخلوا فيها، وأخلصوا لها، وجندوا أنفسهم للدفاع عنها ضد أعدائها، وليسوا مجرد جماهير منفلتة بلا ضابط، كالذين تسميهم الجاهلية المعاصرة «رجل الشارع»، وهى تسمية صادقة، ما أدرى إن كانت جاءت عفواً أم جاءت عن قصد! فرجل الشارع هو الإنسان الذى ليست له سمات محددة ولا موقف محدد، ولا اتجاه فكرى ثابت! أو هو الإمّعة الذى وصفه رسول الله فى قوله: «لا تكونوا إمّعة، تقولوا: إن أحسن الناس أحسنّا، وإن أساءوا أسأنا! ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أو أساءوا ألا تظالموا»[1].. هو الرجل الذى تصنعه وسائل الإعلام، ثم تعود إليه، بعد أن تصنعه بوسائلها[2]، فتسأله عن موقفه، فيكون موقفه بالضبط هو ما أرادته وسائل الإعلام!

ليس هؤلاء الذين توسّع بهم القاعدة فى المرحلة الأولى من البناء، ولا فى أى مرحلة من مراحلها! إنما توسّع بجنود مخلصين، يهبون أنفسهم للدعوة، ينافحون عنها بتوجه مخلص إلى الله.

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) من أشد الوسائل تأثيراً الصحافة والإذاعة والتليفزيون، وكلها تستخدم فى صياغة عقلية «رجل الشارع» وتوجيه اهتماماته!

فإذا سأل سائل: ما الفرق إذن بينهم وبين القاعدة الصلبة التى تحدثنا عنها من قبل؟ نقول فى إيجاز: إن القاعدة الصلبة هى التى تعدّ لتكون الركائز والدعائم، هى القادة، هى الموجهون، هى المربون، أما هؤلاء فهم المدعوون الذين استجابوا للدعوة، والتزموا بها، وانضووا تحت لوائها، فصاروا منها، يتحركون معها ويتحركون بها، ولا يقفون متفرجين، ينتظرون ليروا مَن الغالب ليتبعوه!

وإذا سأل سائل مرة أخرى: ما الفرق فى منهج التربية، وفى الرعاية والعناية بين إعداد القاعدة الصلبة وإعداد من توسع بهم القاعدة فى تلك المرحلة، نقول بإيجاز: إنه فرق فى الدرجة لا فى النوع. فالمعلم يوجه تعليمه للدارسين جميعًا من حيث المبدأ، ولكنه يخص المتفوقين بعناية خاصة، لأن استعدادهم أكبر، والمطلوب منهم أكثر، ولا يقبل منهم ما يقبله من الدارس العادى الذى يقف به استعداده عند مستوى معين، ولا يكلفه فوق طاقته، وإن كان النجاح مطلوبًا من الجميع، كل بحسب درجته.

فإن قال قائل: هل هناك حدود فاصلة تميز هؤلاء عن هؤلاء؟ ألا يمكن أن يوجد فى القاعدة الموسعة من تؤهله طاقاته واستعداداته أن يكون من القادة الموجهين، ويوجد فى القاعدة الصلبة من تقعد به طاقاته واستعداداته عن القيام بتكاليفها؟ نقول: بلى! إن هذا يمكن أن يحدث، وعندئذ يرتفع ـ أو يجب أن يرتفع ـ صاحب المواهب إلى منزلة القادة الدعاة المربين، ويتخلف مَن تقعد به إمكاناته فيصبح مجرد عضو عادى، وتلك مسألة يقدرها المسئولون عن العمل باجتهادهم، وقد يخطئ الاجتهاد وقد يصيب. إنما المهم من حيث المبدأ أن بناء القاعدة الصلبة يجب أن يوجه إليه أقصى الجهد، وأن يحظى بأكبر قدر من الرعاية والاهتمام. فإقامة الدعائم الرئيسية يختلف ولا شك عن إقامة اللبنات التى يتكون منها البناء، وإن كان هذا وذاك مطلوبين لتشييد البناء، وتلك من بدائه العمل التى لا تحتاج إلى إيضاح.

إنما نريد أن نركز هنا على أمر له أهميته: أن توسعة القاعدة بالأعوان الملتزمين، الذين يعتبرون أنفسهم جنودًا للدعوة، يأتى بعد تكوين القاعدة الصلبة، لأن المتلقين بداهة يحتاجون إلى موجهين! فإذا دعوناهم وجاءوا، ونحن لم نعدّ الموجهين بعد، فمَن الذى يوجههم؟!

وأمر آخر نريد أن ننبه إليه : أن وسيلتنا البديهية إلى توسعة القاعدة ـ حين يأتي دورها ـ هو الدعوة العامة التي توجه لكل الناس، الذين يسمون في لغة العصر «بالجماهير». ولكن الجماهير ليسوا على درجة واحدة من الاستجابة للدعوة . . فمنهم فريق يمكن ـ حين تصله الدعوة واضحة صافية على حقيقتها ـ أن يؤمن بها إيمانًا صادقًا، ويجند نفسه لها، مبتغيًا وجه الله، عاملاً على رضاه . . ومنهم فريق يحسب حساب «المصالح»، حساب الربح والخسارة . . ما الذي يمكن أن يكسبه من الانضمام للدعوة، وما الذي يمكن أن يخسره من جرائها . . ومنهم فريق لا يهمه إلا اتباع الغالب حين تتقرر غلبته، فهو يقف بعيدًا عن المعمعة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ينظر ويتفرج، وقد يتسلى بالفرجة وتتبع أخبار الصراع، حتى إذا تقررت الغلبة بوضوح لأحد الفريقين انحاز إليه، لا إيمانًا بمبادئه، ولا تحمسًا حقيقيًا لها، ولكن لثقل الأمر الواقع في حسه، فهو بتركيبته النفسية، مستعد أبدًا للانقياد للأمر الواقع، الذي يأخذ في حسه مساحة أكبر من الأمر الذي لم يقع بعد، والذي يحتاج إلى جهد لكي يتحقق، بينما الواقع بالفعل لا يحتاج إلى جهد لمسايرته، وهذا الفريق غير مستعد، بتركيبه النفسي، لبذل الجهد، وخاصة إذا كان الأمر يعرضه للأخطار، لذلك لا يستجيب للدعوة حتى تصبح غلبتها هي «الأمر الواقع» الذي لا تحتاج مسايرته إلى شيء من الجهد، ولا التعرض للأخطار.

هذه الفئات بأنواعها الثلاثة، توجد في كل مجتمع، وقد كانت موجودة في مجتمع الرسول ﷺ :

فالفئة الأولى يمثلها مجتمع المدينة الذي آمن إيمانًا صادقًا وجنّد نفسه للدعوة، مهتديًا ومقتديًا بالقاعدة الصلبة التي تأسست من المهاجرين والأنصار. وهي الفئة التي أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ١٠٠).

ويدخل فيهم الأعراب الذين آمنوا بصدق، والذين أشارت إليهم الآية السابقة : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة : ٩٩) .

والفئة الثانية هي التي تألفها رسول الله ﷺ بالعطايا وبالمنح، وبالتقريب منه ﷺ، والتي أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (التوبة : ٦٠) .

أما الفئة الثالثة فيمثلها مسلمة الفتح، الذين أسلموا لما تقررت غلبة الإسلام في فتح مكة، مع أنهم كانوا يعرفون أن الحق مع رسول الله ﷺ، ولكنهم يقولون، كما حكى عنهم القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ (القصص : ٥٧) . فلما صار الهدى هو الممكّن في الأرض اتبعوه، ودخلوا في دين الله أفواجًا كما جاء في سورة النصر : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (سورة النصر) .

وذلك بخلاف المنافقين الذين يظهرون بعد استتباب السلطان، والذين يكونون قبل ذلك بين المتفرجين المنتظرين، ولكن على كُره للأمر، وعدم رغبة في الدخول فيه، أو من المعارضين الذين يجبنون عن المواجهة الصريحة، فينافقون خوفًا وجبنًا .

إذا كانت هذه فئات المجتمع ـ كل مجتمع ـ فلأي هذه الفئات نوجه الدعوة في المرحلة الأولى من توسيع القاعدة؟ إننا نظريًا نوجه الدعوة لكل الناس، ولكننا في حقيقة الأمر نتوقع الاستجابة من فريق معين من الناس، فنركز عليه الدعوة، أو نعتقد أن اعتزاز الدعوة وتمكنها سيكون على يد فريق معين من الناس، فنركز الدعوة عليه .

فإذا تتبعنا مسيرة الجماعة الأولى ـ جماعة الرسول ﷺ ـ نجد أن الدعوة منذ أمر الرسول ﷺ بالجهر بها [1]، قد وجهت لكل الناس، ولكن التركيز ـ بعد الهجرة ـ

---

(١) قال تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين﴾ [سورة الحجر : ٩٤].

كان واقعًا على أهل المدينة ، الذين سارعوا إلى الاستجابة ، والذين قام عليه الصلاة والسلام بتربيتهم بمعاونة القاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار ، الذين صاروا الآن هم الدعاة وهم الموجهين ، وهم المربين ، تحت إشراف المربى الأعظم ﷺ . وأهل المدينة هؤلاء هم الذين جاهدوا وثبتوا وصبروا على تكاليف الجهاد ، وكانوا - مع المهاجرين والأنصار - هم الركيزة الحقيقية للدعوة فى كل أطوارها المقبلة ، بينما تأخر التوجه إلى الفئتين الأخريين إلى مرحلة تالية . . وهذا هو الأمر المنطقى مع سير الدعوة ، ومع حقيقة المعركة ، وطبيعة الصراع .

إن الصراع بين الحق والباطل لابد أن يقع - سنةً من سنن الله - منذ اللحظة التى يوجد فيها للحق رجال يؤمنون به ويحملون على نشره وتمكينه في الأرض . فالجاهلية لا يمكن - بحال من الأحوال - أن تصبر على دعوة الحق ، ولا أن تهادنها ، ولو لم تتعرض لها الدعوة على الإطلاق : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (الأعراف : ٨٧ - ٨٨) .

هكذا! لا مهادنة ، ولا صبر حتى يحكم الله بما يشاء! وإنما عدوان وإخراج ، ومطاردة وإيذاء! فمَن الذى يستجيب للدعوة فى المراحل الأولى من ذلك الصراع الذى يدور بين الحق والباطل؟ أيستجيب الذين يبحثون عن المصالح الدنيوية ، ويحسبون حساب الأرباح والخسائر بمقياس تلك المصالح؟ أيستجيب الذين ينقادون بطبيعة تركيبهم النفسى للأمر الواقع ، ولو عرفوا ما فيه من السوء ، ولا يتجهون إلى الأمر الذى يجب أن يقع ، ولو عرفوا أنه خير من واقعهم الذى يعيشون فيه ، لأنه يحتاج فى تحقيقه إلى جهد ، وهم لا يحبون بذل الجهد . . ويعرضهم للأخطار ، وهم لا يحبون أن يتعرضوا للأخطار؟!

إنما يستجيب فى المراحل الأولى من الصراع ، الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر . . الذين يحسبون الكسب والخسارة بالميزان الربانى ، لا بالميزان الأرضى الذى تزن به الجاهلية ، ولا تعرف ميزانًا سواه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥).

الميزان الذى يقول: متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء: ٧٧).

الميزان الذى يقول: إن كل ما فى الأرض من متاع ومصالح وروابط لا يعدل حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

الميزان الذى يقول: إن الباقيات الصالحات خير من كل زينة الحياة الدنيا: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ (الكهف: ٤٦).

والذى يقول: إن التجارة الرابحة ـ التى تنجى من عذاب الله ـ هى الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف: ١٠ ـ ١٣).

والمراحل الأولى من الدعوة هى مراحل البذل والفداء، ولذلك لا يصلح لها الذين يبحثون عن مكاسب الأرض، سواء المال والثروة والمتاع الحسى، أو الوجاهة والبروز والأتباع والأنصار.. هؤلاء لا يصلحون مؤسسين فى القاعدة الصلبة، ولا تتسع بهم القاعدة حين يأتى أوان التوسيع!

* * *

إذا نظرنا إلى واقنا المعاصر فينبغى أن نجعل فى بالنا عدة أمور، سواء بالنسبة للقاعدة الصلبة، أو القاعدة الموسعة، بل حتى بالنسبة للجماهير العريضة التى تدخل أفواجًا فى النهاية، فهؤلاء أيضًا لابد أن يصحح لهم إسلامهم، ولا يتركون بلا ضابط كما تفعل الجاهلية المعاصرة «برجل الشارع»، تسلبه كيانه الآدمى، وتوهمه فى الوقت ذاته أنه أحد العمد التى يقوم عليها النظام!

ليس فى الإسلام «رجل شارع»، ولا «امرأة شارع»، إنما هناك مسلمون ومسلمات ملتزمون كلهم - أو يجب أن يكونوا ملتزمين - بالحد الأدنى على الأقل، الذى يجعلهم فى ميزان الله مسلمين، وتلك فى الدولة الإسلامية مهمة ولى الأمر، فمن التزم من تلقاء نفسه فقد وفّى بما يجب عليه تجاه ربه، ومن لم يلتزم يلزمه السلطان كما قال عثمان رضى الله عنه: «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

ومن ثَمّ فكل الناس داخل فى مجال الدعوة، ولكن خطوة بعد خطوة، كما كان الشأن مع الجماعة الأولى، حسب السنن الربانية التى تتكرر كلما تكررت ظروفها ومقتضياتها.

* * *

إذا نظرنا إلى واقعنا المعاصر فسنجد الأمة - إلا ما رحم ربك - فى حالة «الغثاء» التى وصفها رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا، حين قال: «يُوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن». قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»(١).

فإذا كان هذا حال الأمة التى توجه إليها الدعوة، سواء لإقامة القاعدة الصلبة، أو القاعدة الموسعة، أو لعامة الناس، فيجب أن نتعرف على الأسباب التى أدت بالأمة إلى هذا الوضع، لكى نصف العلاج الناجع، كما يفعل الطبيب حين يُستدعى لعلاج المريض، يفحصه أولاً ليعرف حقيقة مرضه، ثم يصف الدواء.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

ولا يحسبن أحد ـ بادئ ذى بدء ـ أن القاعدة الصلبة التى تقع عليها مهام الدعوة قد أنزلت من السماء، مبرأة من العيوب! كلا إنها جزء من هذه الأمة تعيش نفس ظروفها، وتتعرض لذات أمراضها. ولكن إذا كان الرسول ﷺ يقول: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقُهُوا»[1].. فلنقل: إنه فى الجاهلية الجزئية التى قال ابن تيمية رحمه الله إنها توجد فى كثير من أقطار الإسلام، يوجد «خيار» يمكن بالجهد اللازم الذى يبذلونه فى ذوات أنفسهم أن يشكلوا نواة للحركة، ثم «خيار» آخرون يمكن بالجهد اللازم كذلك أن يشكلوا القاعدة الموسعة التى تتكون حول النواة وتقتدى بها، ثم يأتى بعد ذلك دور عامة الناس، فيكون منهم خيار بقدر من الله يستجيبون ويلتزمون، وآخرون يزعهم السلطان إذا لم يزعهم القرآن.

والآن فلننظر فى أحوال هذا الجيل الذى تُوَجَّه إليه الدعوة.. ما الذى أوصله إلى حالة الغُثاء التى يعيش فيها، ليتبين لنا من أين نبدأ علاجه، وليتبين لنا كذلك الخطوات اللازمة للعلاج.

هناك أمراض كثيرة فى الحقيقة أصابت الأمة فى مسيرتها التاريخية، بعضها جاء من داخلها، وبعضها جاء من قِبَل أعدائها. وقد يكون من الصعب إحصاؤها تفصيلاً، ولكنا نزعم أن هناك أمراضاً بارزة لا تخطئها عين الفاحص.

من أبرز هذه الأمراض الفكر الإرجائى، الذى يقول إن الإيمان هو التصديق القلبى والإقرار باللسان، وإن العمل ليس داخلاً فى مسمى الإيمان!

فأما أن التصديق القلبى والإقرار باللسان لازمان لإثبات الإيمان فأمر لا خلاف عليه، وأما أن العمل لا يدخل فى مسمى الإيمان فبدعة خطيرة، وانحراف شديد عن حقيقة هذا الدين، الذى ما قام ـ وما يمكن أن يقوم ـ بغير عمل وجهد ضخم، يبذل فى واقع الأرض، وما كان يمكن أن تزول غربة الإسلام التى كان فيها أول مرة[2] بمجرد التصديق والإقرار، بل لا يمكن أن يقوم أى نظام فى الأرض فضلاً عن أفضل النظم كافة، بمجرد التصديق والإقرار، إن لم يبذل عمل معين لتحويل هذا التصديق القلبى والإقرار اللسانى إلى واقع مشهود!

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) قال عليه الصلاة والسلام: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ».

وأيا كانت الأسباب التاريخية التي أدت إلى تفشي الفكر الإرجائي ، فقد أحدث مفاسد عظيمة في بنية الأمة منذ أخذت تتفلت من التكاليف ، ثم يوهمها الفكر الإرجائي أنه لا بأس عليها من هذا التفلت ، مادام قلبها عامراً بالإيمان! وتتدرج الأمة في التفلت حتى تقع في الشرك الواضح الصريح ، سواء شرك الاعتقاد أو شرك العبادة أو شرك الحاكمية ، ثم يظل الفكر الإرجائي يوهم الناس أنهم مازالوا بخير ، ومازالوا مؤمنين!

ولنتخيل مدرسة يحضر إليها الطلاب للدراسة ، ثم بعد حين يتفلتون من استذكار دروسهم ، ثم يتفلتون حتى من حضور الدروس ، ويقال لهم مع ذلك : لا بأس عليكم مادام كان في نيتكم أن تحضروا ، وإنما تقاعستم عن الحضور كسلا لا جحوداً! وما دامت أسماؤكم مازالت موجودة في سجلات المدرسة ولم تطلبوا سحبها من السجلات!

هل يمكن إنجاز شيء في واقع الأرض بهذه الروح المتقاعسة المتواكلة التي تعيش في خدر الوهم وتحسب أنها على شيء حقيقي؟

فإن لم يكن يمكن أن يتم شيء على الإطلاق بهذه الروح ، فهل يمكن أن يقوم الإسلام بالذات بمثل هذه الروح ، وهو الذي نزل ليكون حركة شاملة تشمل الحياة كلها بجميع جوانبها وجميع مجالاتها ، وتشمل الأرض كلها ، والبشرية كلها ، بقدر ما يصل الجهد ، وبقدر ما قدر الله في سابق علمه؟

هل يمكن إزالة الفتنة التي هي عقائد فاسدة ونظم فاسدة وجيوش تحمي العقائد والنظم الفاسدة ، بمجرد التصديق والإقرار؟ هل يمكن إزالة الفتنة التي تقع على البشر في الجاهلية ، بسبب الجاهلية ذاتها ، بغير جهاد في واقع الأرض : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال : ٣٩) .

إن هذا المرض بالذات ــ مرض الإرجاء ــ إن أصاب أية أمة من أمم الأرض ، فما كان ينبغي أن يصيب أمة الإسلام ، التي أخرجت للريادة ، والشهادة على كل البشرية : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ

مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (الحج : ٧٨) .

* * *

ثم جاء الفكر الصوفي على خط مواز للفكر الإرجائي ، وإن كان على نحو آخر . .

الفكر الإرجائي أخرج العمل كله من مسمى الإيمان ، أما الفكر الصوفي فقد ركز على نوع واحد من العمل ، وأخرج سائر أنواعه من مستلزمات الإيمان . ركّز على العبادة بمعناها الضيق المحصور في الشعائر التعبدية والذكر ، وأهمل من أنواع العبادة عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، وكلها منصوص عليه نصًا واضحًا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١) . ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ (النساء : ٧٤) . ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤١ ـ ١٤٢) . ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥) . ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود : ٦١) .

إن الذكر مطلوب ، ولا عبادة بغير ذكر ، ولكن الذكر الذي وصفه الله في كتابه ، ووصف به الصحابة رضوان الله عليهم في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٩١) . شيء آخر مختلف عن هذا الذكر الذي ابتدعته الصوفية ، وحصرت العبادة فيه ، وزعمت أنه هو هو الذي يوصل إلى رضوان الله ، فضلا عما وقع في عقيدة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود من شرك صريح .

وأيا كانت الأسباب التي أدت إلى تفشي الفكر الصوفي ، وجعلته في وقت من

الأوقات هو مدخل العامة الوحيد إلى الدين أو مدخلهم الرئيسى إليه، فقد أحدث هذا الفكر مفاسد كثيرة فى بنية الأمة، ليس أقلها التواكل، وترك الأخذ بالأسباب، وإهمال عمارة الأرض، والانحراف فى عقيدة القضاء والقدر، وعدم إحساس الإنسان بمسئوليته عن خطئه حين يخطئ، والانصراف عن الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والفصل بين الدنيا والآخرة، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة فى حس المسلم، وإفساد التوازن الدقيق الجميل الذى يحدثه الإسلام الصحيح فى النفس، فيجعل الإنسان يعمل بجهده كله فى واقع الأرض، وقلبه معلق بالله واليوم الآخر، أو بعبارة أخرى التوازن الدقيق بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

* * *

ثم كان انحصار الإسلام فى عالم الفرد بمفرده وترك «الأمور العامة» التى كلف الله بها الجماعة المسلمة من الأمراض التى أصابت الأمة فى مسيرتها التاريخية الطويلة . .

إن هذا الدين لم ينزل فقط لإصلاح الأفراد، كل فرد بمفرده، وإن كان هذا هو الأساس الذى لا يقوم بدونه بنيان، ولكن إصلاح كل فرد بمفرده لا ينشئ بذاته مجتمعًا صالحًا كما قد يخيل للإنسان لأول وهلة، فلو تخيلت بناءً كُلُّ لبنة فيه سليمة بذاتها، ولكن ليس فيه الملاط الذى يربط اللبنات بعضها ببعض، فلن يكون بناء حقيقيًا يصمد للهزات وما أكثرها فى حياة الأمم بل الأفراد، بل لا يصمد للريح، وما أكثر الرياح العواتى!

ولقد ركز هذا الدين تركيزًا واضحًا على الجماعة المسلمة بل على الأمة المسلمة المترابطة المتماسكة المتراصة، لا فى العواطف الوجدانية فحسب، بل فى العمل والتكاليف كذلك، وكثير من الخطاب الموجه للمؤمنين، الذى يبدأ بقوله تعالى ﴿ يأيُّها الذين آمنوا . . . ﴾ لا يقصد به الأفراد فحسب، كل فرد بمفرده، ولكن يقصد به الجماعة مجتمعة ومشتركة فى المسئولية : ﴿ يأيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارىٰ أولياء ﴾ (المائدة : ٥١) . ﴿ يأيُّها الذين آمنوا من يرتدّ منكُمْ عن دينه فسوفَ

يأتي اللهُ بقومٍ يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٥٤) إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ (المائدة: ٥٤ ـ ٥٦). ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا ﴾ (النساء: ١٣٥). ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ (آل عمران: ٢٨). ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (آل عمران: ١٠٤). ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (الشورى: ٣٨). ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ﴾ (التوبة: ٧١). ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (الصف: ٤).

« مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في مكاننا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا »[1].

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[2].

هذه وغيرها من أمثالها كثير تؤكد المسئولية الجماعية للأمة، التي لا يغني فيها أن يكون كل فرد قد قام بواجبه الفردي تجاه الله سبحانه وتعالى من ذكر وتقوى وخشوع وأداء للفرائض من صلاة وزكاة وصيام وحج، وإن كان هذا كله لازمًا ولا غنى عنه، ولكنه ـ كما قلنا ـ لا يقيم بذاته أمة متماسكة عاملة بهذا الدين، فهذا الدين على صورته التي أنزلها الله، وللأهداف التي أرادها الله منه، لا يقوم به أفراد

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) أخرجه الشيخان.

متفرقون ولو كان كل واحد منهم على طهارة القديسين فى خاصة نفسه، وهو فرض لا يتحقق فى واقع الأرض ما دام البشر بشراً، تدفعهم دوافع شتى، وتضطرب فى نفوسهم شتى الانفعالات والرغبات والشهوات، وما دام الله قد جعل فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، ما لم يردعهم رادع: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٣).

وحتى لو كان وجود أكابر المجرمين خاصًا بالجاهلية ولا يقع فى الإسلام، فإن «القرية العالمية» التى يزعم الزاعمون أن العالم قد صار إليها بفعل وسائل الاتصال مملوءة بأكابر المجرمين الذين يكيدون للإسلام ويتربصون بأهله، فهل قيام الأفراد ـ حتى لو قاموا كلهم ـ بالصلاة والزكاة والصيام والحج، والخشوع والتقوى فى ذوات أنفسهم، يمكن أن يرد كيد أكابر المجرمين، ويرد الفتنة الوافدة على المسلمين من الجاهلية؟ أم يحتاج هذا إلى أمة متماسكة مترابطة قائمة بمسئوليتها الجماعية، عاملة بمقتضى تلك المسئولية، التى يحمل فيها كل فرد نصيبه، والتى لا تتماسك حقًا إذا قال كل فرد فيها: نفسى نفسى، ونكَلّ عن مسئوليته تجاه المجموع.

وهل كان رسول الله ﷺ يربى أصحابه فردًا فردًا ثم يقيمهم كل فى عالمه الخاص، ويقول له: كن فى نفسك ولا شأن لك بغيرك؟ أم كان يربى كل فرد منهم ليكون لبنة متماسكة مترابطة مع غيرها من اللبنات فى كيان متحد، فيضع فى كل لبنة ذلك الملاط الذى يجعلها تلتصق بغيرها، وتكون على استعداد أن يلتصق غيرها بها.. ملاط المشاعر المترابطة، والمسؤولية المشتركة، وهما صنوان لا يغنى أحدهما عن الآخر.

التكافل مفروض على كل قادر ليقوم فيه بنصيبه، ولكن عائده ينصب إيجابا وسلبا على مجموع الأمة، فتكون أمة مترابطة متحابة إن قامت به، أو طوائف يحقد بعضها على بعض إن نكلت عنه.. والجهاد مفروض على كل قادر ليقوم فيه بنصيبه ولكن عائده يعود إيجابا وسلبا على مجموع الأمة، فتبقى وتتمكن أو يأكلها أعداؤها. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مفروض على كل قادر ليقوم فيه بنصيبه، ولكن عائده يعود إيجابا وسلبا على مجموع الأمة، فتكون أمة خيّرة أو أمة ملعونة: خيرة إن أمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، وملعونة إن نكلت عن

واجبها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠). ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨ ـ ٧٩).

وأيًا كانت الأسباب التي أدت إلى تفشي هذه الروح الفردية الناكلة عن التكاليف الجماعية، وعن الشعور بالمسئولية تجاه المجموع، فقد أحدثت هذه الروح مفاسد عظيمة في كيان الأمة، ليس أقلها التخلي عن واجب النصح للحكام، وهو واجب جعله رسول الله ﷺ جزءًا من الدين، بل قال عليه الصلاة والسلام على سبيل التأكيد: «الدين النصيحة» قيل: لِمَنْ يا رسول الله؟ قال: « لله ورسوله ولكتابه ولعامة المسلمين وخاصتهم»[1]. وَترك الاشتغال بالسياسة، وترك شأن الحكم للحاكم، إن كان عادلاً فهو الخير من عند الله والبركة، وإن كان مستبدًا فلا ناصح له من الأمة يرده عن استبداده وظلمه، وإنما يتحلق حوله المنافقون يزينون له كل عمل يعمله، ولا تصل إلى أذنيه صيحة حق، وإن وصلت قام المنافقون حوله بإيغار صدره عليها وعلى قائلها! وليس أقلها فشل كل مشروع يحتاج إلى تعاون جماعي يقوم كل فرد فيه بنصيبه مع الآخرين، وليس أقلها روح التخريب في الممتلكات العامة والمرافق العامة والمال العام.

* * *

ومن الأمراض التي أصابت الأمة كذلك: الفوضى والارتجال والنَّفَس القصير.. وكلها ـ فيما أزعم ـ من أمراض البيئة التي جاء الإسلام فقوَّمها وسددها، بتعويد الناس على النظام، والتفكر والتدبر قبل العمل، وفي أثناء العمل، والنَّفَس الطويل الذي لا يفتر بعد الخطوات الأولى المتحمسة.

لقد كان ﷺ حريصًا أشد الحرص على هذه الأمور، ولم يكن يعتبرها أمورًا ثانوية أو هامشية تجيء أو لا تجيء. فقد كان يعلم، وهو النبي الملهم، أنه لا يقوم بناء حقيقي، ولا يستمر راسخًا إذا كانت هذه الآفات تعتوره.

(١) متفق عليه.

جاء على لسان الصحابة رضوان الله عليهم: «كان رسول الله ﷺ يصفّنا للصلاة كما يصفنا للقتال» . . وذلك إلى جانب الأمر بالخشوع والسكينة . والخشوع في الصلاة هو عنصرها الروحي الذي يوثق الصلة بين العبد وربه ، والدعوة إليه أمر بدهي ، ولكن النبي الملهم ﷺ كان يعلم أنه لابد من عنصر آخر في بناء الأمة ، إلى جانب الصلة الوثيقة بالله ، وهو النظام ، والنظام عادة نفسية حسية لابد أن تربى بالتعويد ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يمر بيده الشريفة على المصلين يسوى الصف بيده ، ولا يبدأ الصلاة حتى يستقيم الصف تمامًا ، إشعاراً منه ﷺ بأهمية النظام .

ومن الواضح أن النظام جزء لا يتجزأ من هذا الدين ، فالصلاة نظام وانضباط ، سواء في تحديد الوقت أو انتظام الصف ، أو في متابعة المصلين للإمام في الركوع والسجود والقيام ، والصيام له نظام ومواقيت ، والزكاة لها نظام ومواقيت ، والحج له نظام ومواقيت فضلاً عن انتظام الصفوف في القتال .

وأما العفوية والارتجال فقد تكون من آفات البيئة ، ولكن الإسلام قاومها وقوّمها ، بلفت النظر إلى السنن الربانية التي لا تتبدل ولا تتحول ، وبالدعوة إلى التدبر والتفكر والتثبت في الأمور كلها ، ولفت النظر إلى مآلات الأعمال ، وعدم الاكتفاء بالنظر في كون العمل مباحًا في ذاته أو غير مباح ، فقد يكون الأمر من المباح بل من المستحب ، ولكنه يُمْنَع لما يترتب عليه من نتائج ، كما أمر تعالى بعدم سب الأصنام حين ترتب عليه تجرؤ المشركين على سب الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذين يدْعُونَ من دُونِ الله فَيَسُبُّوا الله عَدْواً بغيْرِ علْمٍ ﴾ (الأنعام : ١٠٨) .

وكما امتنع الرسول ﷺ عن قتل عبد الله بن أُبَيّ ، المنافق البيِّن النفاق ، لكي لا يتحدث الناس بأن محمداً ﷺ يقتل أصحابه ، وهم يومئذ إما قد دخلوا الإسلام ولم يرسخ إيمانهم بعد ، وإما واقفون يترقبون ولما يسلموا ، وانتشار هذه المقالة بينهم يومئذ يعطل الدعوة ويثبط المترددين !

وأما النَّفَس القصير ، وفتور الهمة بعد الحماس المشتعل ، فقد يكون كذلك من آفات البيئة ، ولكن الإسلام عالجه علاجًا رائعًا من كل أطرافه ، فمن جهة وجه

أنظارهم وأفئدتهم إلى هدف يتجاوز الحياة الدنيا كلها، والأرض كلها، والزمن كله، ويصل إلى بُعْد لا يدانيه بُعْد، وهو اليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، وجنة ونار.. فوصل العاجلة بالآجلة، وجعل العمل في العاجلة هو وسيلة الوصول الآمن إلى الآجلة، وليس وراء ذلك بُعد تعمل من أجله النفوس، ولا مدىً تتطلع إليه، وتثابر على القيام بمتطلباته، لأن أي فتور في الطريق قد يقطع الطريق!

ومن جهة أخرى أعطى الرسول ﷺ القدوة والمثل في المثابرة والدأب ومواصلة العمل بجهاده الذي لا يفتر، واستمراره في الدعوة في أحلك الظروف وأصعبها، وعدم الركون إلى اليأس أو التقاعس أو الهمود، في الوقت الذي كانت الظروف كلها تدعو إلى اليأس والتقاعس والهمود.

ومن جهة ثالثة وجّه الصحابة رضوان الله عليهم، والأمة من ورائهم، إلى الدأب والمثابرة، ولو بدت الثمرة بعيدة المنال، فقال لهم ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها»[1]. وحثهم على مداومة العمل ولو بالقليل دون انقطاع، وكان دائم الاستعاذة أمامهم من العجز والكسل..

وكان من نتائج هذه التوجيهات كلها في الكتاب والسنة في حياة الأمة المسلمة استمرار الدعوة إلى الله قرونًا بعد قرون، واستمرار الجهاد في سبيل الله قرونًا بعد قرون، وحضارة شامخة وحركة علمية ضخمة استمرت في واقع الأرض عدة قرون.

وأيًا كانت الأسباب التي أدت إلى انحسار الروح الدافعة في حياة المسلمين، وعودتهم إلى طبيعة الفوضى التي تكره النظام، والعفوية التي تكره التخطيط، وقصَر النَّفَس الذي يشتعل بسرعة وينطفئ بسرعة، فقد أدت هذه الأمراض إلى مفَاسد عظيمة في كيان الأمة، ليس أقلها ما يطلق عليه في لغة العصر «التخلف الحضاري»، وليس أقلها موت كثير من المشروعات النافعة قبل أن تؤتي ثمارها، وليس أقلها تبلد الحس على كثير من الأمراض العقدية والفكرية والسياسية

(١) سبقت الإشارة إليه.

والاجتماعية والأخلاقية، وعدم التحرك الجاد لتغييرها، وكلها من المنكر الذى أمر الله ورسوله بتغييره، وأنذر الأمة، إذا لم تقم بتغييره، أن يعمها الله بعقاب . .

* * *

وحين تجمعت هذه الأمراض كلها فى كيان الأمة حدث أمران عظيمان مما أخبر به رسول الله ﷺ : غربة الإسلام، وتداعى الأمم على الأمة الإسلامية .

عاد الإسلام غريبًا كما بدأ، فكل مفاهيمه لم تعد هى التى أنزلت من عند الله .

فأما لا إله إلا الله فقد صارت كلمة تنطق باللسان، والقلب غافل عن دلالتها والسلوك مناقض لمقتضياتها، وأما العبادة فقد انحصرت فى الشعائر التعبدية، وهذه ذاتها صارت إلى أداء تقليدى خاو من الروح، ثم صارت إلى تقاعس وتكاسل حتى عن أدائها، والاكتفاء بالنية الطيبة تجاهها .

وأما عقيدة القضاء والقدر فقد انقلبت تواكلاً سلبيا مريضًا بدل التوكل الصحيح مع العزيمة والأخذ بالأسباب، وانقلبت تبريرًا لكل ما يقع من خطأ وقصور وخطايا بأنها كلها من قضاء الله وقدره!

وأما الدنيا والآخرة فقد انفصلتا فى حس الناس فأصبح العمل من أجل الدنيا إهمالاً للآخرة، والعمل من أجل الآخرة إهمالاً للحياة الدنيا ولعمارة الأرض .

وأما مفهوم الجهاد فقد ظل ينحسر وينحسر حتى صار للدفاع فحسب، ثم أصبح تقاعسًا حتى عن الدفاع، وهروبًا من مقتضياته .

وأما مفهوم التربية فقد صار تعويدًا على طقوس وتقاليد، لا ينشئ روحًا مبدعة ولا همة عالية .

وأما مفهوم الصبر والتقوى فقد أصبح سلبية خانعة ترضى بالذل، ولا تتحرك لإزالته .

وعندما حدث هذا الخلل الهائل فى مفاهيم الإسلام حدث «التخلف» فى جميع الميادين : التخلف العسكرى، والتخلف السياسى، والتخلف العلمى، والتخلف

الفكرى، والتخلف الاقتصادى، والتخلف الاجتماعى، والتخلف الأخلاقى. . . وكل أنواع التخلف التى تخطر على البال، لأن العمل المتدفق فى كل هذه الميادين كان يستمد فى فترة التمكين من ذلك المنبع الضخم: من العقيدة الصحيحة فى الله واليوم الآخر.

فلما جف النبع فى قلوب الناس - إلا من رحم ربك - لم يعد هناك ما يغذى العمل فى النفوس: «ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»[1].

عندئذ تداعت الأمم على الأمة التى أصبحت كغُثاء السيل.

جاء الأعداء المتربصون الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٠). ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: ٢١٧).

جاءوا وفى تخطيطهم أن يقضوا على هذا الدين قضاء كاملاً فى هذه المرة، وليس مجرد أن يكسروا شوكته ويتغلبوا عليه.

وربما لم يكن هذا الهدف جديداً فى ذاته، فقد كان هو الذى حرّك هرقل فى أول التاريخ لمحاولة وأد هذا الدين قبل أن يستفحل أمره. . وكان هو الذى حرّك الحروب الصليبية فى عصور أوروبا الوسطى . . وهو الذى يحركهم اليوم، ولكن ربما كان الجديد فى الهجمة الصليبية المعاصرة - التى بدأت فى الواقع بعد طرد المسلمين من الأندلس - أنهم جاءوا وهم أكثر اقتناعًا بإمكان تحقيق هدفهم هذه المرة، لما رأوه من الأمراض المتفشية فى كيان الأمة، ولمَا استحدثوه من أسلحة الصراع، سواء منها الحربى أو السياسى أو الاقتصادى، وأخطرها جميعا ما نسميه «الغزو الفكرى» الذى يسعى إلى اقتلاع العقيدة من القلوب، وهو ما نصحهم به لويس التاسع بعد خروجه من سجنه فى المنصورة وعودته إلى قومه يقول لهم: إن أردتم التغلب على المسلمين فلا تعتمدوا على السلاح وحده، فقد رأيتم نتيجة الاعتماد على السلاح، ولكن قاتلوهم فى عقيدتهم، فهى مكمن القوة فيهم،

(١) سبقت الإشارة إليه.

ومكمن الخطر علينا . . وذلك فضلاً عن دخول اليهود بكيدهم كله فى حلبة الصراع، من أجل إنشاء إسرائيل .

ولقد قام الغزو الفكرى بما لم يستطع أن يقوم به سلاح آخر مما استخدم من قبل مع المسلمين . .

هُزم المسلمون أكثر من مرة فى التاريخ، ولكن الهزيمة العسكرية لم تؤثر فيهم ولم تجعلهم يتخلون عن عقيدتهم أو يستبدلون بها غيرها .

هُزموا أمام الصليبيين، وهُزموا أمام التتار، ولكن النداء الربانى كان يملأ قلوبهم : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩) .
﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٨) .

كانوا مؤمنين، وكانت المعركة فى حسهم جهاداً فى سبيل الله . . فما لبثوا أن تجمعوا بعد تفرق، وعزموا بعد وهن، واستعدوا بعد تفريط، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

وحتى فى عمق الهزيمة لم يخطر فى بالهم قط أن أعداءهم خير منهم، فأعداؤهم كفار وهم مؤمنون، وموطن الاستعلاء هو الإيمان بصرف النظر عن النصر أو الهزيمة فى ميدان القتال . .

أما فى هذه المرة فلم يكن هناك استعلاء بالإيمان، بل كانت الهزيمة الروحية أمام الأعداء، فتمكن الغزو الفكرى بصورة لا تخطر على البال .

وفى خلال قرن واحد، بل فى خلال نصف قرن فى بعض الأحيان، تبدلت الأمة تبدلاً كاملاً كأن لم تكن فى يوم من الأيام هى أمة الإسلام !

تبدّل مصدر التلقى، لم يعد هو الإسلام، لم يعد هو الله ورسوله، إنما صارت

«الحضارة الأوروبية» هي المصدر، وهي المثال المطلوب استيعابه والصيرورة إليه . .
لم يعد هناك صدى في النفوس لقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) . . بل صار وصف «الحضارة» الغربية بأنها جاهلية يعتبر كفراً في نظر المستعبدين للغرب ، الذين أكل الغزو الفكرى قلوبهم وأفهامهم ، وأصبح الإسلام في حسهم هو التخلف والرجعية والبربرية والفساد ، وأصبح حجاب المرأة المسلمة هو السجن والظلام ، وانطلاقها عارية في الطريق هو التقدم والتحرر ، وأصبح الإلحاد والكفر والسخرية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو عنوان «حرية الفكر» ، وأصبح الانسلاخ من الإسلام والانتماء إلى الغرب رتبة ونيشاناً يتباهى به العبيد .

ثم دخلت «المذاهب الفكرية» : الوطنية والقومية والعلمانية والاشتراكية والديمقراطية . . إلخ . لتكون البديل الفكرى من الإسلام من جهة ، ولتمزق هذه الأمة مزقاً متفرقة من جهة أخرى ، ليسهل على العدو التقامها وابتلاعها بعد أن تعذر عليه ازدرادها وهي موحدة تحت رباط الإسلام ، حتى وإن لم تكن وحدة سياسية كاملة بالمعنى الصحيح .

حضيض لم تصل إليه الأمة الإسلامية في تاريخها كله ، ولكنه منطقى مع غثاء السيل ، لا يتوقع لها سواه .

* * *

هذا الواقع هو الذى واجهته ـ وتواجهه ـ الصحوة الإسلامية . .

أما الصحوة ذاتها فهي قدر الله الغالب فوق كيد الأعداء كله ، وتدبيرهم للقضاء على الإسلام : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

لم يكن أحد يتوقع الصحوة ، لا من الأعداء ولا من المسلمين أنفسهم !

أما الأعداء فقد كانوا ينتظرون وفاة الرجل المريض ، كما كانوا يسمون الخلافة العثمانية في آخر عهدها ، لينقضوا على تَرِكَتِه ، يمزقونها إرباً إرباً ، ويقضون بذلك القضاء الأخير على الإسلام .

وأما المسلمون فقد كان اليأس والاستسلام للأمر الواقع قد سيطر على كثير منهم، فعادت أقصى أمانيهم أن يتخلصوا ولو تخلصًا جزئيًا من قبضة العدو الخانقة، وأن يدعهم العدو يعيشون ولو في ذيل القافلة وأنفهم في الرغام . .

ولكن قدر الله الغالب، ووعده الدائم أن يبعث في هذه الأمة من يجدد لها أمر دينها، قد جاء بالصحوة رغم كل الكيد، وكل التخطيط . .

ونحن نستبشر بقدر الله، ونطمئن إلى وعده الكريم بأن يظهر هذا الدين على الدين كله. ونحن على يقين بأن المستقبل للإسلام: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف: ٩).

ولكن الذي نناقشه هنا هو أسلوب العمل الذي يجب أن تنتهجه الصحوة، فإنه لابد من عمل يعمله البشر ليتم قدر الله، لا عجزًا من الله سبحانه أن ينفذ قدره، ولكن لأن سنته قد اقتضت أن يكون هناك بشر يعملون، يكونون ستارًا لقدر الله: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (محمد: ٤). ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).

فما طريق العمل؟

تخطر في بال العاملين عدة وسائل وعدة أساليب، نحب هنا أن نستعرضها، لنعرف ما لها وما عليها، ولنتدارس معًا أيها أجدى نفعًا، وأنسب لأحوال الأمة التي وصفناها من قبل: الوعظ. التربية الروحية. الشحن العاطفي. التوعية الفكرية. التربية الجهادية.

ونقول بادئ ذي بدء: إن كل الوسائل مطلوبة ولا غنى عنها، ولكن الذي نناقشه هو مدى جدوى أي منها حين تستخدم بمفردها، لا على أنها وسيلة من الوسائل، ولكن على أنها هي الوسيلة وهي المنهج وهي الطريق.

ونبدأ بالوعظ، لأنه وسيلة ذات إغراء شديد عند كثير من الناس! ويعتقد الواعظ أنه بمقدار ما يكون هو متحمسا لموعظته، مؤمنًا بها، منمقًا لألفاظها، بارعًا في صياغتها، يكون تأثيرها في نفوس المستمعين، وهو وَهْم يكذبه الواقع!

كم طنًا من المواعظ يُلقى فى العالم الإسلامى كله من المحيط إلى المحيط يوم الجمعة من كل أسبوع، وكم غيرت من واقع المسلمين فى العالم الإسلامى كله من المحيط إلى المحيط؟!

إذا قلت لا شيء: فهل تعدو الحقيقة؟!

إن استخدام الموعظة فى الدعوة أمر ربانى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥).

ولكن الله لم يقل إن الموعظة وحدها هى الوسيلة للدعوة، ولم يقل إنها حين تستخدم وحدها تؤتى ثمارها! إنما المنهج الربانى: أنه يرسل بالموعظة رسولاً يكون هو بذاته القدوة للناس لكى يستوعبوا الموعظة أولاً ثم يطبقوا مقتضاها بعد ذلك:

«كان خُلُقُه القرآن» هكذا وصفت عائشة رضى الله عنها خُلُق رسول الله ﷺ.

فلم يكن رسول الله ﷺ مجرد خطيب يقف على المنبر ليعظ الناس، إنما كان قبل ذلك مربيًا بالقدوة فى شخصه الكريم، وكانت الموعظة وسيلة من وسائله لتوصيل الدعوة للناس.. بل إنه ﷺ هو الذى قال الصحابة رضوان الله عليهم إنه كان يتخولهم بالموعظة، أى بين الحين والحين، مخافة السآمة! السآمة من أى شيء؟ من موعظته ﷺ، وفى نفوس من؟ فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، الذين كانوا يلتقطون كل كلمة يقولها ﷺ بالإقبال والرغبة والحب، ليقينهم أنها طريقهم إلى الجنة! فكيف بنا نحن البشر العاديين حين تكون كل بضاعتنا هى الوعظ و«الإرشاد»!

وهل يصلح الوعظ والإرشاد وحده على فرض تقبل الناس له وعدم سآمتهم منه، وهو فرض غير صحيح، هل يصلح وحده لمعالجة شيء من تلك الأمراض التى أشرنا إليها آنفًا، والتى توغلت فى كيان الأمة قبل الغزو الأخير وبعده؟ هل يصلح لمعالجة الفكر الإرجائى الذى أخرج العمل من مسمى الإيمان، وأوهم الناس لقرون طويلة أنهم يمكن أن يكونوا مؤمنين ولو لم يعملوا عملاً واحدًا من أعمال الإسلام؟ هل هؤلاء يمكن أن ينقلهم الوعظ ـ وحده ـ إلى العمل بمقتضى الإيمان، بما

يتضمنه العمل من بذل الجهد وتحمل المشقة وتحمل المسئولية، والالتزام والانضباط؟!

لو كان هذا ممكنًا فلماذا لم يحدث بالفعل، ونحن ما قصرنا فى إلقاء المواعظ فى كل يوم جمعة، وفى مناسبات إثر مناسبات، وفى الإذاعة وفى التلفاز؟

وهل يصلح ـ وحده ـ لإخراج من غرق فى الصوفية، وفى التبرك بالأضرحة والعتبات، والاعتقاد بقدرة الأولياء على كشف الغيب، وعمل المعجزات التى يسمونها كرامات؟ هل يصلح وحده لإخراج هؤلاء مما غرقوا فيه من انحرافات؟!

وهل يصلح لتغيير ما درج الناس عليه من الفوضى التى تكره النظام، والعفوية التى تكره التخطيط، وقِصَر النَّفَس الذى يشتعل بسرعة وينطفئ بسرعة؟

وهل يصلح لتغيير ما درج عليه الموظفون من إهمال الأعمال والتسويف فى إنجازها، واستحلال الراتب على مجرد الحضور فى الميعاد أو بعد الميعاد، والانصراف فى الميعاد أو قبل الميعاد؟ وتغيير ما درج عليه العمال من الغش والتدليس فى العمل، وعدم الإخلاص فى أدائه ما لم يكن عليهم رقيب عتيد يحصى عليهم أعمالهم، مع استحلال الأجر المقدر للعمل الكامل الذى لا نقص فيه؟ وتغيير ما درج عليه الناس من خلف الوعد وعدم التقيد به، وعدم الشعور بالتأثم من إخلافه لا لبضع دقائق ولكن أحيانًا لبضع ساعات أو بضعة أيام أو بضعة أسابيع؟ وأحيانًا إلى نهاية الحياة!

وهل . . وهل . . وهل . . ؟!

يقول الوعاظ: وماذا نملك غير الوعظ؟ نحن نقوم بواجبنا، وإنك لا تهدى من أحببت، والهداية من الله!

الهداية من الله نعم! ولكن الله وضع منهجًا للدعوة، قوامه القدوة والتربية، ومن وسائله الوعظ مع القدوة والتربية، وعندئذ تعطى الموعظة ثمارها بإذن الله.

ولا نقول مع ذلك إن الموعظة وحدها لا تؤتى ثمارها أبدًا، حاشا لله! وإنما نقول إنها وحدها إن صلحت فى أحوال نادرة فى إصلاح أفراد، فإنها لا تصلح لإصلاح

أمة بلغ الفساد فيها مبلغه، ولا تصلح لإقامة دعوة تريد أن تعيد بناء أمة وصلت إلى درجة الغثاء!

* * *

التربية الروحية ضرورة لا غنى عنها في البناء.. بل لا يتصور أن يقوم بدونها عمل دعوى على الإطلاق، إذا عنينا بالتربية الروحية تعميق الصلة بالله، وترقيق القلب لعبادته سبحانه، وتذكير الإنسان باليوم الآخر، وربط مشاعره بالموقف الذى يلقى الله فيه.. وقد كان هذا جزءاً بارزاً وأساسياً من عمل الرسول ﷺ في تربية أصحابه رضوان الله عليهم في مكة خاصة، حين فُرض عليهم قيام الليل لتعميق هذه الصلة وتثبيتها وترسيخها.. ولكن هذا كله كان إعداداً لأمر آخر، ولم يكن هو في ذاته الغاية!

والمتأمل في سورة المزمل، يتبين أنه مع الأمر بقيام الليل كانت هناك إشارة واضحة إلى تكاليف قادمة، جُعل قيام الليل توطئة لها، وإعداداً للقيام بها: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل: ١ ـ ٥).

كما يتبين المتأمل حكمة الله جل وعلا في اختيار قيام الليل ليكون أداة للتهيئة المطلوبة: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (المزمل: ٦)، أى أعمق أثراً فى تهيئة النفوس لاحتمال التكاليف.

وخلاصة الأمر أنه لابد من تعميق الصلة بالله سبحانه وتعالى ليقوم الإنسان بحمل التكاليف التي يفرضها هذا الدين على الوجه الأكمل، وأخصها الجهاد، والصبر على الابتلاء.. أما حين تكون التربية الروحية غاية في ذاتها، أو حين تكون هي نهاية الشوط في عملية التربية فماذا يكون؟! يكون ـ والتشبيه مع فارق قليل ـ كالجندي الذى تدربه على فنون القتال، وليس في نيتك أن ترسله إلى المعركة قط! أو كالأساس الذى تدكه دكا متينا وليس في نيتك أن تقيم عليه أى بناء!

إن هذا الدين شأنه عظيم.. إنه المنهج الربانى لإصلاح الحياة كلها، وإنشاء

الإنسان الصالح، الذى يقوم بالخلافة الراشدة فى الأرض. . إنه ليس مجرد سبحات روحية وإشراقات، مهما يكن من عمق هذه السبحات، ووضاءة تلك الإشراقات. . إنه جهد وجهاد، وصراع حاد مع الباطل، وإيجابية بنّاءة تهدم الباطل وتشيد الحق. . والتربية الروحية زادٌ لهذا كله، وليست هى غاية الغايات.

إن الإنسان فى حلبة الصراع يُجْهَدُ ويتعب، ويحتاج إلى سند يقويه، يمنعه من السقوط، ويمنع عنه الوهن الذى قد يعتريه، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تقيه من الوهن، وتقويه على الصمود، بما تمده من طاقة، وتشع فى كيانه من نور.

والإنسان فى حلبة الصراع قد يستوحش، حين يتكاثر عليه الأعداء، ويجد نفسه وحده، أو يجد من حوله مستضعفين مثله لا يملكون نصره، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تؤنسه بذكر الله فلا يستوحش، وتذكره بالثمرة الجنية فى اليوم الآخر فيجدّ فى السعى.

والإنسان فى حلبة الصراع قد يفتقد المتاع الحسى، والأهل والأصحاب، والفراش الوثير، والطعام الوفير، فتحن نفسه لذلك كله، أو لشىء منه، فيثاقل إلى الأرض، وهنا تبرز الطاقة الروحية توازن فى حسه ثقلة الأرض، وتعوضه عن حرمانه بمتاع أعلى: معية الله، ورضوان الله، والجنة.

إنها الزاد الذى يحتاج إليه المسافر ليقطع الرحلة فى أمان. . فأما إن كان قاعداً لا يتحرك فما قيمة الزاد!

هل تغير التربية الروحية - وحدها - من واقع الأمة الهابط إلى الحضيض؟

حقًا إنها تنقذ أفراداً من الضياع القاتل، وتبنى لهم سياجًا يحميهم من المهلكات، ولكنها لا تنقذ الأمة من الضياع لأنها لا تدفع بجنود إلى حلبة الصراع، ولا تشارك فى التدافع الذى قال الله إنه هو الأداة الربانية لحفظ الأرض من الفساد: ﴿ ولوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ولكنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ على العَالَمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

* * *

الشحن العاطفى مطلوب فى الدعوة. مطلوب أن يتحمس الناس لما يؤمنون به، ولا يكونوا كالخُشُب المسنَّدة، لا تتحرك ولا تحدث حركة، فالدعوة لا تنتشر بأمثال هؤلاء ولو كانوا هم أنفسهم مستجيبين وملتزمين.. ولكن الحماسة وحدها لا تؤدى إلى شيء، وقد تضر أكثر مما تنفع! فالحماسة كثيراً ما تكون على حساب الوعى، وعلى حساب العلم الصحيح، وعلى حساب الخبرة، وهنا تفقد كثيراً من مزاياها، وتنشأ عنها أضرار كثيرة، خاصة إذا انقلبت إلى عصبية لشخص أو لجماعة أو لحزب أو لفكرة أو لمذهب، فإنها عندئذ تغلق على صاحبها منافذ المعرفة النافعة، وتبث فيه العناد واللدد فى الخصومة، وتدفعه إلى المراء المذموم.

وكثير مما يجرى فى الساحة اليوم من تفرق وتشرذم وتخاصم وتنابذ منشؤه حماسة زائدة عن الحد، لشيء يعتقد صاحبه أنه الحق كل الحق، وأن ما عداه باطل كامل البطلان!

* * *

التوعية الفكرية من ألزم اللوازم للدعوة فى كل وقت، وفى وقتنا الحاضر هذا أكثر من كل الأوقات، فالغبش الذى أحاط بالإسلام وحقائقه فى نفوس الناس فى الغربة الثانية للإسلام غبش كثيف شامل، يحتاج إلى توعية شاملة بحقائق الإسلام ومفاهيمه، بدءاً بمفهوم لا إله إلا الله، وتوعية مركزة بمقتضيات لا إله إلا الله، ونواقض لا إله إلا الله، لأن الغبش لم يحط بشيء من مفاهيم الإسلام أكثر مما أحاط بمفهوم لا إله إلا الله، ومقتضياتها، ونواقضها، وإن كانت التوعية مطلوبة بالنسبة لكل المفاهيم على السواء مفهوم العبادة، ومفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الدنيا والآخرة، ومفهوم عمارة الأرض، ومفهوم التربية، ومفهوم الجهاد...

والتوعية مطلوبة كذلك لمعرفة واقع الأمة والأسباب التى أدت إليه، فبغير هذه المعرفة لا نستطيع وضع المنهج المناسب للدعوة، ولا وسائل العلاج، وكثير من أحوال الأمة لا يدركه كثير من الناس على حقيقته، وإن عرفوا عموماً أن الأمة منحرفة عن الصورة الصحيحة، وعزوا ذلك عموماً إلى البعد عن حقيقة الإسلام، ولكن مدى البعد يخفى على كثيرين، وخطورة الانحراف لا يقدرها حق قدرها كثيرون!

والتوعية مطلوبة مرة أخرى لمعرفة مكائد الأعداء ومخططاتهم للقضاء على الإسلام. وكثير من الناس - من الدعاة أنفسهم - لا يتابعون ما يحدث على الساحة، وما يجدّ من مؤامرات، اعتماداً على معرفتهم العامة بأن اليهود والنصارى أعداء، وأنهم لن يكفوا عن الكيد للإسلام! وهذا وحده لا يكفى! وكثير مما تستدرج إليه الجماعات الإسلامية من المواقف التى لا تخدم الدعوة سببه هذا الجهل بما يدبره الأعداء من صنوف الكيد، بينما الأعداء - بوسائلهم - يعرفون كل ما يُسرّه الإسلاميون وما يعلنونه، ويتابعون متابعة دقيقة كل ما يدور فى العالم الإسلامىّ من حركات وأفكار، فيخططون على علم، ونحن فقط نتلقى الضربات!

حقًا إن التوعية الفكرية من ألزم اللوازم للدعوة فى وقتها الحاضر، ولكنها - وحدها - لا تؤدى إلى شيء حقيقى فى واقع الحركة، ما لم تكن زاداً لعقيدة صحيحة وحركة واعية، تزيدها المعرفة وعيًا وتبصرها بمزالق الطريق، أما حين تتحول إلى ثقافة - مجرد ثقافة - فهى ترف عقلى لا يغير واقع النفوس.

* * *

التربية الجهادية من لوازم الحركة، فالنفوس الرخوة التى لا تقدر على تكاليف الجهاد لا تصلح لحمل الدعوة، ولا للتحرك فى وسط الأشواك، وفى مواجهة الوحوش الضارية التى تفتح أفواهها وتمد مخالبها لتنهش مَن تطوله من جنود الدعوة، وتفتك به بعد أن تذيقه العذاب الأليم.

ولكن التربية الجهادية - وحدها - لا تكفى لإقامة دعوة، بل لا تكفى حتى لحماية الدعوة من الأعداء، بل كثيرا ما تكون سببا فى ضراوة الضرب من قبل الأعداء حين تنقصها الخبرة السياسية والخبرة الحركية، والوعى بحقيقة المعركة وحقيقة الأعداء، وحقيقة الجهد المطلوب للمواجهة، ونوع الجهد اللازم للصراع. وأخطر ما يقع من الحركات التى تعتمد التربية الجهادية وحدها، أو تركز عليها أكثر من متطلبات التربية الأخرى، أنها تسارع إلى الصدام - أو تستدرج إلى الدخول فى صدام - قبل أن تتضح للناس حقيقة القضية، قضية لا إله إلا الله، وقبل أن تستبين سبيل المجرمين كما فصل كتاب الله، فتتعرض الحركة للضرب المميت والناس يتفرجون، ويتاح

للطغاة أن يضحكوا على «الجماهير» فيقولوا لهم : إننا لا نحارب الإسلام، وإنما نحارب الإرهاب!

* * *

من أجل ذلك كله نصر على التربية البطيئة الشاملة ، التي تبدأ بإنشاء القاعدة الصلبة ثم تتوسع على مهل، ولو استغرق ذلك عدة أجيال!

إن مجموع الأمراض التي أصابت الأمة وحولتها إلى غثاء كغثاء السيل، ثم جلبت إليها الأعداء يتداعون عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها أخطر من أن تعالج علاجا سطحيا، بالوعظ أو التوجيه الروحي أو الشحن العاطفي أو التوعية الفكرية أو التربية الجهادية ، إذا استعملت أي واحدة من هؤلاء بمفردها على أساس أنها علاج سريع ينقذ الأمة من واقعها، وينقلها من حال إلى حال .

لسنا بصدد ترميمات جزئية في بناء قائم . . ولكننا بصدد تجديد الأساس لبناء كان قد أوشك على الانهيار، وكل ترميم يفقد قيمته ويفقد فائدته إذا لم يجر تجديد الأساس .

أساس هذا الدين لا إله إلا الله!

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥).

وسؤال واحد، تحدد إجابته القضية تحديداً واضحًا حاسمًا لا لبس فيه : هل الناس ـ إلا من رحم ربك ـ على وعي بحقيقة لا إله إلا الله؟

الجواب عندي واضح . .

إن كثيراً من الدعاة أنفسهم مازال لديهم غبش كثيف حول مقتضيات لا إله إلا الله ، وبالذات حول نواقض لا إله إلا الله ، لأنهم هم أنفسهم لم يتخلصوا بعد من آثار الفكر الإرجائي، الذي أخرج العمل من مسمى الإيمان .

وكثير من الدعاة لم يدركوا بعد مشكلة «الجماهير» الحقيقية، ومدى بعدهم عن حقيقة الإسلام، ومن أجل ذلك تعجلوا في تجميعهم، وفي التحرك بهم، قبل أن تتضح لهم حقيقة القضية التي يَدْعُونَ إليها، ويجمّعون من أجلها!

من أجل ذلك نُصِرّ على أن نقطة البدء هي إنشاء القاعدة الصلبة على ذات المنهج الذي أنشأ به رسول الله ﷺ قاعدته الصلبة، وإن كان من المستحيل أن تصل هذه إلى المستوى الذي وصلت إليه تلك! وليس مطلوبًا من أي جيل أن يصل إلى مستوى ذلك الجيل.. أما المنهج فشيء آخر.. المنهج ثابت لا يتغير، والتربية على أساسه واجب دائم لا تتغير، أيًا كان المستوى الذي يصل إليه المربون والمتلقون، ولكل درجات مما عملوا..

والدرس الأول في بناء القاعدة الصلبة هو درس لا إله إلا الله، علمًا بها، وتربيةً على مقتضياتها، لإعداد الدعاة الذين يوجهون القاعدة الموسعة، حين يأتي دور توجيه الدعوة إلى الجماهير.

الـواقـع والمثـال

من الواضح أن الواقع قد اختلف كثيراً عن المثال .

وقد استعرضنا من قبل بعض أسباب هذا الاختلاف بين الواقع الذى حدث بالفعل ، والمثال الذى كان يجب أن تسير عليه الأمور ، وبعض النتائج التى ترتبت على ذلك الاختلاف .

وهنا بعد أن فصّلنا الحديث عن المنهج النبوى فى إنشاء القاعدة الصلبة ، ثم توسيع القاعدة بمعاونة القاعدة الصلبة ، تحت إشرافه ﷺ ، نعود إلى شىء من التفصيل فيما حدث من افتراق بين الواقع والمثال .

التعجل هو الطابع العام للتحرك الذى قامت به الصحوة الإسلامية منذ قيامها . .

هناك ابتداء تعجل فى إنشاء القاعدة ذاتها .

لو كنا أخذنا منذ البدء فكرة صحيحة عن نوع الخلل الذى حدث فى بنية الأمة ، والذى نشأ عنه ما نشأ من غربة الإسلام بين أهله ، وتداعى الأعداء على الأمة من كل حدب وصوب . . وأخذنا فكرة صحيحة عن نوع الجهد المطلوب لإصلاح هذا الخلل الهائل فى بنية الأمة . . وأخذنا فكرة صحيحة عن الجهد الجبار الذى بذله الأعداء فى التخطيط والإعداد لمحاولة القضاء على الإسلام ، فقد كنا جديرين أن نتمهل كثيراً فى الحركة ، ولا نتعجل فى المسير .

هل كانت المواصفات المطلوبة فى القاعدة الصلبة واضحة فى أذهاننا حين بدأنا الدعوة؟ هل كان واضحًا فى أذهاننا أن توجيه الدعوة «للجماهير» قبل إعداد القاعدة قد يعرّضنا لموقف صعب ، حين تتدفق الجماهير بالشحن العاطفى ، ثم لا نجد موجهين ومربين ، لأننا لم نعدّ بعد الموجهين والمربين الذين يمكن أن يستوعبوا تلك الجماهير؟ وهل كان واضحًا فى أذهاننا أن تجميع الجماهير بالشحن العاطفى

دون تربية حقيقية تترتب عليه نتائج خطيرة فى سير الدعوة حين تنزعج السلطات المحلية والعالمية، فتغضب فتضرب، والناس على غير استعداد بعد للضرب، بل القاعدة ذاتها لم تعدّ إعداداً كافياً لتلقى الضربات؟

أعتقد من رؤية واقع المسيرة، أن هذه الأمور لم تكن واضحة بالقدر المطلوب، فالقاعدة ذاتها شكلت على عجل من الخامات الموجودة فى ذلك الحين. وحقًا إنه لا يمكن فى أى وقت أن تبدأ حركة إلا بالخامات الموجودة فى حينها، تلك بديهية. ولكن الخامات يجب أن تُنتقى بعناية فائقة، ويجب أن تبذل عناية فائقة فى إعدادها، وتنقيتها من شوائبها، قبل أن تُسند إليها مهمة العمل فى الدعوة، خاصة إذا كانت الدعوة تقوم فى مثل الغربة التى كان عليها الإسلام، وتواجه مثل العداوة التى واجهتها من الأعداء..

ونحن الآن لا نوجّه لومًا لأحد، وكل عمل فى سبيل الله مأجور بإذن الله، ولكنا نبين فقط مدى الفرق بين ما كان، وما يجب أن يكون.

ولا شك أن الداعية الأول - عليه من الله رحمة، وجزاه الله خيراً بما قدم - قد بذل جهداً واضحًا فى تنقية تلك الخامات من بعض ما كان عالقًا بالمجتمع كله من أوشاب، فأخرج من نفوسهم الانحصار فى الفردية الضيقة، ورباهم على روح جماعية متحابة متراصة متعاونة متكافلة، تربط بين أفرادها أخوة الإسلام، وأخرجهم من الاشتغال بالعبادة الفردية المنحصرة فى شعائر التعبد، إلى العبادة بالمعنى الأوسع الذى يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقامة مجتمع مسلم يحتكم إلى شريعة الله، كما ربّاهم على كثير من الأخلاقيات الفاضلة، وعلى الفدائية لدين الله.

ولكن واقع المسيرة يدلنا على نقص كبير فى الوعى السياسى والوعى الحركى.. وأخطر من ذلك نقص فى إدراك حقيقة القضية، وحقيقة الهدف الذى نسعى إليه.

لقد سعينا إلى تكوين قاعدة جماهيرية واسعة لنستعين بها على الوصول إلى الحكم على أساس أنه حين نصل إلى الحكم نطبق شريعة الله..

هدف مشروع فى ذاته، ودع عنك موقف الجاهلية التى تجعل من حق كل إنسان

أن يسعى للوصول إلى الحكم . . إلا الإسلاميين! فهم وحدهم يصبحون مجرمين إذا سعوا للوصول إلى الحكم! دع عنك هذا فهو موقف معروف من الجاهلية تجاه دعوة الحق، منذ كانت جاهلية في الأرض، ودعاة يدعون بدعوة الحق. «شنشنة نعرفها من أخزم» كما يقول المثل العربي المشهور! سواء جاء «أخزم» من الشرق أو الغرب أو من داخل البلاد!

ولكن القضية ليست في مشروعية الهدف . . إنما هي في سؤال أساسي: هل مجرد تطبيق الشريعة يكفي لإصلاح حال الأمة التي وصلت لأن تكون غثاء كغثاء السيل، أم يحتاج الأمر إلى متطلبات أخرى قبل ذلك، وبعد ذلك وفي أثناء ذلك؟!

لو أن الداعية الأول ـ رحمه الله ـ أعلن للصفوة التي اختارها لتكون هيئة تأسيسية لجماعته ما أعلنه «للجماهير» عام ١٩٤٨م (أي بعد عشرين سنة من بدء الدعوة) لتغيرت أمور كثيرة في خط السير!

في عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م)، وتحت عنوان: «معركة المصحف»، قال الإمام الشهيد: «الإسلام دين ودولة ما في ذلك شك، ومعنى هذا التعبير بالقول الواضح أن الإسلام شريعة ربانية جاءت بتعاليم إنسانية وأحكام اجتماعية، وكلت حمايتها ونشرها والإشراف على تنفيذها بين المؤمنين بها، وتبليغها للذين لم يؤمنوا بها إلى الدولة، أي إلى الحاكم الذي يرأس جماعة المسلمين ويحكم أمتهم، وإذا قصر الحاكم في حماية هذه الأحكام لم يعد حاكمًا مسلمًا، وإذا أهملت شرائع الدولة هذه المهمة لم تعد دولة إسلامية . . وإذا رضيت الجماعة أو الأمة بهذا الإهمال ووافقت عليه لم تعد هي الأخرى إسلامية، مهما ادعت ذلك بلسانها. وإن من شرائط الحاكم المسلم أن يكون هو نفسه متمسكًا بفرائض الإسلام، بعيدًا عن محارم الله، غير مرتكب للكبائر، وهذا وحده لا يكفي في اعتباره حاكمًا مسلمًا حتى تكون شرائط دولته ملزمة إياه بحماية أحكام الإسلام بين المسلمين، وتحديد موقف الدولة منهم بناء على موقفهم هم من دعوة الإسلام»[1].

---

(١) انظر العدد ٦٢٧ من جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية، السنة الثالثة، بتاريخ الأحد ٧ رجب سنة ١٣٦٧، ١٦ مايو سنة ١٩٤٨.

ترى لو كان أعلن ذلك منذ البدء، هل كانت ستتدفق الجماهير التى تجمعت حوله عن طريق الشحن العاطفى حتى بلغت نصف مليون، معظمهم من الشباب، فى شعب لم يكن يتجاوز تعداده يومئذ تسعة عشر مليونًا من البشر؟ بل هل كانت «الصفوة» ذاتها تتجمع بمثل هذه السهولة التى تجمعت بها، منساقة بعواطفها نحو الهدف الكبير؟

لا أظن..

ثم هل كانت ستتكون من نفس الأشخاص الذين تكونت منهم بالفعل أم من غيرهم؟

لا أدرى! ولا أحد يستطيع أن يقطع فى ذلك بيقين.

ولكن أيا كان الأشخاص الذين كانت القاعدة ستتكون منهم يومئذ، فقد كانوا سيكونون أصلب عودًا، وأكثر دراية، وأطول نفسًا، وأقل تعجلاً مما كانوا بالفعل، فما كانوا سينساقون بعواطفهم، ولا كانوا سيعتقدون أن الهدف سهل المنال قريب التحصيل، فيجندوا أنفسهم وأعصابهم، كما فعل كثير منهم، لفترة محدودة من الزمن، يعتقدون أن كل شىء سيتم فى خلالها بما أعدوه من وسائل الوصول.

كانوا سيعلمون أن المشوار طويل طويل، وأن الجهد المطلوب غاية فى الضخامة، وأن الوسائل المطلوبة أكثر بكثير مما هو معَدّ.. لأن المطلوب ليس مجرد ترميمات فى بناء قائم، ولكنه إعادة تثبيت الأساس.

أما الجماهير فما أظنها كانت ستقبل مع إعلان هذه المبادئ! فقد كانت ستعلم أنها قضية أخطر بكثير من مجرد الاستماع إلى الكلام المؤثر، والامتلاء العاطفى، الذى كانوا يسمونه «الرَّوحانية»[1] والمتعة بلقاء الأحباب، والنشوة بالكثرة التى تتكاثر على الدوام.

كانت ستعلم أنه صراع مع الجاهلية يعرض الإنسان لكثير من المخاطر، التى لا ينبغى «للعاقل!» أن يعرض نفسه لها: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ (القصص: ٥٧).

---

(١) الصحيح هو «الرُّوحانية» بضم الراء نسبة إلى الرُّوح.

وعندئذ كانت الحركة ستمضى بطيئة الخطى، ولكن على منهج أصح! كانت القاعدة الصلبة ستتكون فى بطء من رجال يختارون على مهل بعين فاحصة لا تختار إلا أصلح الخامات الموجودة، ثم يُبذل فى إعدادهم الجهد اللازم ليكونوا نواة صالحة للعمل، بالتربية الروحية، والتربية الخلقية، والتربية الفكرية، والتربية النفسية، والتربية بالعلم الشرعى الصحيح، فى ظل المنهج الربانى العظيم: ﴿ كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾.

وكانت القاعدة ستتوسع، حين يأتي أوان التوسع، بعد إعداد القاعدة الصلبة، بجنود جندوا أنفسهم للدعوة على بصيرة بحقيقة القضية ومتطلباتها، ووعى صحيح بحالة الأمة وما لحقها من الأمراض، وتقدير سليم لطبيعة العمل فى كل مرحلة من مراحل الحركة، وذلك قبل التوجه لعامة الجماهير لينضموا للدعوة وينضووا تحت لوائها..

وكان «العمل السياسى» بمعنى الاشتغال بالقضايا الوطنية والقضايا الاجتماعية وما شاكلها، سيتأخر بعض الوقت، ريثما يتم التمكين الصحيح للأساس الصحيح، المتمثل فى العقيدة الصحيحة والتربية على مقتضياتها، فى محيط الذين استجابوا للدعوة، وجندوا لها أنفسهم (بما يقابل مجتمع المدينة فى جماعة الرسول ﷺ).

ثم كان سيحدث الصراع! وهو أمر لا مفر من حدوثه حسب السنن الربانية التى قدرها الله فى حياة البشرية! وهو يبدأ دائمًا من جانب الجاهلية حين تستشعر الخطر من وجود جماعة مؤمنة فى الأرض، ولو كانت قليلة العدد، ولو كانت من جانبها لا ترغب فى الدخول فى صراع: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ (الشعراء: ٥٤ـ٥٦).

ولكن كان المتوقع أن يتأخر الصراع عن موعده الذى وقع فيه، بحيث يعطى فرصة أكبر لتربية القاعدة الصلبة، ثم تربية القاعدة الموسعة بالقدر المتاح من التربية، ثم إنه حين كان يقع على قوم كَفُّوا أيديهم، ولم يعملوا شيئًا إلا أن يقولوا «ربنا الله»، فإن هذا كان سيعجّل فى تنمية وعى «الجماهير» بحقيقة القضية، فلا تلتبس

في ذهنهم بغيرها من القضايا التي تلبست بها بالفعل، وكان سيصعب على الطغاة تطويع الجماهير لهم من خلال القهر مرة ومن خلال وسائل الإعلام المزيفة مرة، حين تستبين سبيل المجرمين بتفصيل الآيات، على المنهج الرباني القويم، ويعرف الناس على أي أساس يقررون مواقفهم: ﴿وكذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المُجْرِمينَ﴾ (الأنعام: ٥٥).

* * *

الذي حدث بالفعل كان على خلاف ذلك.

تأخر الإعلان عشرين سنة كاملة عن موعده، وفي تلك السنوات كانت جماهير كثيرة قد تدفقت على الحركة غير مستشعرة بما يحيطها من أخطار! واختلطت الدعوة، وهي لم تَخلُصْ بعد للا إلا إله إلا الله، بكثير من القضايا السياسية والقومية والاجتماعية، على ظن من القائمين بالدعوة أن هذا سيمكّن للدعوة بتوسيع قاعدتها الشعبية، وأن الجماهير يجب أن تُشْرَك في الأمر، وذلك بتناول القضايا التي تشغل بال الجماهير في ذلك الوقت، حتى كانت القنبلة التي فجرت الموقف كله في فلسطين عام ١٩٤٨م..

عندئذ بدأ الهجوم الوحشي على الحركة بأبشع صورة يمكن أن تخطر على البال.

نعم كانت الحرب على الدعوة متوقعة، لأنها كما قلنا سنة من سنن الله، وكان الإمام الشهيد يقول لأعوانه وأتباعه: «أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لازالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات»[1].

ولكن الصورة التي تمت بها الحرب لم تكن تخطر على البال.

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م ص١٠٨.

وتوالت المذابح منذ ذلك الحين ومازال.

لقد انكشف للغرب الصليبي موضع الخطر على وجه التحديد، إنه الإسلام السياسي الذى لا يقنع من الإسلام بشعائر التعبد ومشاعر القلوب، إنما يريد أن يكون منهجًا مطبقًا فى واقع الأرض، يحكم حياة الناس كلها: سياستها واقتصادها واجتماعها وفكرها وأخلاقها، وكل مجال من مجالاتها! وهل يوجد ـ فى نظر الغرب ـ أخطر من ذلك على وجه الأرض؟[1]

لابد إذن من مكافحته.. لابد من تجنيد القوى كلها ضده.. لابد من متابعته ومطاردته.. لابد من تجفيف منابعه.. لابد من تشويه صورته حتى لا يُقبل عليه الشباب فتزيد خطورته!

ولقد أشعل نار الحقد فى قلوب الصليبية الصهيونية أمران فى وقت واحد: الأول وقع المفاجأة على الصليبية التى كانت تتوقع بعد تخطيط مائتى عام أو أكثر أن تنجح فى القضاء على الإسلام، ففوجئت به يستيقظ من رقدته! والثانى تهيؤ اليهودية العالمية لإقامة دولتها على أرض الإسلام بعد سعيها الخبيث لإماتته، حتى تنشئ دولتها فى أمان من الأخطار، فإذا بها تفاجأ بالخطر وجهًا لوجه! وتلاقى الأمران معًا وتفاهما على ضرورة القضاء على عدوهما المشترك الخطير.

هل كان يتوقع أن تنجو الحركة الإسلامية من عداوة الصليبية الصهيونية وكيدها، ومحاولة القضاء عليها؟

نعتقد أن ذلك محال!

ولكنا نعتقد مع ذلك أن صورة أخرى كانت قمينة أن تقع لو سارت الأمور على المنهج الصحيح، لو كانت «الجماهير» التى أشركت فى الصراع قبل الأوان على

---

(١) يزعم الغرب أنه يحارب «الإسلام المقاتل» «Militant Islam» فقط، الذى أطلق عليه لقب «الإرهاب» ولا يقاتل الإسلام ذاته. ويكذب هذا الزعم تكذيبا قاطعا موقف الغرب من حركة الجزائر، فهى لم تكن مقاتلة، ولا كان فى برنامجها أن تقاتل، إنما وصلت عن طريق صناديق الانتخاب على مذهب الغرب ذاته، ولكن الغرب لم يطقها. مما يدل على أنه لا يريد للإسلام أن يحكم، بصرف النظر عن الوسيلة التى يصل بها إلى الحكم!

وعى بحقيقة القضية ، وحقيقة الصراع! ولن تكون الجماهير على هذا الوعى حتى تكون قد تربت من قبل ، ولن تتربى التربية المطلوبة حتى تكون القاعدة قد تم إنشاؤها على منهج سليم! وهكذا أدى النقص فى الحلقة الأولى إلى نقص متسلسل فى بقية الحلقات!

ثم كان ما أشرنا إليه فى الفصول الأولى من ردود فعل للضربات الوحشية من قبل الأعداء، زادت من الغبش سواء فى القاعدة أو عند الجماهير ، ونقصد بذلك دخول بعض فصائل العمل الإسلامى فى البرلمانات ، وما صحب ذلك من تمييع لقضية الشرعية ، وقضية الإلزام فى تحكيم شريعة الله ، ودخول فصائل أخرى فى صراع مسلح مع السلطات ، مما أدى إلى تهميش القضية الأساسية ، وتحول الأمر فى حس الناس إلى قضية ضارب ومضروب ، وغالب ومغلوب[1].

ثم اشتطت فصائل أخرى من فصائل العمل الإسلامى فدخلت فى معارك دموية مع الناس . . مع «الجماهير» على أساس أنهم كفار يجوز قتلهم ما داموا لم يدخلوا فى «الجماعة المسلمة»!

وكان لهذا الأمر أسوأ الأثر على العمل الإسلامى كله . ففضلا عن النفور العام عند الناس من هذه الأعمال التى لا سند لها من شرع الله ، فقد وجدت وسائل الإعلام المتربصة بالحركة الإسلامية فرصة مواتية لتلوين الساحة كلها بلون الدم المراق ، مع أنه لا يمثل إلا جزءا ضئيلا من الساحة ، ووصمت كل عمل إسلامى أيًا كان نوعه بأنه عمل إرهابى ينبغى أن يحارب وتجفف منابعه!

وما كانت وسائل الإعلام العالمية فى حاجة إلى من ينبهها أو يحفزها إلى انتهاز الفرصة ، فهى ـ بموقفها المعادى للإسلام أصلا ـ جاهزة لتلقف مثل هذه الفرصة واستغلالها إلى أقصى حدود الاستغلال!

كما كان رد الفعل سيئًا بالنسبة للغبش الذى يحيط بقضية لا إله إلا الله ، سواء بالنسبة للقاعدة أو بالنسبة للجماهير ، فقد انبرى أصحاب الفكر الإرجائى ينافحون عن فكرهم بشدة ، وينشرونه بكل وسائل النشر ، بل وقع فى الدوامة «علماء» ممن

---

(١) راجع فصل «أسباب التعجل» فى أول الكتاب.

يعتبرهم الناس من أهل الذكر الذين يُرْجَع إليهم، فراحوا ينفون الوقوع فى الشرك عن الواقعين فيه بحرارة وبضراوة، ويمنحونهم شهادات موثقة بالإيمان! ويهوّنون فى حس الناس هذا الجرم الهائل فى حق الله، وهو الإعراض عن شريعته، وتحكيم الشرائع الجاهلية بدلا منها، على أنه مجرد معصية لا تستحق حتى أن يُشار إليها بالإنكار! ولقد كان الأحرى أن تأخذ القضية مسيرة أطول على الخط التعليمى، تبدأ بالقاعدة ثم - على مهل - تتوسع بتوسيع القاعدة، دون الدخول فى معركة مع «الجماهير».

* * *

ثم تشرذم العمل الإسلامى لأسباب متعددة . . منها غياب قيادة كبيرة تضم العمل الإسلامى وتوحده، أو فى القليل تقرّب بين مختلف اتجاهاته، ووجود قيادات صغيرة، كل منها يعتد بنفسه ورأيه، ويرى أنه وحده على صواب والكل غيره مخطئون.

ومنها أن كثيراً من الشباب القائم بالدعوة لم ينشأ فى داخل تجمع يربى فيه روح الأخوة وترابطها، إنما نشأ على ترابط فكرى هش، يسهل فسخه عند وقوع أى خلاف فى التفسير أو التأويل أو الفهم، فسرعان ما تنقسم الجماعات، وينقلب بعضها على بعض.

ومنها نقص فى العلم الشرعى الذى يشكل الضوابط الضرورية للفكر وللسلوك . .

ومنها بطبيعة الحال، العمل الدائب من الأجهزة المعادية للإسلام، لتعميق الخلافات وتقطيع الروابط بين الناس.

فهل يرجى لهذا الحال إصلاح؟ هل يُرجى من الذين تعجّلوا فى شتى الاتجاهات أن يراجعوا المسيرة، ويصححوا ما وقعوا فيه من أخطاء، ويبدءوا من جديد على هدى من المنهج النبوى السديد؟

إن ما وقع بالفعل هو قدر من أقدار الله . . ولكنا تعلمنا من كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ أن الإيمان بقضاء الله وقدره لا ينفي مسئولية الإنسان عن خطئه حين يخطئ، ولا يمنعه من السعي إلى تصحيح ما أخطأ فيه .

فهل يُرجى أن يصحح العمل الإسلامي مساراته، ويبدأ جولة جديدة أقرب إلى السداد؟!

إن تصحيح المسار واجب على كل حال . . ولكن ربما يقول قائل : إن الأعداء لن يتركوا العمل الإسلامي يصحح مساراته، وسيعاجلونه بالحرب قبل أن يتمكن من التصحيح . ونقول لهم إن الحرب لن تكف، ولكنها لن تقضي على العمل الإسلامي، بل قد تكون من عوامل الشحذ، وزيادة الوعي عند الناس بحقيقة المعركة بين الجاهلية والإسلام .

ويظل واجب النصيحة واجبًا في جميع الأحوال : «الدين النصيحة» قالوا : لِمَن يا رسول الله؟ قال : «لله ولرسوله ولكتابه ولعامة المسلمين وخاصتهم»[1] .

---

(١) سبقت الإشارة إليه .

نظرة إلى المستقبل

ينزعج كثير من الناس حين ينظرون إلى الواقع الراهن، سواء بالنسبة للحرب الضارية التي توجه إلى الحركات الإسلامية في كل الأرض، أو بالنسبة لما وقع - وما يزال يقع - من الاضطراب في مسيرة الحركة من جهة أخرى، فيحسبون أن العمل الإسلامي ليس له مستقبل، وأن الواقع السيىء الذي يعيشه المسلمون اليوم سيستمر على ما فيه من السوء، أو أنه صائر إلى مزيد من السوء.

أما نحن فنعتقد اعتقادا راسخا أن المستقبل للإسلام.

ولسنا نبني رؤيتنا على أوهام، ولا على أحلام، ولا نحن كذلك نغمض أعيننا عن العراقيل القائمة في وجه العمل الإسلامي من داخله أو من خارجه، ولا نقلل من شأنها، ولا من تأثيرها على العمل الإسلامي.

ولكنا نؤمن إيمانًا جازمًا أن البشر ليسوا هم الذين يقدرون الأقدار، سواء منهم العدو أو الصديق، إنما الله هو الذي يقدر، وهو صاحب الأمر من قبل ومن بعد، ومشيئته هي النافذة، وقدره هو الغالب: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١)

والله هو الذي قدر لهذا الدين أن يبقى في الأرض وأن يظهر على الدين كله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٩) «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار»[1].

وقدر الله يجري من خلال سننه التي لا تتبدل ولا تتحول، ومن خلال وعده ووعيده، ومن خلال مشيئته الطليقة التي تقول للشيء كن فيكون، وتخلق الأسباب التي يتحقق بها كل شيء حين يقدر له أن يكون.

* * *

وإذا نظرنا إلى الموقف على ضوء السنن الربانية، وعلى ضوء وعد الله ووعيده،

---

(١) رواه أحمد.

فسنجد على الساحة عنصرين متصارعين : الحركات الاسلامية من جهة ، وأعداء الإسلام من صهيونيين وصليبيين وأعوان لهم من جهة أخرى . فما الذى يتوقع لكل من العنصرين فى المستقبل القريب أو المستَقبل البعيد؟

فأما الحركات الإسلامية فقد أسهمت فى العمل الإسلامى بجهد واضح لا شك فيه . وانتشار الروح الإسلامية على مستوى العالم الإسلامى كله ، والرغبة الحارة فى العودة إلى الإسلام فى محيط الشباب خاصة ، راجعان بعد فضل الله ومشيئته إلى الجهد الذى بذلته الحركة فى أكثر من نصف قرن من الزمان ، منذ سقوط الخلافة إلى الوقت الراهن .

ولكن السلبيات القائمة فى العمل الإسلامى معوّق واضح يبدد كثيراً من طاقة العمل ويعثره ، ولا يجعل الجهد يؤتى ثماره المرجوة ، فهل يستمر الوضع على هذا الحال؟
﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمواتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾ (النمل : ٦٥) .

ولكن الأمر لا يخرج عن أحد احتمالين : إما أن يستمر الوضع على حاله ، وإما أن يتغير .

ونحن نرجو - من خلال التجارب المُرّة التى يمر بها العمل الإسلامى - أن يتغير الوضع إلى الصورة الصحيحة ، وأن تُتلافى الأخطاء التى وقعت ، وتبدأ مسيرة سليمة على منهج سليم .

ولكننا نفترض الفرض الأسوأ ، وهو إصرار العاملين فى حقل الدعوة على مواقفهم ، على اعتبار أن منهج كل منهم هو المنهج الأصوب ، وأن ما يدعو إليه غيره بعيد عن الصواب ، أو على أساس أنه لا يمكن التراجع بعدما مضت كل حركة فى طريقها خطوات ليست بالقليلة ، أو على أى أساس آخر مما يمكن أن تبرر به كل حركة إصرارها على موقفها .

فماذا يحدث حينئذ؟ هل يعجزون الله؟ أم يُنْفِذُ الله قَدَرَه رضى الناس أم أبوا؟

إن أداة التغيير موجودة على الدوام فى سنة الله عز وجل : ﴿وإن تتولَّوْا يستبدلْ قومًا غيرَكُمْ ثُمَّ لا يكُونُوا أمْثالَكُمْ﴾ (محمد : ٣٨) .

فإذا كان في قدر الله أن يبقى هذا الدين، وأن يظهره على الدين كله، كما أخبر سبحانه في كتابه المنزل، وعلى لسان رسوله ﷺ، فلن تقف سلبيات العمل الإسلامي الراهن أمام قَدَر الله ومشيئته، وسوف يُنفذ الله وعده، ويخلق لنفاذه ما يشاء من الأسباب: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤).

* * *

أما الأعداء فلننظر ماذا يخصهم من سنن الله، ومن وعده ووعيده.

أما الغرب الصليبي، فأشد ما ينطبق عليه من السنن الربانية هو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٤).. ذلك أنهم أرادوا الحياة الدنيا وعملوا من أجلها واجتهدوا فوفّى الله لهم أعمالهم فيها بحسب سنة من سننه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (هود: ١٥).. وذلك أيضًا حسب مشيئة إلهية مسبقة، أنه يعطي الدنيا للمؤمن والكافر على السواء، كل بحسب اجتهاده، ولا يمنعها عن الكفار، بل قد يزيدهم منها ليزدادوا كفرًا: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠). ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨).

فإذا كان الغرب اليوم ممكنًا في الأرض، ومستعليًا فيها حسب هذه السنن الربانية، فإن هذه السنن ذاتها تقول إن ذلك الإملاء لا يدوم إلى الأبد، إنما هو موقوت بقدر يأتي من عند الله في موعده المقدر له: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٤ - ٤٥).

وعلى الرغم من فتح أبواب كل شيء عليهم فإنهم يعيشون فى الضنك الذى توعد الله به المعرضين عن ذكره .

﴿ ومَنْ أعْرض عن ذكْري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكًا ونحْشُرُهُ يوْم القيامة أعْمَىٰ ﴾ (طه : ١٢٤) .

والضنك الذى يعيشه الغرب ـ المفتوح عليه أبواب كل شيء من أسباب التمكين المادى ـ يتمثل الآن فى القلق والجنون والانتحار ، والأمراض النفسية والعصبية ، والخمر والمخدرات والجريمة ، والإيدز ، وما قد يجدّ من الأمراض التى لم تكن موجودة من قبل ، أو لم تكن تأخذ صورة الوباء كما هى اليوم ، وفى الأزمات التى تحيط بالعالم كله سواء كانت أزمات اقتصادية أو سياسية أو حربية أو فكرية أو خلاف ذلك . . وذلك لأن باب البركة وباب الطمأنينة ليسا من الأبواب التى تفتح للكفار حين ينسون ما ذُكروا به ، لأنها خاصة بالمؤمنين ، يتفضل بها الله عليهم فى الحياة الدنيا ، فضلاً عن نعيم الآخرة : ﴿ ولوْ أنَّ أهْل القُرىٰ آمنُوا واتَّقوْا لفتحْنا عليْهِم بركاتٍ مّن السَّماء والأرْض ﴾ (الأعراف : ٩٦) . ﴿ الَّذين آمنُوا وتطْمئنُّ قُلُوبُهُم بذكْر الله ألا بذكْر الله تطْمئنُّ القُلُوبُ (٢٨) الَّذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحات طُوبىٰ لهُمْ وحُسْنُ مآبٍ ﴾ (الرعد : ٢٨ ـ ٢٩) .

وخلاصة القول : إن الغرب اليوم يملك كل وسائل القوة المادية ، ولكنه لا يملك القدرة على الاستمرار ؛ لأنه خاو من العوامل التى يكتب الله لأصحابها الاستمرار ، وهى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعمل الصالحات . .

ولا شك أن لديهم أعمالاً صالحة ، كالخدمات الطبية ، وتيسير سبل الحياة بما يوفر جزءاً من المشقة التى يكابدها الإنسان فى الأرض ، ولم تخل جاهلية من جاهليات التاريخ من أعمال صالحة يقوم بها بعض أفرادها ، ولكن ذلك لا يمنع عنها صفة الجاهلية من جهة ، لأن هذه لا تزول عن الإنسان إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر واتبع ما أنزل الله . ومن جهة أخرى فإن تلك النقط البيضاء المتناثرة فى الثوب الأسود الممتلئ بالشر ، لا تغنى عن أصحابها شيئاً ، ولا تمنع عنهم الدمار الذى تقرره السنن الربانية لهم مهما طال الإملاء لهم .

إن الإلحاد الذى تنشره الحضارة الغربية، والانحلال الخلقى الذى تنشره وسائل إعلامها، والخواء الروحى، والانغماس فى المتاع الحسى إلى آخر المدى، وتزيين الحياة الدنيا، ونسيان الآخرة نسيانًا كاملاً، والغفلة عن أن الله يحصى على البشر أعمالهم ويحاسبهم عليها، كل هذا لا يصنع حضارة حقيقية يكتب الله لها الاستمرار فى الأرض، ولو أملى لأصحابها فترة من الزمان لحكمة يريدها.

ولسنا نحن الذين نقول ذلك إرضاءً لعواطفنا، أو تصديقًا لأحلامنا! فمن قبل سنوات قال برتراند رسل: «لقد انتهت حضارة الرجل الأبيض، لأنه لم يعد لديه ما يعطيه».

ومن قبل قال ألكسيس كاريل: «إن هذه الحضارة آيلة للانهيار».

وبالأمس شهدنا انهيار الشيوعية، وفى الوقت الحاضر تكتب الصحف الغربية ـ والأمريكية من بينها ـ تقول: هل بدأ انهيار أمريكا؟

ولسنا من السذاجة بحيث نعتقد أن ذلك سيتم غداً صباحًا! فمازال فى هذه الحضارة الجاهلية من العوامل ما يمكن أن يمدّ لها فترة من الزمن بحسب السنن الربانية: عبقرية التنظيم، والجلد على العمل، والحرص على الإتقان، والقدرة على التخطيط. فضلاً عن كون البديل الحضارى الذى يؤدى ظهوره إلى سرعة انهيار تلك الحضارة لم يظهر بعد!

ولكن هذا كله لا يغير المصير، لأنه سنة من سنن الله!

* * *

أما اليهود فلهم شأن مختلف.

لقد كتب الله عليهم الذلة والمسكنة بما قدمت أيديهم، ولكنه جعل لذلك استثناء.. أو استثناءات.

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ

وعْداً مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رددْنا لكُمُ الْكرّة عليْهِمْ وأمْددْناكم بأمْوالٍ وبنين وجعلْناكُمْ أكْثر نفيراً (٦) إنْ أحْسنتُمْ أحْسنتُمْ لأنفسكُمْ وإنْ أسأتُمْ فلها فإذا جاء وعْدُ الآخرة ليسُوؤُوا وُجُوهكُمْ وليدْخُلوا الْمسْجد كما دخلُوهُ أوّل مرّةٍ وليُتبّرُوا ما علوْا تتْبيراً (٧) عسىٰ ربُّكُمْ أن يرْحمكُمْ وإنْ عُدتُّمْ عُدْنا ﴾ (الإسراء: ٤ ـ ٨).

﴿ ضُربتْ عليْهِمُ الذّلّةُ أيْن ما ثُقفُوا إلاّ بحبْلٍ مّن الله وحبْلٍ مّن النّاس ﴾ (آل عمران: ١١٢).

وهم الآن في قمة استثناءاتهم التي وعدهم الله بها.. مسيطرون على كل الأرض إلا ما رحم ربك، يعيّنون رؤساء الجمهوريات، ويملون عليهم سياستهم، ويعزلون من يغضبون عليه ويسقطونه من سلطانه، ويقتلون من يقف في طريقهم كما قتلوا كنيدي وغيره من الناس.. ولكن هذا كله استثناء من القاعدة!

﴿ وإذْ تأذّن ربُّك ليبْعثنّ عليْهِمْ إلىٰ يوْمِ الْقيامة من يسُومُهُمْ سُوء الْعذاب ﴾ (الأعراف: ١٦٧).

تلك هي القاعدة الدائمة، وما دون ذلك استثناء، والاستثناء بطبيعته لا يدوم، لأنه مخالف للقاعدة!

والقاعدة من تقدير الله سبحانه وتعالى، والاستثناء يتم بقدر منه كذلك، ولكن طبيعة الأمور أن الاستثناء ينتهي ويعود الأمر إلى ما تقرر في القاعدة، حسب وعد الله ووعيده.

وقد لا نعلم نحن الحكمة الربانية في تلك الاستثناءات المذكورة في آيات الكتاب، ولكن وقوعها محقق سواء فهمنا حكمتها أم غابت الحكمة عن أفهامنا.. والمهم أن ندرك أنها استثناء من القاعدة، وأنها موقوتة بأمد محدود.

واليهود أنفسهم يعلمون ذلك! ويعلمونه من كتبهم ذاتها لا من المصادر الأجنبية عنهم!

* * *

وحين تنهار الجاهلية المعاصرة بمقتضى السنة الربانية، بحكم ما تشتمل عليه من الفساد، فإن البشرية تكون في حاجة إلى البديل الذي يملأ الفراغ.

والإسلام هو البديل، هو الذي يعيد للأرض رشدها ويصلح أحوالها ويشفيها من أمراضها:

﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥ ـ ١٦).

الإسلام هو المنهج الكامل القويم الذي لا عوج فيه، ومناهج الجاهلية دائمًا ذات نقص واعوجاج.

واليوم يفر مئات الألوف كل عام من الظلمات التي يعيشون فيها إلى نور الإسلام، لا اتباعًا لنموذج قائم، فالمسلمون في واقعهم المعاصر لا يمثلون نموذجًا يحتذى، بل هو نموذج حريّ أن يصد الناس عن الإسلام!

ولكن لذع الضياع يدفع بعض الناس إلى البحث عن طريق الخلاص، فيجدونه في الإسلام!

إن الغرب الضائع يملك علمًا وحضارة مادية فائقة، ولكنه يفتقد الروح.. الروح المهتدية إلى الله.. المهتدية بهدى الله. والإسلام هو الذي يملك تلك الروح، وهو في الوقت ذاته لا يجعلها بديلاً من العلم والحضارة المادية، إنما هي التوأم المكمل:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١ ـ ٧٢).

قبضة الطين ونفخة الروح معًا هما «الإنسان». الإنسان المتكامل المترابط المتوازن. الإنسان الراشد، الذي يقوم بعمارة الأرض على هدى وبصيرة، ويتطلع في الوقت ذاته إلى اليوم الآخر، الذي تكتمل فيه الحياة:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥).

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (القصص : ٧٧).

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ٧٢).

الإسلام هو المنقذ الذى يملك ما تحتاج إليه البشرية وتتطلع إليه.

يقول الأمير تشارلس ولى عهد بريطانيا فى محاضرة قيمة ألقاها فى قاعة المؤتمرات بوزارة الخارجية البريطانية فى ديسمبر من عام ١٩٩٦م، تحمل دلالة واضحة بالنسبة للمعنى الذى أشرنا إليه :

«إن المادية المعاصرة تفتقر إلى التوازن. وأضرار عواقبها بعيدة الأمد فى تزايد.. إن القرون الثلاثة الأخيرة شهدت ـ فى العالم الغربى على أقل تقدير ـ انقساما خطيرا فى طريقة رؤيتنا للعالم المحيط بنا. فقد حاول العلم بسط احتكاره، بل سطوته المستبدة، على طريقة فهمنا للعالم. وانفصل الدين والعلم عن بعضهما البعض، بحيث صرنا الآن كما قال الشاعر «وردزورث» «لا نرى إلا القليل فى أمنا الطبيعة التى نملكها».

لقد سعى العلم إلى انتزاع الطبيعة من الخالق، فجزأ الكون إلى فرق، وأقصى «المقدس» إلى زاوية نائية ثانوية من ملكة الفهم عندنا، وأبعده عن وجودنا العملى. والآن فقط بدأنا نقدر العواقب المدمرة. ويبدو أننا نحن ـ أبناء العالم الغربى ـ قد فقدنا الإحساس بالمعنى الكلى لبيئتنا، وبمسئوليتنا إزاء الكون كله الذى خلقه الله، وقادنا ذلك إلى فشل ذريع فى تقدير أو إدراك التراث وحكمة السلف، ذلك التراث المتراكم على مدار القرون. والحق أن ثمة تحاملا شديدا على التراث، كما لو كان جذاما اجتماعيا منفرا.

وثمة الآن فى نظرى حاجة إلى مقابلة كلية شاملة. لقد أدى العلم لنا خدمة جليلة فى تبيانه لنا أن العالم أعقد بكثير مما كنا نتخيل. ولكن العلم فى شكله المادى

الحديث، الأحادي، عاجز عن تفسير كل شيء. إن الخالق ليس ذلك الرياضي الذي تخيله نيوتن، وليس صانع الساعة الأول[1]. إن انفصال العلم والتكنولوچيا عن القيم والموازين الأخلاقية والمقدسة قد بلغ حداً مريعًا مفزعا. وهذا ما نراه في التلاعب بالمورثات (الجينات) أو في عواقب الغطرسة العلمية التي تتجلى في أبشع صورها في مرض جنون الأبقار.

لقد كنت أستشعر دائما أن التراث في حياتنا ليس من صنع الإنسان، إنما هو إلهام فطري وهبه الخالق لنا لإدراك إيقاع الطبيعة، والتناغم الجوهري الذي ينشأ عن وحدة أضداد متفرقة، ماثلة في كل مظهر من مظاهر الطبيعة. إن التراث يعكس النظام السرمدي للكون، ويشدنا إلى الوعي بالأسرار العظيمة للكون الفسيح، بحيث نستطيع ـ كما قال الشاعر «وليم بليك» ـ أن نرى كامل الكون في ذرة، ونرى الأبدية في لحظة..

إن الثقافة الإسلامية في شكلها التراثي جاهدت للحفاظ على هذه الرؤية الروحية المتكاملة للعالم بطريقة لم نجدها نحن خلال الأجيال الأخيرة في الغرب مواتمة للتطبيق. وهناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار.

إننا ـ نحن أبناء الغرب ـ نحتاج إلى معلمين مسلمين ليعلمونا كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا. وإن اقتراب الألف الثالثة قد يكون الحافز المثالي الذي يدفعنا لاستكشاف هذه الصلات وتحفيزها. وآمل ألا نفوت الفرصة السانحة لإعادة اكتشاف الجانب الروحي في رؤيتنا لوجودنا بأجمعه»[2].

* * *

الإسلام هو المنقذ، وهو البديل القادم بإذن الله!

وقدر الله غيب، ولكن له إرهاصات.

---

(١) قال نيوتن إن الله خلق الكون على هيئة ساعة كونية منضبطة الحركة. ولكن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية الضخمة، لأنه هو ذاته لا يستطيع تغيير مسارها حتى لو أراد ذلك!

عن كتاب «منشأ الفكر الحديث» تأليف برنتون ص ١٥١ من الترجمة.

(٢) من جريدة الشرق الأوسط العدد ٦٥٩٢، بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٩٩٦.

لو كان فى قدر الله أن ينتهى هذا الدين من الأرض، فقد كان الكيد الصليبى كفيلاً بالقضاء عليه يوم أطاح بالدولة العثمانية وألغى الخلافة، وظنت الصليبية الصهيونية يومئذ أنها ظفرت أخيراً بعدوها اللدود، وأجهزت عليه! ولكن قدر الله كان غير ذلك، كان هو الصحوة الإسلامية!

ولما جن جنون الصليبية الصهيونية من الصحوة، قاموا يضربونها بكل ما يملكون من وسائل البطش، بالسجن والتشريد والتعذيب والقتل، ظنًا منهم أن هذا هو طريق الخلاص من العدو الذى لم تقتله الضربة التى ظنوها هى القاضية . . ولكن قدر الله كان غير ذلك، كان مزيداً من انتشار الصحوة فى كل الأرض!

والإرهاصات كلها تقول: إن الإسلام هو البديل القادم، الذى يصلح ما أفسدته الجاهلية فى الأرض!

* * *

الإسلام قادم من أى طريقيه جاء. الطريق الهادئ البطئ المتدرج، الذى نحبه ونرتضيه وندعو إليه، ولو استغرق تمامه عدة أجيال، أو الطريق الصاخب العنيف الذى تغذيه حماقات الغرب وحماقات إسرائيل!

إن الصليبية الصهيونية التى تسيطر على الأرض اليوم، تعمل بحماقة ضد مصالحها! إنها ـ بعنف البطش الذى توجهه ضد الحركات الإسلامية ـ تولد أجيالاً من العمل الإسلامى أصلب عوداً، وأطول نَفَسًا، وأكثر وعيًا، وأشد مراسًا من الذين تحاربهم اليوم!

وعقلاؤهم يعرفون ذلك، ويحذّرون قومهم منه، ولكن الحقد الذى فى قلوبهم يعميهم عن رؤية هذه الحقيقة، ويصم آذانهم عن الاستماع للنصيحة، ولو جاءت من عقلائهم أنفسهم!

ويتم ذلك بقدر من الله، وحسب سنة من سنن الله: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤٥ ـ ٤٦).

إن الانفجارات الكبرى فى التاريخ تحدث دائمًا حين يشتد ضغط الطغاة على تيار صاعد! يشتد عليه الطغاة ليكبتوه، فيكون هذا الضغط ذاته هو الذى يولد الانفجار، ويكون الضحية فيه هم الطغاة!

والذى تفعله الصليبية الصهيونية اليوم ـ بحماقة ـ هو هذا الضغط الذى يولد الانفجار.

* * *

وبضربة قدر واحدة تتم ثلاثة أمور في وقت واحد.

يتم أولاً عقاب الأمة الإسلامية على ما فرطت فى دين الله.

لقد حمّل الله هذه الأمة أمانة لم يحمّلها لأمة سابقة فى التاريخ، حين كرّمها بأن تكون أمة خاتم الأنبياء، وجعل في حمل هذه الأمانة خيرية الأمة وفضلها على الأمم السابقة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠). ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

ولكنها غفلت حينًا من الدهر، ونسيت رسالتها لا تُجاه البشرية فحسب، بل تجاه نفسها كذلك.. عندئذ قدّر الله لها أن تعاقب على يد أعدائها، كما أنذرها رسولها: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن». قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وفى الوقت الذى قدّر الله فيه عقاب الأمة على يد أعدائها، مكن لهؤلاء الأعداء فى الأرض، حسب سنته فيمن نسوا ما ذكروا به.. وليتم بشأنهم قدر آخر هو التدمير فى الموعد المقدر عند الله عقابًا لهم على إعراضهم وطغيانهم وتجبرهم، فضلاً عن القدر المقدر لهم يوم القيامة، والذى قال الله عنه: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل : ٢٥).
﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (آل عمران : ١٧٨).

ويتم كذلك فى الوقت ذاته تمحيص المؤمنين : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤١).

وكما تمت تربية موسى فى قصر فرعون بقدر من الله ، يتم اليوم بقدر من الله مولد جيل جديد ، جيل ما بعد الغثاء ، على يد الأعداء الذين يكيدون لهذا الدين : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١).

* * *

ولن يكون الأمر نزهة قريبة بالنسبة للمسلمين . . إنما هى تضحيات ، ودماء ودموع ، وعذاب ومعاناة ، ولأواء وابتلاء ، وجهد دائب لا يهدأ ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ (آل عمران : ١٤٠).

لابد من ثمن يدفعه المسلمون جزاء تفريطهم فى دين الله ، ولابد من جهد يبذلونه ليعودوا إلى الطريق .

ولكن عزاءهم ، وهم يقدمون الشهداء ، ويتحملون العذاب ، ويبذلون الدماء والدموع ، أنهم يجاهدون فى سبيل الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكونوا هم ستاراً لقدر الله الذى سيمكّن لهذا الدين .

وعزاؤهم أن لهم فى الآخرة الجنة ، ورضوان الله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ٧٢).

الفهـرس

رقم الإيداع ٢٢٠٣ / ٢٠٠٠
I.S.B.N 977- 09- 0606- 9

مطابع الشروق